إلهام منصور

تركت الهاتف يرن

By

Elham Mansour

(Novel)

First Published in April 2009
Copyright © **Riad El-Rayyes Books S.A.R.L.**
BEIRUT- LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb • www.elrayyes-books.com
• www.elrayyesbooks.com

ISBN 9953-21- 421-2

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publishers

لشراء النسخة الإلكترونية:
www.arabicebook.com

تصميم الغلاف:
الطبعة الأولى: نيسان/أبريل ٢٠٠٩

1

في ذلك اليوم من أيام شهر أيلول المنعشة، كنت وحدي في البيت وكان الوقت مغيب الشمس. جلست على مقعدي المعتاد أفكر بليال وقد مضى على انقطاع التواصل بيننا أكثر من يومين، وهو أمر مستغرب، إذ كانت تبادر إلى مكالمتي كل يوم عبر الهاتف أو تأتي إلى زيارتي، نجلس معاً وتخبرني عن كل جديد لديها ونستعرض معاً الساحة الثقافية والساحات الأخرى، الخاصة والعامة.

الغريب أن حشريتي هي التي استفاقت وليس انشغال بالي عليها، استغربتُ عدم اتصالها بي ليومين متتالين، وفي لحظة ظهرت أمامي تلك الصورة التي لا تفارق ذاكرتي؛ ذهبتُ برفقته إلى ذلك الاجتماع، وعند انفضاضه رأيته يسير وراءها ويلحق بها إلى أن وصلت إلى سيارتها، دخلتْها وبقي هو خارجها منحنياً على نافذة

السيارة بالقرب منها. لست أدري لماذا شعرت بالغيرة تنهش صدري؛ من تكون كي يهرول وراءها وينساني؟ هو حبيبي منذ سنين والكل يعلم بأمرنا الذي ظل زوجي وحده يتجاهله حفاظاً على كرامته والذي كنت أخفيه عنه مستفيدة من تجاهله هذا ومن كبريائه التي ترفض أن تكون زوجته، بعلمه، ملكاً لغيره.

استفاقت حشريتي ورأيت نفسي أمد يدي لأمسك بسماعة الهاتف وأطلب رقم بيتها. ما إن مددت يدي حتى استوقفتني تلك اليد وأخذت أتأمل في عروقها النافرة التي تدلّ على مرور الزمن عبرها؛ هي اليد اليمنى التي أكتب بها، هي اليد التي بها أرفع من أشاء من الكتّاب وأحطّم من أشاء، طبعاً وفقاً لمعايير النقد العلمية. هل حقاً كتبت النقد العلمي أم أن أهوائي ومزاجي وعلاقاتي وأحقادي هي التي كانت تحركني؟ وما إن وردت كلمة أحقاد في ذهني حتى ارتسمت تلك الصورة مجدداً أمامي. مددت اليد الثانية وفركت بها اليد الأولى كأنني ألغي عنها آثاراً لا أرغب في الاعتراف بها، واستيقظت حشريتي من جديد ورأيت يدي تطلب رقم بيتها. بدأ الرنين الذي تتالى لمرات عشر من دون جواب. أقفلتُ الخط قائلة لذاتي: «إنها خارج البيت، سأطلبها في المساء». أخذتُ إحدى المجلات الثقافية وبدأت بقراءة مقالٍ حول النقد ومدارسه، وما إن أنهيت الصفحة الأولى حتى انتبهت إلى أنني لم أستوعب شيئاً مما قرأت. كان ذهني شارداً كأنه منفصل عني يتحرك في أجواءٍ أخرى هي من عوالمي الداخلية التي تطغى أحياناً على وعيي وتلغيه. رميت المجلة جانباً وقرّرت إشغال التلفاز لأتلهى بتفاهاته، لكن ما إن قرّرت ذلك حتى وجدتني أتناول سماعة الهاتف من جديد لأطلبها عبر هاتفها الجوال. هل هو وخز الضمير؟ لا، كل ما فعلته ضدها لن يمحو تلك الصورة من ذاكرتي، لن يغير الواقع، واقع أنه تركني من

أجلها. أما الأفظع من ذلك فهو أنها تتباهى بأنه أحبها ولم تتجاوب معه. أفرحني عدم تجاوبها، لكنه لم يردّ حبيبي إلى حضني بل رماه في أحضان إنسى أخرى.

طلبتها عبر الهاتف الجوال وهنا أيضاً طال الرنين من دون جواب. هل هي خارج البلاد؟ من المؤكد أن لا؛ فهي أولاً لم تخبرني بأي مشروع سفر، وثانياً لو أنها خارج البلاد لكان خطّها الجوال مقفلاً. هل هو القلق عليها الذي يحركني أم أنه أمر آخر؟ ستكلمني حين ترى رقم هاتفي مسجلاً على شاشة هاتفها في البيت وعلى شاشة هاتفها الجوال. سأنتظر. جلت بنظري من حولي فوقع على الجريدة التي كنت قد احتفظت بها من الأسبوع الفائت، سحبتها من على الرف وحاولت إعادة قراءة تلك المقابلة. وما إن انتهيت من قراءتها حتى رميت الجريدة وسمعتني أقول لنفسي: «لا، لن أنتظر، سأتصل بصديقتنا المشتركة عبلة وأستوضح الأمر». وأتاني الجواب:

ـ أنا متأكدة أن ليال ليست خارج البلاد، لقد كلمتها منذ ساعة، كانت في بيتها، ربما خرجت لزيارة والدتها وقد نسيت الهاتف الجوال في البيت كما يحدث معنا أحياناً كثيرة.

أنهيت المكالمة مع عبلة وعدت إلى الجريدة لقراءة بعض الفقرات من المقابلة التي أجرتها، منذ أسبوع، الصحافية والشاعرة رباب مع ليال على أثر صدور روايتها الأخيرة. ما هذا الادعاء! هل هي مقتنعة بأنها تكتب ما تسميه الرواية المثقفة؟ هل قسوت عليها أمام رباب حين سخّفت كل كتاباتها وأبديت استهجاني من تخصيص نصف صفحة لها في الجريدة؟ هل استاءت هي مما قلته لها مواجهة خلال زيارتها الأخيرة؟ لا بالتأكيد! فهي بالفعل لا تستحق هذا الاهتمام. هل أنا صادقة؟ لن أطرح السؤال على ذاتي، كل ما يهمني هو

تحطيمها وبأية وسيلة، ووسيلتي الأنجع هي الكلام الحي عنها مع تجاهلها في الكتابة، وأنا لم أقصر في ذلك إطلاقاً.

رن جرس الهاتف وإذا بعبلة:

ـ طلبتُ ليال ووجدتها في البيت وقد أخبرتني أنك اتصلت بها وهي تقصّدت عدم الإجابة وقالت لي إنها ستخبرني لاحقاً لماذا، هل تعرفين أنت لماذا لم تجبك؟

ـ لا، أستغرب هذا الموقف من قبَل ليال وليس لدي ما أقوله.

هي مستاءة إذاً. لكنها ليست المرة الأولى التي أقسو فيها على ليال. لماذا هذا الموقف المستجد من قبلها حتى، أنها تود إخبار عبلة بما جرى بيننا؟ ستنسى قريباً كل شيء وستعود إلى ما كنا عليه كما في كل مرة سابقة. لن أشغل بالي بالموضوع أكثر مما يستحق.

2

كنت مع شلة الأصدقاء في مقهى الروضة على شاطئ البحر، وهو مقهى نلتقي فيه عادة في أيام الصيف وتدور بيننا نقاشات منها الجادة ومنها الخفيفة. كنا جالسين في ناحية مطلة على المقهى بكامله بحيث إن الداخل إليه يمرّ حكماً أمامنا. كان النقاش حامياً حين رأيت رباب تطلّ من بعيد. لم أنتظر وصولها، بل لوّحت لها بيدي كي تأتي وتجالسنا. وصلت رباب ورحّب بها الجميع، وما إن جلست حتى بدأ البعض بالإدلاء بآرائهم حول المقابلة التي أجرتها معي منذ أسبوع. كانت الآراء، في مجملها، إيجابية وكنت صامتة أراقب رد فعل رباب على الإطراء الذي سمعته من الشلة. لكن ما إن ساد الصمت للحظة حتى توجهت إليها بسؤال فاجأ الجميع:

ـ رباب، هل طلبتُ أنا منك أن تجري المقابلة معي أم أنك أنت من قرّر، بعد أن قرأت الرواية؟

ـ لماذا هذا السؤال يا صديقتي ليال؟ لا أفهم قصدك، نعم أنا من طلب منك إجراء المقابلة.

ـ هل كنت راضية عنها؟ سألتُها.

ـ بالطبع، وها قد سمعتِ تعليقات كل الأصحاب حولها.

ـ هل أنت صادقة بما تقولين؟

ـ أستغرب أمركِ، هل أنت غير راضية عن المقابلة؟

ـ بلى، لكن وصلني من إحداهن أنك غير راضية عن عملك وأنكِ نادمة على ما فعلت وأن الأمر فرض عليك فرضاً و...

ـ ليال، لا تكملي إنها أمينة العبد.

ـ صدقتِ، وهذا يعني أن ما أقوله عنك هو صحيح، فصديقتي أمينة ليس لها مصلحة في الكذب، وهي صديقتي منذ أكثر من عشرين سنة.

هنا انبرى أحدهم للقول: «وهل أمينة تعرف معنى الصداقة؟» وتلاه واحد آخر بالقول: «إن أمينة لم تحبك يوماً، لا بل هي تكرهُك وشغلُها الشاغل هو تحطيم صورتك وخاصة بعد أن بدأت كتابة الرواية». هنا صاحت رباب بأعلى صوتها: «اتركوني أوضح الأمر لليال، سأخبرها أمامكم بما حصل بيني وبين أمينة».

ـ هيا كلنا سمع، أجاب البعض، بينما قال أحدهم: «أنا أعرف سلفاً رأي أمينة السلبي، لقد سمعته منها مباشرة لمرات عديدة». قال ذلك وانسحب من الجلسة. أما رباب فأردفت قائلةً:

ـ سأخبركم بالتفصيل ما حدث معي؛ في اليوم الذي صدرت فيه المقابلة في جريدتنا، اتصلت بي أمينة وطلبت مني أن أزورها. لبّيت الدعوة وزرتها في بيتها بعد ظهر ذلك اليوم. كانت وحدها في الصالون، استقبلتني بالقبلات، وما إن جلسنا معاً حتى قالت: «سأحضر القهوة ثم نتحادث بهدوء». دخلت المطبخ وبقيت وحدي في الصالون وأخذت أجول بنظري على اللوحات والمكتبة حيث استرعت انتباهي صورة المناضل هادي الذي يقال إنه كان حبيبها السابق والذي قتل في أحد شوارع بيروت منذ سنوات فتساءلت: كيف يسمح زوجها بذلك؟ وقبل أن أجيب نفسي أطلّت أمينة وهي تحمل صينية القهوة، وضعتها على طاولة صغيرة وجلست قبالتي، صبّت القهوة في فنجانين وقدّمت لي أحدهما وهي تبتسم ابتسامة صفراوية اشتممت فيها رائحة الغضب المكتوم الذي ينتظر إشارة كي يتفجر.

رشفتُ قليلاً من القهوة وتوجّهت إليها سائلة: «ها أنا ألبّي الدعوة بسرعة فماذا تريدين مني؟»، وأتى جوابها بأن نهضت من مكانها وتوجّهت نحو طاولة جانبية، تناولت من على سطحها جريدة وقدّمتها إلي. نظرتُ إلى الجريدة وإذا بها ذلك العدد الذي نشرتُ فيه مقابلتي مع ليال، فما كان مني إلا أن سألتها هل أعجبتها المقابلة. هنا انفجرت «لتنشر عرضي» كما يقال، إذ أجابتني: هل أعجبتني! من أرغمك على القيام بها، وهل تستأهل تلك الرواية أن نتكلم عنها، وهل تستأهل الكاتبة أن نجري معها أي حوار وننشره في الصحف و...

أكملت ثورتها وأنا أستمع إليها كالبلهاء لا أدري ماذا أجيبها، وحين هدأت بعد أن أفرغت غضبها علي وعلى ليال قلت لها بتروٍّ:

ـ لماذا هذا الغضب؟ إنها ليست المرة الأولى التي أجري فيها مقابلات مع الكتّاب وهو جزء من عملي الصحفي وقد جرت العادة أن أتابع الإصدارات الجديدة. هنا قاطعتني:

ـ هذا إذا كانت هذه الإصدارات تستأهل أن نهتم بها وهو أمر غير متوافر في عمل ليال.

ـ أستغرب الأمر، أجبتها، لماذا لا تكتبين رأيك فيها وهي صديقتك كما يعلم الجميع؟

ـ وماذا أكتب عنها؟ إنها صديقتي فعلاً، هذا من جهة، أما من جهة ثانية، فلا أريد أن أتخلى عن موضوعيتي في النقد وهذه الموضوعية ستؤذيها، ولذلك أفضل الصمت للمحافظة على الصداقة بيننا، لكني خارج هذا الإطار أكنّ لها معزّة خاصة.

هنا انفجر أحدهم من الضحك وقال: «عند أتفه الكتّاب نجد بعض الإيجابيات، ألم تجد أمينة إيجابية واحدة في كتابات ليال كي تتكلم عنها ومع ذلك تدّعي الصداقة؟ أي صداقة وأي بلّوط، أمينة ليست سوى كتلة من الأحقاد والعقد، وما ليال إلا فريسة هذه الأحقاد». ثم توجه إليّ وتابع: «على كل حال كلنا نستغرب صداقتكما مع كل الفوارق بينكما ومع كل ما نسمعه من أمينة عنكِ، للحقيقة لا أفهم ما يجمعكِ بها».

ـ لا يهمني صمتها، قلت لرباب متجاهلة قول الصديق، وأنا أعرف أنه أبلغ من أي كلام أو كتابة، لكن اسمحي لي بأن أخبرك بما قالته أمينة عن لقائك بها؛ أولاً أنت التي طلبت رؤيتها واستقبلتك في بيتها، ثانياً أنت التي فتحت موضوع المقابلة مبدية ندمك على القيام بها و...

ـ ليال، أرجوك لا تتابعي، فأنا مستعدة لمواجهة أمينة بحضورك لكي أبيّن لك كذبها وافتراءها. أقسم إنّ ما قلته لك هو الحقيقة.

شيء ما انتهى في داخلي وصفحة انقلبت. صفحةٌ عزَّ علي أن أقلبها لأنها تختصر أكثر من عشرين سنة من العلاقة، صحيح المتوترة أحياناً، لكنها كانت تحتوي على الكثير من الإيجابيات. صمتُّ للحظة ثم قلت: «فلنقفل الموضوع لا أريد أي تعليق». ساد صمت ثقيل على الجلسة قطعته عزّة بقولها: «الصداقة موضوع مهم لم يتطرّق إليه أحد في الرواية العربية حتى الآن».

ـ لا تبالغي، أجاب أحدهم، فكثيرون هم الذين تكلموا في الموضوع ومنهم...

ـ صحيح ما تقوله، أجابت عزّة، لكني أقصد أنني لم أجد حتى الآن رواية عربية بكاملها حول هذا الموضوع وبخاصة موضوع الصداقة بين النساء. فأجابها:

ـ أظن أنه بات الآن لدى ليال مادة مهمة لمعالجة الموضوع، وإن كان من ناحيته السلبية، وأقول السلبية لأن الصديق، في نظري، هو من صدقَك وليس من احتال وكذب عليك كما تفعل أمينة مع ليال.

ـ أرجوك أقفل الموضوع. قلتُ ذلك واستأذنتهم بالانصراف، فما كان من الجميع إلا أن وقفوا وأخذ كل واحد منهم يجمع أشياءه إشارة إلى انفضاض الجلسة.

3

أقفلتُ خط الهاتف وتساءلت: «لماذا ترفض ليال الكلام معي؟»، ضحكتُ إذ ورد في ذهني ألف سبب وسبب، «لكن لماذا الآن؟ ما هو الجديد الذي حدث مؤخراً؟ هل يمكن أن تكون رباب قد أخبرتها بما دار بيني وبينها من حديث حين طلبتُ منها أن تزورني؟ لكن هي أيضاً قالت إن ليال متكبّرة وممتلئة بذاتها وواثقة مما تقوم به، هي أيضاً انتقدتها مثلما فعلت أنا. لا، أنا سعيت إلى الحط منها وتحطيمها بينما اكتفت رباب ببعض الملاحظات التي لا تطال المضمون؛ نقدُها كان من باب الغيرة المألوفة بين الأشخاص الذين يتعاطون الكتابة في العالم العربي، لا بل في العالم كله، وهو نقد للدفاع عن النفس أكثر منه لإلغاء الآخر كلياً. سأتصل بعبلة وأطلب منها أن تستوضح الأمر من ليال». هممت بمد يدي إلى سماعة الهاتف لكني توقفت: «سيظهر الأمر وكأنني مهتمة للموضوع، لا، لن أتصل الآن بعبلة وسأترك الأمر لأيام ثم أطلبها كالعادة بيننا،

متجاهلة الأمر كلياً، متّكلة على عفوية عبلة التي لا تخفي شيئاً. وإن لم تتطرّق إلى الموضوع فسأعرف كيف أقاربه من دون أن يبدو الأمر وكأنه يشغل بالي. هل أتصل برباب وأسألها؟ لكن رباب وليال ليستا صديقتين وقليلاً ما تلتقيان. ماذا أفعل؟ لماذا الأمر يشغلني؟ إن كانت ليال حقاً صديقتي كما تدّعي، فستتصل بي وتعتذر. لكنها متعجرفة وحازمة، فإن قرّرت الابتعاد عني فهي ستفعل، أعرف طباعها؛ حين تنتهي علاقتها بأحد تحسم أمرها وتطوي الصفحة، حتى ولو كانت قد أمضت سنين طويلة في هذه العلاقة، تماماً كما حدث معها في طلاقها مرتين؛ قلبتْ الصفحة وتابعت حياتها كأن ما سبق لم يكن. هل ستطوي علاقتنا التي دامت أكثر من عشرين سنة؟ ستفعل إن قرّرت، ولكي تقرّر فلها دوافعها، وما يهمني هو معرفة تلك الدوافع التي ظهرت الآن وليس سابقاً، مع أنني تقصّدت إيذاءها مرّات عديدة في الماضي ولم تتغيّر معي، فما هو الجديد هذه المرة؟ هل كانت لا تعلم في السابق والآن علمتْ؟ لعن الله رباب إن كانت قد أخبرتها».

أبعدتُ يدي عن الهاتف واسترخيت في مقعدي أفكر في مفهوم الصداقة لكن رنين الهاتف أوقف تفكيري. رفعت السماعة وإذ بصوت عبلة يأتيني عبره:

ـ لم أستطع الانتظار، اتصلت بليال مجدداً واستوضحتها الأمر.

ـ وماذا قالت لك؟ سألتها بسرعة.

ـ قالت إن الصداقة عندها أمر مقدّس.

ـ وهو كذلك فعلاً. أجبتها.

ـ لكن ليال تابعت بأنه ليس لديكما مفهوم واحد للصداقة. قالت عبلة ذلك وصمتت.

ـ ألم تخبرك شيئاً غير التنظير هذا؟ سألتُ عبلة بسخرية.

ـ لا، كل ما قالته هو أنها طلبت مني أن أقفل الموضوع. لكنني سأسعى للتوفيق بينكما من جديد.

كنت شاردة حين أجبتها: «شكراً». قبل أن أعيد سماعة الهاتف إلى مكانها وأتابع تفكيري: «يبدو أن الأمور على غير ما يرام وأن موقف ليال مني هو موقف جدّي يشكّك في صحة صداقتي لها. فماذا تقصد بأن لدينا مفهومين مختلفين عن الصداقة؟ ولماذا ظهر لها هذا الاختلاف الآن؟ ما هو الجديد الذي أيقظ عندها هذا الشعور، لا بل هذه القناعة؟ أنا أعرفها جيداً فهي لا تتّخذ موقفاً بناءً على شعور، بل بناءً على تحليل وقناعة. كنت أتوقع موقفها هذا مرات عديدة، لكنها لم تفعل وظلّت هي هي معي من دون أي تغيير. ما هو الأمر الذي قصم ظهر البعير؟ الحدث الوحيد، في نظري، هو حديثي مع رباب. يبقى عليّ إذاً أن أعرف من رباب إن كانت قد أخبرت ليال بما دار بيننا بعد ظهر ذلك اليوم. سأتصل بها وأعرف كل شيء».

4

خرجتُ من مقهى الروضة ثقيلة الخطى، لا أدري إلى أين أتجه. ركبتُ سيارتي وقرّرتُ أن أزور والدتي. دخلت عليها، كانت، كعادتها أمام التلفاز. قبّلتها وجلستُ بالقرب منها وأنا صامتة.

ـ أين كنت وكيف كان نهارك يا حبيبتي ليال؟ سألتني كأنها تحدس بما يجول في خاطري.

ـ كنتُ مع بعض الأصدقاء؟ في مقهى الروضة في بيروت.

ـ وكيف حال الأصدقاء؟ هل كلهم بخير؟

ـ تقريباً. أجبتها.

ماذا تقصدين بـ«تقريباً» هل أحد منهم يشكو من شيء؟ سألتني بحشرية ظاهرة كأنها تود إفهامي أنها تهتم بأصدقائي كما لو كانوا

أصدقاءها هي.

ـ لا، بل أنا التي تشكو. أجبتها لإسكاتها من دون أن أدري أنها ستنفعل وتسألني وهي تمسك بيدي:

ـ هل أنت مريضة؟ بـمَ تشعرين؟ هل شربت كحولاً؟ هل...

ـ ما أشعر به ليس مرضاً، بل هو أنحس من ذلك. قلت من دون أن أعير انتباهاً إلى رد فعلها.

ـ هيا أخبريني، لقد شغلت بالي. قالت وهي تمسّد على شعري.

ـ لا، الأمر لا يستأهل، لكنني أكره الكذب والخبث.

ـ من تقصدين؟ وهل أعرفه أو أعرفها؟

ـ لا أدري إن كنتِ تعرفينه. أجبتها كي أقفل الموضوع الذي فتحتَه بشكل عفوي.

ـ إنها أمينة حتماً. أجابتني بسرعة. ماذا فعلت معك؟

ـ لا ليست أمينة بل شخص لا تعرفينه. أتى جوابي كي أبعدها عن كل شكوكها حول أمينة والتي لم تخفها يوماً أمامي. لكنها تابعت:

ـ لكنني لا أثق بها، وكم مرة قلت لك إنها أفعى لا تريد لك الخير؟

صحيح لقد سمعت هذه الجملة منها مرّات عديدة وكنت أتجاهلها، مفسّرة الأمر بأنها لا تريد أن ينتزعني أحد منها وأن صداقتي لأمينة

تزعجها لأنها تأخذ الكثير من وقتي الذي تفترض أنها الأحق به. وأمام صمتي تابعت:

ـ لا تثقي بكل الناس، فالبعض منهم خبثاء تنهشهم الغيرة، والصداقات لا تبنى على الغش. اسمعيني جيداً يا عزيزتي ليال، لقد خبرتُ الحياة وتعلمت منها الكثير، الصداقات الحقيقية قليلة جداً وأنت كالبلهاء تعطين سرك لمن لا يستأهله، ولهذا السبب تقعين في الخيبة.

تابعت كلامها حول صداقاتها القديمة وأنا أستمع إليها، أستمع إلى تلك الإنسى التي تخطت الثمانين من عمرها والتي تتذكر، أمامي، خيباتها من بعض الصديقات، وكانت تعزو كل سوء تصرف الأخريات معها إلى الغيرة. ثم توجهت إليّ مباشرة وقالت:

ـ أنت مثلي إنسى جميلة وهذا سبب كاف كي تغار منك النساء إجمالاً، بالإضافة إلى ذلك أنت ابنة بيت معروف، مثلي أنا أيضاً، وهذا سبب إضافي كي تكوني موضوع حسد الأخريات.

ـ لكن لكل صديقة من صديقاتي جمالها الخاص وكلهن بنات بيوت محترمة وكلهن مثقفات و... لكنها قاطعتني قائلة:

ـ هل تريدين إقناعي بأن أمينة، مثلاً، هي جميلة؟ قالت ذلك وهي تضحك. وتابعت: إنها مثقفة صحيح لكنها متفلسفة وتريد استعراض معارفها وكأنها تود بذلك إخفاء ما يُشعرها بالنقص. ألا تلاحظين أنها تتكلم أغلب الوقت بالنحوي وتستعمل بعض التعابير المفذلكة التي كثيراً ما لا أفهمها؟

ـ لا أرى ذلك، وكثيرون يجدونها جميلة، والصداقة لا تتوقف

عند هذه المعايير السطحية. قلت لأحدّ من اندفاعها في تشويه صورة أمينة. لكنها تابعت:

ـ الجمال أمر سطحي عند الإنسى الجميلة والذكية مثلك، لكنه أمر مهم جداً عند القبيحات حتى ولو كن مثقفات. اسمعيني جيداً، إن أردت ألا تقعي في الخيبة، فلا تصادقي إلا الجميلات الممتلئات بحالهن. لا أعرف كل صديقاتك، لكن هل تريدين مني أن أعتبر هدى مثل أمينة؟ هدى سيدة جميلة وفخورة بنفسها وأشعر بأنها تحبك على عكس أمينة التي لا أقرأ إلا الكراهية والمكر على وجهها حتى عندما تكون الأكثر تودّداً. وتابعت: سامحني يا ألله إن كنت مخطئة، لكنني لست مخطئة.

ـ إنك مخطئة، لكن الله سيسامحك. أجبتها وأنا أقبّلها.

ـ لا تكوني بلهاء، حتى الأخت تغار من أختها فكيف في ما يسمى صديقات؟ أتى تعليقها وهي تقبلني بدورها.

ـ هل كوّنت صداقات حقيقية في حياتك؟ سألتها كي أزيحها عن الموضوع الذي بدأنا به.

ـ حاولت ولم أنجح وقد خُيّب ظني مرات عديدة إن لم أقل في كل المرات. أجابتني.

ـ لماذا تحمّلين الأخريات سبب خيباتك؟ ألا يمكن أن تكون المشكلة فيك أنت؟ سألتها.

ـ هي حتماً فيّ أنا، لقد كنت أجملهن وكن يغرن مني. أجابتني وهي تشمخ برأسها.

ـ ما هذا الغرور! ثم أليست الصداقة أن نقبل الآخر كما هو حتى ولو كان غيوراً؟ قلت ذلك وندمت على متابعة الموضوع، لأنني كنت أود العودة إلى بيتي إلى ذاتي لأختلي بها من دون أية مؤثرات خارجية حتى ولو كانت صادقة. لكنها أجابت:

ـ صحيح، الغيرة أمر طبيعي وقد وقعتُ فيها مرات، لكنها قليلة جداً، إنها تظل في حدود المقبول إن لم تتحول إلى أذية. أن أغار من أحد وأطوّر نفسي كي أكون مثله هو أمر صحي ولا يزعج الصداقة، أما أن أحاول تحطيم الآخر أو تحطيم ما يجعلني أغار منه، فهذه هي الغيرة القاتلة. صمتت قليلاً ثم تابعت: شخص هكذا يجب الابتعاد عنه وعن سمومه فهو «حيّة تحت التبن». لا تدرين من أين تنبت لتلسعك.

لم أجبها، لذت بالصمت لدقائق قبل أن أستودعها وأنصرف.

5

من أين بدأت علاقتي بليال؟ وأين رأيتها للمرة الأولى؟ أذكر أنني رأيتها في الجامعة ولم أكن أعرفها. لفتتْ انتباهي بشكلها وصباها وأناقتها وبدت لي كأنها كلها في هذا الخارج، أي إن هذا الخارج يختصرها إذ ماذا يمكن لهذا البراني الطاحش أن يخبّئ سوى الفراغ. الامتلاء هو عادة متواضع لا يستعرض نفسه ليبهر العين، عين الآخر. الصورة التي تكوّنت لدي حين رأيتها للمرة الأولى هي أنها إنسى جميلة، مع أنني لا أحب هذا النوع من الجمال، تعرض مفاتنها وتتفنّن في إظهارها وشد الانتباه إليها. أذكر أنني قلت لنفسي حينها: ما لي ولهذا الصنف من النساء؟ إنها خارج عالمي واهتماماتي. البلد يحترق من استمرار الحرب الأهلية وهي تبرز مفاتنها كي تنعم بمغازلة ذكور الجامعة. فليغازلها من يشاء منهم، هذا لن يغير قناعاتي بأن الظاهر إذا استغرق كل الشخصية فهو دليل فراغ داخلي لا أظن أن ليال بعيدة عنه.

لكن ما استفزني هو أنني، وبعد زمن قصير، رأيتها تدخل علينا في أحد اجتماعات الحزب حيث رحّب بها رئيس الخلية قائلاً: أقدّم لكم الرفيقة الجديدة ليال، ثم توجه إليها وقدمنا لها واحداً واحداً، فحيّت الجميع وجلست بالقرب من أحد الرفاق. تابعنا الاجتماع وأدلى كل واحد منا بدلوه حول تنشيط عمل الخلية وما إلى ذلك من أمور سياسية وفكرية وغيرها. كانت ليال صامتة، وانتهى الاجتماع من دون أن نسمع رأيها ولا حتى صوتها ولو في أتفه الأمور. لكنها كانت في كامل أناقتها وكأنها قادمة إلى حفلة وليس إلى اجتماع حزبي. بدت كأنها ليست في مكانها الطبيعي. تباً لهذا الحزب فهو لا يحسن اختيار أعضائه. عبّرت عن رأيي هذا أمام الرفيق رئيس الخلية، بعد انفضاض الاجتماع وأتاني جوابه: «ليال إنسى مثقفة وتعرفين أن الحزب، في هذه المرحلة الحرجة من تاريخ البلد، هو في طور استقطاب الشباب المثقف».

ـ لكنها لم تنطق بأية كلمة ولم تعط أي رأي طوال الاجتماع فأين هذه الثقافة التي تتكلم عنها؟

ـ امنحيها بعض الوقت، يبدو أنها خجولة قليلاً، ستعتاد علينا لاحقاً وستشارك، أنا متأكد. أجابني.

لم أتابع الموضوع معه وقلت في نفسي: «الإناء ينضح بما فيه، فلو كان لدى ليال ما تقوله، لما صمتت كل هذا الوقت. لكن علينا الانتظار كما قال الرفيق، رئيس الخلية».

في لقائي السري والحميمي مع هادي لم أستطع السكوت وسألته هل يعرف الرفيقة الجديدة ليال.

ـ التقيت بها عند أخي في مؤسسة الاستشارات والتوثيق حيث تعمل في مجال التوثيق، وقد دار بيننا نقاش حول رؤيتها للإيديولوجيا المسيطرة في العالم العربي بعد أن قدّمت لي نسخة عن أطروحتها التي نالت على أساسها شهادة الدكتوراه من السوربون.

ـ وما هي هذه الإيديولوجيا المسيطرة برأيها؟

ـ تعتقد أن الدين يشكّل هذه الإيديولوجيا وقد حاولت إقناعها بمقولاتنا حول الموضوع.

ـ وهل أقنعتها؟ سألته بسخرية ظاهرة.

ـ ليس كلياً، أجابني، لكنها قماشة جيدة يمكن للحزب أن يستفيد منها، فهي مثقفة وتتقن الفرنسية بشكل جيد ومن بيئة ليست بعيدة عن الحزب؛ لقد قالت لي إن والدها مع بعض الرفاق هم من أدخلوا الفكر الماركسي إلى ضيعتها، ثم إن أخاها هو «فلان»، تعرفينه جيداً، هو في الحركة الوطنية وليس بعيداً عن الحزب أبداً، لا بل هو صديق صادق. وتابع بلهجة تجمع بين الجد والمزاح: «والأهم من كل ذلك أنها سيدة جميلة جداً ونحن في الحزب نحب السيدات الجميلات». قال ذلك وأنا أسترق من ثغره قبلة رغبت بأن تطول، لكنه قطعها وتابع الكلام عن ليال.

امتعضت من الأمر وحاولت تغيير الموضوع لكي أستعيده إلى حميمية جلستنا التي انتهت ببرودة من قبله، برودة لم أعهدها عنده من قبل.

افترقنا وعاد كل منا إلى بيته؛ هو إلى زوجته وأولاده وأنا إلى زوجي وأولادي لتستمر الحياة. حياتي الخاصة مع هادي، بين سرية وعلانية

تتناوبان وفقاً للظروف، وحياتي العائلية العلنية بين اهتمام بأمور البيت والزوج والأولاد وعيشنا ليوميات الحرب التي كانت تتوزع بين القصف الذي يرعبنا ويرمينا في الملاجئ وبين فترات وقف إطلاق النار الذي لا نفهم له سبباً لكنه يسمح لنا بالتمتع بنمط حياة عادية. لكنني بدأت ألاحظ أن ظروف هادي باتت أصعب، إذ إنه أخذ يتهرّب من لقائي متذرّعاً بأعذار لم تقنعني؛ راح يشكو من أن علاقتنا بعد أن أصبحت مكشوفة، علينا مسايرة الأوضاع وما إلى ذلك من حجج واهية، مع العلم أن كل الرفاق في الحزب كانوا على علم بعلاقتنا وكانوا يتقبلونها، وهو من ناحيته لم يكن يخفيها، لا بل أنا من كان يتحفّظ في إظهارها للعلن.

6

أنهيت زيارتي الروتينية لوالدتي وعدت إلى بيتي. كنت وأنا عائدة أتساءل أين وكيف التقيت أمينة للمرة الأولى. حاولت التذكر لكنني لم أعثر في ذاكرتي عن صورة لها إلا حين دخلتُ عليهم في اجتماعي الأول معهم في بيت أحد الرفاق الذين كنت أعرف بعضهم من القسم في الجامعة. رحّب بي هذا البعض، أما هي فكانت شبه متفاجئة بوجودي كأنها تتساءل كيف لي أن أكون بينهم. ذهبتُ إلى ذلك الاجتماع برفقة أحد الأصدقاء الذي كنت قد تعرفت إليه في الجامعة. كل ما أذكر من لقائي الأول بها أنه كان لقاءً بارداً؛ صافحتها وعلى وجهها ابتسامة صفراوية دليل امتعاض ما أو تساؤل غير واضح. بدأ الاجتماع ولاحظت أن الرفاق يحترمونها ويحترمون رأيها. كنت صامتة في ذلك الاجتماع أحاول أن أكوّن فكرة عامة عن كل واحد من الرفاق وعن النمط السلوكي الذي يحكم مثل هذه اللقاءات، وأكثر ما لفت انتباهي الطريقة التي

يرفع فيها أحدهم يديه ليقول مقاطعاً من يتكلم: «نقطة نظام».

انتهى الاجتماع وانصرفنا كل في سبيله. فما كان من الرفيق عيسى الذي أتيت بصحبته إلى ذلك الاجتماع إلا أن دعاني لشرب كأس من الكحول في إحدى الحانات. هذا الرفيق كان أكثرهم نقداً لرؤية الحزب ولممارساته، ولست أدري لماذا تجاوبتُ مع طروحاته بشكل عفوي. هذا التجاوب الذي لاحظه الرفيق عيسى أوجد نوعاً من التقارب بيننا، تقارب عفوي أدى إلى المصارحة بالآراء حول الحزب وأعضائه وتركيبته و... سألته عن أمينة وأجابني:

ـ إنها أمينة العبد، تعمل في النقد الأدبي وهي مناضلة شرسة في الحزب، لكن كل آرائها ليست سوى صدى وترداد لآراء الرفيق أحمد.

ـ ومن هو الرفيق أحمد وهل أعرفه؟ سألته.

ـ إنه معروف بالرفيق هادي وينشركتاباته تحت هذا الاسم وله كتب عديدة. إنه منظّر الحزب إن أردت.

ـ هادي أعرفه، لقد التقينا وتناقشنا مطولاً في بعض الأمور.

ـ ألم تلاحظي أن آراء أمينة لا تختلف عن آراء هادي؟

ـ لا أعرف كل آراء وأفكار هادي، لقد تناقشنا في أمور محدّدة لم نتطرّق إليها خلال اجتماعنا هذا ولم ألاحظ التقارب الذي تتكلم عنه بين أمينة وهادي.

ـ ما أقصده ليس تقارباً بل تطابقاً. قال عيسى مشدداً على الكلمة الأخيرة.

ـ أنتم الذكور تحاولون دائماً تسخيف المرأة (كنت في ذلك الوقت ما زلت أستعمل مصطلح امرأة)، ما زلتم لا تنظرون إليها ككائن مستقل له آراؤه وأفكاره الخاصة. أنتم لم تتخلوا عن أفكاركم المسبقة ولم يغيّر الحزب من ذكورتكم و...

ـ هاه، صاح بي، لا تعطيني درساً من مخلّفات نضالك في سبيل تحرير المرأة، أنا أعرف وأعي تماماً ما أقول. أنا أحترم أمينة لكن هذا لا يلغي أنها صاحبة هادي وتتماهى به في كل أقواله. الكل يعرف ذلك وأنت ستعرفينه.

ـ هل كون المرأة عشيقة أحد الرجال يجعل منها نسخة عنه؟ لماذا لا يكون العكس هو الصحيح؟ سألته متحدية.

ـ أوافق على سؤالكِ هذا، أجابني، لكن الواقع هو أن هادي قد سبق أمينة إلى الكتابة وبالتالي هي التي تماهت به وليس العكس.

ـ وما المانع من التوافق في الآراء وهل هذا يعني التماهي وإلغاء الذات؟ سألته بإصرار مني على تبيان سوء نيته.

ـ لن أناقشك في الموضوع، ستكتشفين الأمور لاحقاً، أجابني بكل هدوء، أما الآن فلنشرب نخب الرفيقة الجديدة ليال ونتجاهل الآخرين. دعينا نستفيد من الوقت قبل أن تبدأ جولة ثانية من العنف والقصف. إنها حرب، بالفعل ما عدت أفهم دواعيها ولا استمرارها وأخاف من منحاها الطائفي الذي إن استعر قسّم البلد إن لم أقل أنهاه.

ـ وما رأيك في توجهات الحزب؟ سألته.

ـ لقد لاحظتِ خلال الاجتماع أنني لست موافقاً على كل طروحاته، وهو أمر بدأ يربكني إذ إنني ما عدت مقتنعاً تماماً بسياسته ولا بتوجه قادته. أنت دخلت الحزب الآن وسأتركك تكوّنين رأيك الخاص حوله وتجربتك سترشدك إلى ما ستقررينه لاحقاً. أجابني.

ـ وأنا أفضل ذلك، دعني أكتشف الأمور بنفسي.

أقفلنا الموضوع السياسي وتابعنا الجلسة التي أوجدت نوعاً من الود بيننا، ودّ نقلنا من الحديث بالأمور العامة إلى التطرّق إلى بعض الخصوصيات. كان عيسى قليل الكلام بينما وجدتُ نفسي أفيض في الكلام عن كل حياتي الماضية انطلاقاً من الطفولة والضيعة وصولاً إلى ما كنت عليه في تلك المرحلة. وحين انتبهتُ إلى ذاتي توقّفت وطلبت منه أن ننهي الجلسة ونعود كل إلى بيته قبل حلول الليل الذي، ربما، خبأ لنا مفاجآت غير سارة. وافقني الرأي وخرجنا من الحانة. وما إن سرنا قليلاً على الرصيف في شارع الحمرا حتى التقينا بهادي يتسكع وحده.

ـ يا زعران شو عمتعملو وحدكن هون؟ صاح هادي وهو يضحك.

ابتسم عيسى ابتسامة معبرة وأجاب: «أوصل ليال إلى سيارتها».

ـ وأين كنتما؟ سأل بحشرية مفتعلة.

ـ لن أخبرك، خلّيها حسرة في قلبك. أجابه عيسى وهو يضحك أيضاً.

ـ ما رأيكما لو أكملنا السهرة معاً، فما زال الوقت باكراً للعودة إلى البيوت. أتى اقتراح هادي.

ـ إذا أردتم أن نكمل السهرة معاً فأنا أدعوكما إلى بيتي، وهكذا لا أضطر إلى العودة وحدي في الليل، أجبته، وبخاصة إذا تدهور الوضع الأمني. وتابعت: «ندعو أمينة لتمضية السهرة معنا».

ـ لا، أتى جواب هادي حاسماً.

لم نناقشه وانتقلنا معاً إلى (الرملة البيضاء) حيث كنت أسكن، وأمضينا سهرة لطيفة، إذ دار نقاش قيّم بيننا، تطرقنا فيه إلى مواضيع عديدة تصبّ كلها في رؤية الحزب حول الأمور الجارية في البلد، وقد ساهم هدوء الحال بنقاش صريح وموضوعي بيننا والذي كنت خلاله مستمعة وهما كانا على طرفي نقيض، إذ إن أحمد دافع عن كل طروحات الحزب، بينما كان عيسى منتقداً لها. شاركت أحياناً في النقاش وكنت مشدودة إلى آراء عيسى، فقد وجدتها أكثر انسجاماً مع آرائي، مما وتّر الجو بينهما وتحولا إلى ديكين يتبارزان كي يثبت كل واحد منهما صوابية فكره أمامي. تحوّلا، في نظري، إلى ذكرين يتنافسان لاستمالتي كأنثى بينهما. ترفعتُ عن هذا الحدس الأنثوي الذي قليلاً ما يخطئ، وحاولت التوفيق بينهما وانتهت السهرة وجميعنا راضٍ، ثم خرجا معاً متشابكي الأيدي وعدت إلى وحدتي التي كنت قد بدأت أعتادها وأغار عليها.

7

بدأت الشكوك تحوم في رأسي حول علاقة ليال بهادي، وبخاصة أن بعض الإشاعات حولهما قد تسربت بين الرفاق، إشاعات حاولتُ إهمالها لكنها أشعلت نار الغيرة في قلبي. وما زاد من أهميتها هو أن هادي بات يختلق الأعذار الواهية، بنظري، لعدم تلاقينا، هو الذي كان ينعتني بالجبانة حين كنت أقدم عذراً لتلبية طلباته الملحاحة بأن لا أكترث لما يقوله الغير. بدأت الشكوك، فقرّرتُ أن أتقرّب من ليال لأكتشف سر ميل هادي لها وإهمالي. سأتقرب منها لأفهمها أن هادي هو حبيبي منذ سنين وما ميله نحوها، إن كان صحيحاً الآن، إلا نزوة ستزول.

التقيتها في الباحة أمام الجامعة وتقصّدت دعوتها إلى تناول القهوة في المقهى. لبّت الدعوة، كانت عفوية وصريحة، لا تتستَّر على ما تقوم به. هل أسألها عن هادي؟ لا، سأستدرجها من دون أن

تلاحظ مأربي.

ـ بماذا تهتمين خارج التدريس في الجامعة؟ سألتها.

ـ أرسم وأقرأ وأكتب أحياناً، لكن عنف الحرب التي نعيش يرعبني ويشل كل قدراتي ومع ذلك أشجع نفسي وأحاول الكتابة أحياناً. أجابتني.

ـ ماذا تكتبين، لم نقرأ لك شيئاً بعد. سألتها من جديد.

ـ الآن أنا بصدد كتابة دراسة حول أحد المفكرين اللبنانيين المعاصرين وستصدر في مجلة الحزب. قالت بكل اعتزاز.

ـ ومن طلب منك ذلك؟ سارعتُ إلى سؤالها.

ـ الرفيق هادي.

أحسست بطعنة في صدري، لكني تمالكت أعصابي وقلت لها: «صحيح، لقد أخبرني أنه طلب منك ذلك. ربما ساعدك في كتابتها أيضاً».

ـ لا، أرجوك، أرفض أن يساعدني أحد في الكتابة، أتاني جوابها السريع، سأنجز الدراسة عما قريب ولا دخل لهادي بها. صمتت قليلاً وتابعت: لست موافقة على كل طروحات هادي.

تجاهلت تعليقها وتابعت:

ـ ألم يعرض عليك المساعدة؟

ـ بلى، لكنني رفضت. هل هذا يعني أنه يساعدك في كتاباتك؟

سألت.

ـ يطّلع عليها قبل نشرها وأنا أثق برأيه وفكره وأتقبّل ملاحظاته لأنه مهتم بي وبكل ما أنشر، قلت بكل اقتناع كي تفهم حقيقة علاقته بي..

ـ مبروك لكما، الأمر لا يعنيني. صمتت ليال قليلاً ثم تابعت: «أستعين أحياناً بعيسى لأن طريقة تفكيره هي أقرب إلى تفكيري من طريقة هادي».

أفرحني كلامها الذي بدّد بعض الشكوك لدي، لكنني لم أطمئن نهائياً؛ فإن لم تكن هي الدافع لبرودة هادي حيالي فبالتأكيد هناك إنسى أخرى لأن سلوك هادي قد تغير كثيراً، وعليّ معرفة السبب بشتى الوسائل مع شعور شبه أكيد أن ليال هي السبب.

ـ علينا أن نلتقي ونتحاور. قلت لها بتودّد.

ـ لا مانع لدي إطلاقاً، لا بل أرحب بالفكرة، فنحن رفيقتان وزميلتان و... ربما أصبحنا صديقتين. أجابتني وهي تبتسم.

كنت أودّ التقرب منها لأتابع هروب هادي مني وأجعلها دائماً تحت نظري وها هي تسهّل المهمة وتعرض الصداقة، وحاولتُ أن أقترب خطوة تجاهها قائلة: «إذاً سنقرأك في العدد القادم من المجلة».

ـ حتماً، قالت، وأود أن أعرف رأيك في الدراسة.

ـ حتما سأقرأها وسأبدي رأيي فيها ونتناقش.

ـ هكذا وعدني هادي أيضاً. لقد قال لي حين رفضت مساعدته،

إنه سيناقشني لاحقاً بعد نشر الدراسة. قالت وهي تلملم كتبها وتنظر إلى الساعة في معصمها.

حين قالت ليال ذلك أيقظت في داخلي الغيرة من جديد وكدت أهدم كل ما انبنى بيننا، لكنني تمالكت أعصابي وقلت: «حتماً المناقشة ستكون عندي في البيت، فهادي يشركني بكل الأمور وغالباً، إن لم أقل دائماً، تجري نقاشاته مع الرفاق أو الأصدقاء، في بيتي».

ـ لا يعنيني المكان، أجابت ليال، المهم أن نلتقي ونتحاور وإن أردتِ أن يتم ذلك في بيتك فأنا أرحب بالفكرة.

ـ لكننا سنلتقي قبل ذلك حتماً. قلت بلهجة متسائلة.

ـ بكل سرور، أنا جاهزة. أتاني جوابها.

كنت راغبة في سؤالها عن حياتها الخاصة وهل هي متزوجة أم لا وكيف تعيش ومع من تعيش، لكن الوقت دهمنا فتداولنا حول أيام التدريس لدى كل واحدة منا واتفقنا أن نلتقي يوم الثلاثاء من الأسبوع القادم. تبادلنا أرقام الهاتف، وافترقنا كل واحدة منا إلى القسم الذي تدرّس فيه.

8

كنت في غرفتي في مؤسسة الاستشارات حيث أعمل قبل الظهر من كل يوم، حين قرع الباب، وبعد لحظات سمعت ضحكة هادي المجلجلة. وما هي إلا ثوان حتى رن جرس الهاتف على مكتبي، وإذ بالمدير يدعوني إلى شرب القهوة. دخلت مكتبه، فبادر إلى القول: «العكروت لم يكن يزورنا في السابق». وقبل أن ينهي كلامه دوّت ضحكة هادي من جديد وهو يقول: «الآن أصبحتم تستحقون الزيارة».

ـ لن تتغير، ستظل تلاحق الحلوات. أجابه أخوه، مدير المؤسسة.

سررت بهذا الحديث القصير بين الأخوين، إنه يدغدغ نرجسيتي، لكنني لم أعلّق بأية كلمة واكتفيت بالابتسامة وجلست أحتسي القهوة التي أدخلها وليد، الأوفس بوي.

ـ هل أنهيت الدراسة؟ سألني هادي.

ـ ليس بعد لأن صوت المدافع يشلني نهائياً والأيام الأخيرة لم تكن هادئة، لكنني شارفت على النهاية. ستكون جاهزة خلال أسبوع إن سمح الجو بذلك.

ـ هل وضح لك سبب زيارتي لكم اليوم؟ سأل هادي أخاه وهو يبتسم. فما كان من أخيه إلا أن ردّد وهو يضحك أيضاً: «واضح، واضح».

ـ أستأذنكما، قلت بعد أن احتسيت القهوة، سأعود إلى متابعة عملي.

ما كدت أدخل مكتبي حتى تبعني هادي، ظل واقفاً ولم أطلب منه الجلوس. تردّد قليلاً ثم قال: «ليال، سأزورك هذه الليلة في البيت هل لديك مانع؟».

سؤاله وضعني في حالة تحدٍّ مع ذاتي. هل أوافق؟ هل أرفض؟ إن رفضت، ربما فسّر الأمر بأنني أخاف منه أو أنني غير واثقة من نفسي، فأتى جوابي: «أهلاً وسهلاً، آمل أن تكون هذه الليلة من دون قصف كما عودونا».

ـ أكون عندك الساعة الثامنة مهما كانت الظروف، اتفقنا؟ قال ذلك وتابع وهو يبتسم: إن بدأ القصف فسنختبئ معاً.

ـ اتفقنا، أجبته. فغادر وعدت إلى عملي.

في تمام الساعة الثامنة مساءً، وكان الهدوء لا يزال مهيمناً، قُرع باب بيتي ودخل هادي يحمل بيده زجاجة ويسكي. كنت قد

قرّرت أن أقدّم له القهوة فقط وأن نتحادث بأمور عامة بعيداً عن الخصوصيات. لكنه بعد أن جلس وبدأ الكلام بيننا حول الحزب والرفاق، قال: «ألا تقدمين لي كأساً من الويسكي لتحلو الجلسة؟».

أيضاً وضعني أمام تحدٍّ مع ذاتي ووجدت نفسي أجيبه: «بكل سرور». فما كان منه إلا أن نهض من مكانه وهو يقول: «دلّيني أين هي الكؤوس وأنا أتكفل بالباقي». ثم أخذ يتصرف بكل عفوية؛ دخل المطبخ برفقتي، أخرج مكعبات الثلج من البراد، سكب الكاسات، وعدنا إلى أماكننا. وما إن جلسنا حتى بادرني بالسؤال عن حياتي الخاصة: «لماذا لم تتزوجي حتى الآن وأنت على هذا المقدار من الجمال والثقافة و..؟».

لم أتركه يتابع المديح ووجدت نفسي أسرد له سيرة حياتي التي أوصلتني إلى حيث أنا، وأنهيت السرد بكلامي عن صديقي الذي أعيش معه الآن.

ـ وهل هو من محيط المثقفين؟ سألني.

ـ لا علاقة له بالثقافة، هو صاحب مصلحة حرة ولا يتعاطى بالثقافة لا من قريب ولا من بعيد.

استفزّه كلامي وراح يزدري مثل هذه العلاقات، إذ إنها مفقرة للشخصية وقال: «يجب أن تكون العلاقة منتجة ومغْنية للاثنين، وإلا كانت بدون معنى ونوعاً من الشبق الذي سرعان ما ينتهي لأنه من دون أفق».

ـ فلتنتهِ العلاقة ساعة تشاء، المهم أنها تلبي رغباتي الحالية. أجبته بكل استهتار.

لم يعجبه كلامي وأخذ يشرح لي عن ضرورة العلاقة بمن يشبهنا كي تكون متكاملة وسألني: «بماذا تتحادثان حين تكونان معاً؟».

ـ لا نتحادث بالثقافة وأهلها، نحلّل قليلاً حالة الحرب ويحاول إقناعي بالسفر خارج البلاد حتى تنتهي المشاكل كما يسميها. لكن غالباً ما نكتفي بعيش الحب وتوابعه.

ـ ألا تشعرين بحاجة إلى رجل يشاركك كل همومك واهتماماتك؟

ـ لا أحتاج من الرجل إلا تلبية رغباتي الجنسية وصديقي بارع في هذا الأمر، أما رغباتي الأخرى فأجدها مع الرفاق والأصدقاء وبخاصة في الكتب. أجبته مشددة على الكلمة الأخيرة.

ـ إذاً وجودك معه هو نوع من الترفيه؟ أتى تعليقه.

ـ سمِّه ما شئت، فأنا مرتاحة له.

ـ أنت تكابرين. كان آخر كلامه قبل أن أشعره بأن الوقت قد حان لكي يغادر.

9

تركتُ الجامعة بعد أن أنهيت محاضرتي وأنا مسكونة بهاجس إبعاد ليال عن هادي. فهي امرأة جميلة ومتحرّرة ويمكنها أن تشد أي رجل، وهي واثقة من نفسها إلى درجة المفاخرة ولا يمكن التحكم بها بسهولة. سأجعل منها صديقة وأعرِّفها بطبيعة علاقتي العميقة بهادي، لن أتركها تستميله ولن أتركه يُستمال إليها، سألاحقه وأكثف لقاءاتي به، لن يفلت من يدي.

وصلتُ البيت، وأول عمل قمت به هو التوجه إلى الهاتف لكي أكلمه. ردّت زوجته، فاستأت من الأمر وحاولت الكلام معها في مواضيع الأولاد وغيرها وسألتها، عرضاً، عن هادي وأتاني جوابها: «كما تعرفينه جيداً فهو قليل الوجود في البيت، حتى إنه بدأ يغيب في السهرات».

يغيب في السهرات وأغلبية سهراتنا غير آمنة؟ أين يمضي سهراته؟

لماذا لم يخبرني؟ سأسأله في أول لقاء بيننا. لكنه حاول التهرب من هذا اللقاء، الذي كان يجمعنا كل يوم اثنين، بحجة مشاغله الكثيرة. أصررت على رؤيته، فأتى. تعانقنا كالعادة، وبعدما شعرت أنني استرجعته سألت:

ـ أين تمضي سهراتك هذه الأيام يا عزيزي؟

ـ مع بعض الرفاق، تعلمين أننا بصدد التحضير للجمعية العمومية وتعرفين دوري في الحزب. قال بكل جدية.

ـ وهل التحضير للجمعية العمومية يكون في الليالي؟ قلت مستهجنة.

ـ الرفاق كلهم يعملون في النهار، مما يحتم الاجتماع بهم في الليل. قال من دون أن يبدو عليه أي حرج.

ـ والرفيقات؟ متى تلتقي بهن؟

ـ بعضهن في النهار والبعض الآخر في الليل. أجابني بكل برودة أعصاب.

ـ وليال؟ سألت.

ـ لم أرها بعد. أتى جوابه حاسماً.

أثلج كلامه قلبي وقلت: «ستزورني ليال غداً بعد الظهر، فإن كنت تريد منها شيئاً فما لك إلا أن تأتي إلى بيتي وتجتمع بها».

ـ سأفكر في الموضوع. قال قبل أن ينصرف.

كنت أرغب في أن تراه ليال في بيتي وأن تلاحظ حرية تصرفه معي وأن تفهم أنه حبيبي وليس صديقاً عادياً. ستُردع إن كانت تفكر بأمر ما حياله، كبرياؤها لن تسمح لها بأن تغرم بمن هو مغرم بغيرها، وهكذا سنصبح صديقتين على وضوح في الأمر وليس على التباس. إنها عفوية وصادقة ويمكن مصادقتها، وأنا على يقين بأنها ستكون صديقة بكل معنى الكلمة. لكن لم أعرف شيئاً عن حياتها حتى الآن، وسأحاول معرفة كل ما يهمني أمره عنها خلال زيارتها لي. وإن أتى هادي، وهو حتماً سيأتي، سأستبقيها إلى ما بعد مغادرته وأستوضح منها كل ما أريد. يجب أن تبنى الصداقة على الوضوح والشفافية وإلا تحوّلت إلى نوع من التكاذب. إنها متكبرة وممتلئة بذاتها أكثر من اللزوم، لكن علي تقبلها كما هي مثلما عليها أن تتقبلني كما أنا، وبخاصة أن تتقبل علاقتي بهادي مثلما يتقبلها كل الرفاق غيرها، وإن لا، فسأبعدها من حياتي وحتى من... كل الحزب.

10

أتى يوم الثلاثاء فاتصلتُ بأمينة واستوضحتها مجدداً عن عنوان بيتها. أعطتني العنوان بدقة وتوجهت إليها. انتظرت ذلك الموعد بفارغ الصبر لأنني كنت أودّ من كل قلبي مصادقة أمينة. لقد عدت من باريس، بعد إنهاء دراستي، إلى ما كان يسمى بيروت الغربية حيث ليس لي فيها أي صديق أو صديقة. كنت متلهفة على إقامة علاقات جديدة، وبخاصة إن كانت علاقات طيبة وصادقة وقد أحسست بأن علاقتي بأمينة ستكون من هذا النوع. أقمت في باريس لفترة طويلة واكتشفت كل مفاتن هذه المدينة المدهشة. إنها حاضنة الحضارة والعلم والثقافة والترفيه وكل ما يبتغيه المرء أياً كان. لقد زرت كل متاحفها، وبالأخص كل مكتباتها وتشبّعت من إصداراتها التي لا تنتهي. ومع ذلك لم أفوت فرصة التعرف إلى كل ملاهيها التي تصنف عالمياً. لكن مع كل هذه الروعة التي تتمتع بها باريس، فضلت العودة إلى لبنان الغارق في خضمّ حرب لا ندري

متى وكيف ستنتهي.

فتحت أمينة لي الباب ورحبت بي وأدخلتني إلى الصالون حيث جلسنا معاً. أول ما استرعى انتباهي في بيتها هو تلك المكتبة التي تكسو كل الحائط وبعض المكتبات الصغيرة التي تتناثر في الزوايا.

ـ بيتك جميل، قلت لها، إنه بيت مثقف بكل معنى الكلمة وهو مريح.

ـ إنه مريح لمن هو مثقف، بينما ينتقدني البعض على استعمال كل هذه المساحات للكتب. قالت أمينة مستخفة بهذا البعض.

ـ إنّ من ينتقدك هو حتماً جاهل، والمهم أن يكون بيتنا كما نريده لا كما يريده الآخرون. أجبتها وأنا موافقة على رأيها.

ـ ليس لنا سوى الكتب والأصدقاء وكل ما تبقى هراء. قالت أمينة ذلك وهي تنفض يديها.

ـ صحيح، وأنا مسرورة جداً بلقائنا. أجبتها لأبيّن لها بوضوح صدق انطباعاتي.

ـ وأنا أيضاً مسرورة بك. قالت أمينة وتابعت: سيأتي أيضاً هادي وستكون الجلسة ممتعة. إنهم يحضرون لجمعية عمومية وقد يحدّثنا عنها.

ـ أعرف ذلك، لقد أخبرني هادي أنها ستقام قريباً. قلت ذلك بعفوية كاملة ولم أنتبه إلى ما أحدثه جوابي لديها إلاّ حين رأيتها تنتفض وتسأل: «متى رأيت هادي؟».

للوهلة الأولى لمت نفسي لأنني تسرّعت في الإجابة. وأمام استيائها تساءلت: هل كان علي أن أخفي عنها زيارته لي؟ لا بالتأكيد، فهو لا يعني لي سوى أنه رفيق في الحزب. واستدراكاً للوضع ولأنني كنت مصممة على أن نكون صديقتين، قرّرت ألا أخفي عنها شيئاً، وأجبتها: «لقد مر بي منذ يومين أو ثلاثة».

ـ هل زارك في البيت؟ سألت بتوتر ظاهر.

ـ نعم لقد أتى وأمضى السهرة عندي وتحادثنا بأمور كثيرة.

صمتت أمينة للحظة وشفتاها ترتجفان ثم قالت: «أظن أنه قال لي ذلك لكني لم أعره انتباهاً».

هل تكابر؟ فلتفعل ما تشاء لأنه ليس بنيتي منافستها على هادي، بل، على العكس أريدها أن تستمر معه وأن تتوطّد علاقتنا كصديقتين.

ـ ما لنا وله الآن، أعرف أنه صديقك وأحترم هذه الصداقة. قلت لها.

ـ إنه أكثر من صديق؛ فعلاقتنا وثيقة جداً، وهي أمر معلن، الكل يعرفها، داخل الحزب وخارجه. أجابتني وهي تشمخ برأسها.

ـ وأنا أيضاً أعرفها. أجبتها بصوت منخفض.

ـ هل كلمك عنها؟ سألتني.

هل أكذب عليها وأقول لها: «نعم»؟ لا، لن أكذب حتى ولو ساءها الموضوع. وأجبتها:

ـ لا، لم يأت على ذكرها إطلاقاً، لكنني علمت من الرفاق أنكما أكثر من صديقين، علمت أنكما حبيبان.

انفرجت أساريرها وقالت بنوع من الخجل الممزوج بالغنج: «هذا صحيح».

أقفلنا موضوع هادي وبدأت تطرح عليّ الأسئلة حول حياتي الخاصة وأنا أجيبها بكل بساطة وعفوية وأسهبتُ في الكلام عن علاقتي بصديقي وأتى تعليقها: «عليك أن تتزوجي وتنجبي طفلاً». فأجبتها:

ـ أولاً وضع البلد لا يشجع على الإنجاب. ثانياً، إن أردت طفلاً فسأنجبه خارج مؤسسة الزواج وسأمنحه اسمي أنا، لكنني لست راغبة في الإنجاب.

ـ الأمر صعب في مجتمعنا. صمتت قليلاً ثم تابعت: «حتى الطلاق صعب حين يوجد الأولاد. ولولا ذلك لكنا تزوجنا أنا وهادي منذ زمن بعيد».

ـ المهم هو نوعية العلاقة وليس الزواج، وأظن أن علاقة مثل علاقتكما هي أهم من الزواج، وإن أردت فهي الزواج الحقيقي بنظري.

ـ أنت على حق. قالت بكل اعتزاز.

فُتح الباب ودخلت علينا صبية جميلة تحمل كتباً ودفاتر.

أهلاً سهام، قالت أمينة وتابعت وهي تقدمها لي: «إنها ابنتي عائدةً من المدرسة».

ـ ابنتك جميلة و...

ـ ومتفوقة في الدراسة، ستنهي المرحلة الثانوية السنة القادمة وتنتقل إلى الجامعة. قالت بكل اعتزاز.

ـ إنها ابنة أمها. أجبتها، وأكملتُ بالفرنسية elle a de qui tenir.

ـ ستتخصّص في الأدب الفرنسي وهي تجيد كتابة الشعر، قالت أمينة وهي تمسّد شعر ابنتها.

دخلت سهام إلى إحدى الغرف حيث تخلصت من كتبها وعادت لتجلس معنا، مما أزاح حوارنا عن مساره ليأخذ اتجاهات أخرى صبّت كلها في فلك سهام واهتماماتها. وأتى تعليقها حين أبديت رغبة في الانصراف: «كأنني أعرف الدكتورة ليال منذ زمن بعيد، إنها قريبة جداً». بالفعل كان كلامها صادقاً لأنني شعرت، بعد أن تناقشنا بأمور عديدة تخص جيلها، بأنها قريبة مني ومن آرائي التي أتت، في بعض الأحيان مناقضة لآراء أمها.

وهكذا انتهت زيارتي لأمينة من دون أن يأتي هادي.

11

بعد أن رحلت ليال أبدت سهام إعجابها بها وقالت: «ليال إنسى جميلة ومثقفة وقوية، أحب هذا النوع من النساء الواثق من نفسه».

لم أرتح لتعليق سهام وأتى ردي مباشراً: «لكنها لا تعرف ماذا تريد بالضبط، إنها طاووسية، استعراضية وكأنها تبحث عن صدم الآخر. لا أعتقد أنها مقتنعة كلياً بما تقول، صحيح أن طروحاتها جريئة، لكن لست أدري إلى أي حد تمارسها بالفعل».

ـ بدت لي على عكس ما تقولين وأظنها صادقة. أجابتني سهام.

ـ لا يمكنك أن تكوّني فكرة واضحة عن شخص ما من خلال لقاء قصير معه.

ـ على الأقل هذا هو انطباعي الأول عنها، مع أنني لست متمسكة برأيي كلياً والأمور ستتكشف لاحقاً.

ـ صحيح، لا يستطيع المرء أن يخفي حقيقة ذاته إلى ما لانهاية والانطباع الأول ليس هو بالضرورة الانطباع الأكيد. أجبتها.

ـ مع أنه يصدق في أغلب الأحيان، أردفت سهام.

لم أجبها، فصمتتْ، وبعد قليل، ولكي أقفل الموضوع، سألتها كيف أمضت نهارها في المدرسة قبل أن أطلب منها أن تدخل غرفتها: «الآن إلى الدرس، انتهي من دروسك، وأنا سأعد العشاء قبل أن يأتي والدك».

دخلت سهام غرفتها وتوجهت أنا إلى المطبخ وبدأت بتهيئة الفول المدمس وبعض المقبلات الخفيفة. كنت أنجز العمل وذهني شارد يحوم حول هذه الإنسى التي دخلت حياتي من دون أن أتوقّع. لكن من أي باب دخلت؟ هل شكوكي في محلها، أم أن ما تقوله عن نفسها هو الصحيح؟ لو كانت شكوكي واقعية فلماذا تتقرّب مني؟ أنا أرغب في التعرف إليها لكي أكتشف هذه الشخصية التي أظن أنها تسلب حبيبي مني، لكن هي، من جهتها ما هو الدافع لديها كي تلبي رغبتي؟ هل هي التي طلبت من هادي التهرب من المجيء؟ أو أنه هو الذي قرّر ذلك كي لا ينكشف أمره أمامها؟ هل صحيح أن لديها عشيقاً؟ وهل هو عشيق واحد؟ إنها إنسى خطرة. لا أحب هذا النوع من الجمال الباهت، لكنه من النوع الذي يشد الرجال الشرقيين بسبب عقدهم بالنسبة إلى النموذج الجمالي الأوروبي الذي هو جمالها.

كنت أتخبط في هذه الأفكار حين بدأ القصف وأتى وديع مسرعاً من دون أن يتخلى عن حيويته المعتادة وهو يقول: «ها قد أتيتكم بالشاورما للعشاء». امتعضت وأجبته:

ـ لماذا لم تسألني قبل أن تشتري الشاورما، لما كنت تعذّبت وأحضرت العشاء، ثم كيف فكرت بالأمر وقد بدأت الحالة تتدهور؟

ـ وماذا طبختِ لنا؟ سألني وتابع: أما الحالة فقد أصبحت معتادة، يوقفون المدفع في النهار ويعودون إليه في بداية الليل.

ـ الفول المدمس و...

ـ ممتاز فهو يتناسب جداً مع الشاورما أجابني، ورفع صوته منادياً: سوسو تعالي، نحن بانتظارك. وما إن سمعت سهام صوت والدها حتى خرجت من غرفتها واجتمعنا حول الطاولة ونحن نسمع صوت القذائف البعيدة.

ـ لقد أصبح للماما صديقة جديدة، قالت سهام متوجهة إلى والدها.

ـ هذا رائع، وهل هي جميلة؟ سألها.

ـ لا تفكرون، أنتم الرجال، إلا بهذه الناحية عند الإنسى. أتى تعليقي.

ـ كما تريدين، هل هي ذكية ومثقفة؟ سأل متهكماً.

ـ إنها جميلة وذكية ومثقفة. أجابت سهام، وتابعت، متوجهة إليّ: هل هي في الحزب معكم؟

ـ دخلت الحزب منذ فترة قصيرة، وهي معنا في الخلية لأنها أستاذة في كلية الآداب مثلي.

ـ بكل صراحة، قالت سهام، أنا لا أفهم كيف أن إنسى كالدكتورة ليال تنتسب إلى الحزب الشيوعي.

ـ القصة واضحة وهي من صلب الصراع الطبقي؛ أجبتُها وتابعت: ليال تنتسب طبقياً إلى البورجوازية الصغيرة وهي طبقة متأرجحة، طموحها أن تكون من البورجوازية العليا، لكن عدم قدرتها على ذلك يولّد عندها ردّ فعل، فتختار النقيض، وهكذا تشعر بأنّ لها موقعاً معيناً. إن انتساب هذه الأنماط إلى الحزب ليس عن قناعة، هذا ما تقوله كل الأدبيات الماركسية. أنا أفهم سلوك ليال، لكني لا أفهم سلوك الحزب.

ـ وما به سلوك الحزب، هل كان عليه أن يرفضها بسبب انتمائها إلى البورجوازية الصغيرة؟ أجاب وديع بنوع من اللؤم. أنا أفهمه جيداً، فهو يريد استقطاب المثقفين، وهو عمل ممتاز يقوم به.

ـ صحيح، قالت سهام، ربما كانت الماما على حق؛ فإن من يرى ليال ويلاحظ تأنقها واهتمامها بحالها لا يفكر للحظة أنها تنتمي إلى حزب كالحزب الشيوعي.

ـ ما بالكن؟ صاح وديع، هل مهمة الحزب أن يستقطب فقط القبيحات والمستهترات بحالهن؟ الله، سبحانه وتعالى، يحب الجمال.

ـ لا أرجوك، قلتُ بنبرة عالية، الجميلات كثيرات في الحزب ومنهن من هي أجمل من ليال بدرجات، لكني أتفهم ما تقصده سهام، هي تتكلم عن الـ attitude وليس عن الجمال بحد ذاته، وليال يتملّكها بعض الغرور والادعاء الواضحين وآمل أن تتخلى عنهما مع تقدم العمر والنضج، وهذا أمر يتوقف على مدى وعيها الصحيح

والفعلي لذاتها ولحقيقتها.

ـ أعتقد أن ما تسمينه ادعاءً وغروراً عند الدكتورة ليال هو نوع من الثقة بالذات، وأنا أحب هذا النوع من النساء وبخاصة أن آراءها في بعض الأمور هي صائبة جداً. أجابت سهام.

ـ ترينها صائبة لأنها تتماشى مع آرائك الآنية، لكنك ستتغيرين وتنضجين وترين الأمور كما أراها أنا. أجبتها.

ـ هل نمضي السهرة على من تسمونها ليال؟ لقد حان وقت الأخبار، سأفتح التلفزيون. قال وديع ذلك وهو ينهض من مكانه ليتوجه إلى مقعده الخاص أمام التلفاز.

جلستُ إلى جانبه بعد أن رتّبت الطاولة والمطبخ مع سهام التي ما إن أنهينا عملنا حتى عادت إلى غرفتها. جلستُ أستمع إلى الأخبار التي تمحورت حول تحديد مواقع القتال، وكانت تلك الليلة منحصرة في نطاق ضيق لا يُنذر بتدهور الوضع، وقد جرت معالجتها بسرعة. حين اطمأننت إلى أن القصف بعيد عنا شرد ذهني إلى أمر آخر، والسؤال الوحيد الذي شغل فكري كان: لماذا لم يأتِ هادي؟

12

خرجت من بيت أمينة وأنا مرتاحة لهذه البداية التي ستقودنا، حتماً، إلى الصداقة التي أنشد. وصلت إلى بيتي وأنا أردّد مقطعاً من أغنية أم كلثوم: «أعطني حريتي أطلق يديا...». لكن ما إن دخلت الباب حتى رنّ جرس الهاتف وإذ بطارق، ابن أختي الذي أحبه جداً:

ـ لقد بدأت عطلة عيد الميلاد، وأنا أرغب بزيارتك وتمضيتها عندك. هل لديك عطلة في الجامعة؟

وأتى جوابي:

ـ طبعاً. لكن العمل قبل الظهر في المؤسسة سيستمر. وسترافقني إلى هذا العمل.

ـ لن أزعجك في المكتب، سأقوم بإنجاز فروضي ودروسي خلال قيامك بعملك في المؤسسة. قال طارق بكل جدية.

فرحت بكلامه هو الذي أعتبره كابني لأنني كنت قد ساهمت مساهمة كبيرة جداً في تربيته، وأجبته على الفور بالترحيب: «سآتي فوراً لاصطحابك». لكنه أجابني:

ـ والدتي ستوصلني، انتظرينا، مسافة الطريق، لقد جهّزت كل أغراضي قبل أن أتصل بك.

طارق الذي هو الآن في الثانية عشرة من عمره، هو الحفيد الأول في العائلة، وبسبب انشغال أمه بالدراسة والعمل، نشأ في بيت جده لوالدته، فاهتممت به مباشرة، مما أوجد عندي نوعاً من الشعور بالأمومة نحوه وأوجد عنده شعوراً بالبنوة نحوي. ولأنني لم أكن أرفض له طلباً، ازداد تعلقه بي، ولهذا السبب هو يرغب في تمضية عطله المدرسية عندي.

أقفلت الخط مع طارق واتصلت بعشيقي لأطلب منه أن يلغي زيارته لي في المساء. استغرب الأمر وسألني عن السبب.

ـ لدي زائر عزيز جداً. أجبته.

ـ ومن يكون؟ هل تخونينني هكذا بكل وقاحة؟ قال بلهجة تجمع بين الجد والمزاح. فسارعت إلى القول: «إنه طارق ابن أختي». لأنني أعرف أنه غيور جداً.

ـ هل صحيح أن الزائر هو طارق أم أنك تخفين أمراً ما؟ على كل حال سأتأكد بنفسي.

ـ افعل ما تشاء. أجبته وأنا أضحك قبل أن أقفل الخط معه.

قبل مضي أقل من ساعة كان طارق عندي في البيت. أوصلتْه أمه

وغادرت بسرعة قبل أن تسوء الأحوال على خطوط التماس بين شقي العاصمة. غادرت وهي توصيه بأن يكون مطيعاً وأن لا يعذبني.

ـ ستساعدني بتحضير العشاء، ماذا تريد أن تأكل؟ سألته بعد أن استرحنا قليلاً وأخبرني بعض النكات عن المدرسة والرفاق.

ـ تعرفين أنني أحب البيض المقلي مع المقانق. أجابني من دون تردد.

ـ عندي بيض لكن من أين نأتي بالمقانق وقد أقفلت المحالّ الآن؟ وحتى لو أنها غير مقفلة فلن أخرج من البيت في هذا الوقت.

ـ نأكل البيض «سادا» أمرنا لله. أجابني وهو يبتسم.

دخلنا المطبخ، وإذا بجرس الهاتف يرن من جديد وأتى عبره صوت هادي:

ـ هل أنت في البيت؟ وهل أستطيع المرور بك؟

تردّدت قليلاً ثم حسمت الأمر بأن أجبته: «أهلاً وسهلاً».

أقفلت الخط وفكرت لماذا لم أرفض زيارته ولم أقل له إنني مشغولة؟ لقد قبلت لأفهمه أنه زائر عادي وأنني أستقبله بوجود طارق كي لا تتخذ الزيارة وقبولي لها منحى آخر ربما كان قد خطر في باله. أن أستقبله بحضور طارق يعني أنني أعامله كصديق ليس إلا.

أتى هادي وهو يحمل بيده كيساً بلاستيكياً، قدمه لي وقال: «هذه عدّة الشاي. أنتم المسيحيين لا تتقنون طقوس الشاي كما يجب،

تشربونه على الطريقة الأوروبية وأنا سأعلمك الطريقة الشيعية الجنوبية».

ـ إذاً سنشرب الشاي بعد العشاء. أجبته.

ـ وأنا سأحضره. لكن هل تجيدين تحضير الطعام؟ سأل وهو يضحك.

وضع الكيس في المطبخ وتوجهنا إلى الصالون حيث كان طارق جالساً أمام التلفاز. توقف هادي وهو ينظر إليّ كأنه يتساءل عمّن يكون هذا الشاب الصغير.

ـ هيا حبيبي، سلم على عمو هادي. قلت متوجهة إلى طارق الذي كان قد نهض من مكانه وأخذ يقترب من هادي، ثم مد يده للسلام فتجاوب معه هادي وهو يسألني: «من هذا الشاب الوسيم؟ هل.... لديك أولاد؟».

ـ هو أعز من ابني، إنه ابن أختي وهو ضيفي لبضعة أيام. وتابعت: إنه آتٍ من المنطقة الشرقية.

ـ هذا يعني أنه رجعي. أجاب هادي مازحاً.

وأتى جواب طارق مفاجئاً، إذ قال: «نحن أكثر تقدمية من كل أهالي الغربية».

قبّله هادي وهو يقول: «برافو عليك يا بطل».

ما كاد هادي يقول ذلك حتى بدأنا نسمع صوت انفجارات متقطعة وبعيدة فتجمدت مكاني قائلة: «الله يسترنا هذه الليلة».

ـ لا تخافي، أجابني هادي، هذه القذائف لن تتخطى خطوط التماس، وهي محدودة جداً، هذه هي معلوماتي.

تابعتُ عملي في المطبخ وأنا فعلاً خائفة، لكن طارق وبعفويته المعتادة قال، حين أحضرت العشاء ووضعته على الطاولة وبدأنا بالأكل: «البيض من دون مقانق ليس لذيذاً».

ـ اصمت يا ولد، نهرته، ألا تسمع صوت القذائف؟

ـ لكنه ليس جباناً مثلك. أجابني هادي وهو يضحك. ثم تابع: «لماذا لم تطلبي مني أن آتي بالمقانق وأنا أعرف من يعدها بشكل ممتاز؟ فما كان من طارق إلا أن أجاب:

ـ ما صار شي، في المرة القادمة تأتينا بالمقانق.

ضحك هادي بصوت عالٍ وقال: «يا عكروت منّك هينّ، غداً سأجلب المقانق اطمئن».

فهمت من جوابه هذا أنه تمهيد غير مباشر لزيارته لنا في اليوم الثاني، فأجبت بسرعة: «غداً أحضر لك ما تريد يا طارق».

ـ إن كان عمو هادي سيقوم بالعمل، فلماذا تعذبين نفسك؟ أجابني.

ضحكنا معاً ومرت السهرة وشربنا الشاي وطارق ما زال ساهراً، فما كان من هادي إلا أن سأله، حين شارف الوقت على منتصف الليل: «ألا تنام يا ولد؟».

ـ ليس قبل أن يذهب الضيوف. أجاب طارق.

ـ مش هينّ هالصغير. قال هادي وهو يستعد للانصراف.

ـ لا تنسَ المقانق غداً. قال له طارق وهو يودعه معي على الباب.

دخلنا غرفة النوم حيث تمدد طارق على السرير إلى جانبي وغفا بسرعة بعد أن طرح بعض الأسئلة، تاركاً إياي لقلقي ورعبي من تصاعد الوضع الأمني.

13

حوالى الساعة العاشرة، أقفل وديع التلفاز وقال: «هيا بنا إلى النوم لنستيقظ باكراً إلى العمل».

كان هو جاهزاً للتمدد على السرير، إذ إنه كان قد ارتدى ثياب النوم سابقاً، أما أنا فقد كان علي أن أخلع ثيابي، وهذا ما قمت به على مهل وهو يقول: «أنتظرك، هيا أسرعي». كان مهتاجاً، وما إن تمدّدت إلى جانبه، حتى عانقني وبدأ بمداعبة جسدي الذي اهتاج بدوره، لكنه اهتاج على هوام خطر للمرة الأولى في مخيلتي؛ لقد تراءى لي هادي وهو يعانق ليال ويقبلها ثم يمارس معها الحب. لست أدري لماذا أثارني هذا المشهد ودفعني إلى إتمام العملية الجنسية مع زوجي بشكل جيد، إذ توصلنا معاً إلى النشوة، مما أغبط وديع، لكنه لم يغبطني أنا، لأنني ما إن انتهينا حتى عاودتني رؤية هادي مع ليال، لكن هذه المرة لم تهيجني، بل أشعلت الغيرة في قلبي

وأبقتني صاحية أفكر بتخلفه عن زيارتي بعد الظهر وأين يمكن أن يكون قد أمضى سهرته. «سأعرف غداً، سنلتقي حتماً في مؤسسة البحوث حيث تعمل ليال، لاجتماع هيئة تحرير المجلة، سأراه وأراها وسأعرف كل شيء».

في صبيحة اليوم الثاني الذي لم تعكّره أصوات المدافع، قصدت المؤسسة قبل الوقت المحدد للاجتماع. بكّرت في المجيء لكي أفاجئ هادي إن كان قد سبقني لرؤية ليال قبل الاجتماع. لكنني لم أجده. فرحت ودخلت غرفة المدير الذي رحب بي. وبعد أن حيّيته وقبل أن ينادي وليد لكي يأتي بالقهوة، طلبت منه أن يدعو ليال لتناولها معنا. لكنها اعتذرت لأن لديها عملاً لا تستطيع تأجيله وأنها ستتأخر قليلاً. شربنا القهوة ولم تأتِ وقد حان وقت الاجتماع، فاعتذرت من المدير وانصرفت. لكن شيئاً ما دفعني إلى غرفة ليال التي رحبت بي واعتذرت مجدداً حين قلت لها إننا انتظرناها.

ـ لم يقل لي المدير إنكِ عنده، و....

لم أعد أسمع ما أكملت به كلامها حين رأيت، في طرف الغرفة، ولداً يكتب على إحدى الطاولات.

ـ من الشاب؟ سألت بشكل عفوي وقد خطر ببالي أن يكون ابنها وبالتالي أن يكون كل ما قالته لي بالأمس ليس سوى كذب ونفاق.

ـ إنه طارق، ابن أختي. أتاني جوابها بكل اعتزاز وهي تدعوه إلى أن يسلم على الدكتورة أمينة.

ـ هل يعيش معك؟ سألت وكنت أتمنى ذلك.

ـ لا، لكنه يزورني في فترات العطلة وقد أتى البارحة مساءً.

أراحني جوابها واطمأننت إلى أن هادي لم يكن عندها كما تخيّلت. اقتربت من طارق ومسّدت شعره وسألته عن المدرسة وغيرها من الأمور التي تتعلق بها.

ـ تفضلي بالجلوس. قالت ليال.

ـ أعتذر لأن وقت الاجتماع قد حان. أجبتها.

ـ أي اجتماع؟ سألت مستغربة.

ـ هيئة تحرير المجلة. قلت بكل فوقية، لأني تيقنت من أنها لم تر هادي في المساء وإلا كان أخبرها عن الاجتماع.

استودعتها وتوجهت إلى قاعة الاجتماعات، وما هي إلا دقائق حتى قرع باب المكتب ودخل هادي مع بعض الرفاق من هيئة التحرير وبدأ الاجتماع الذي طال إلى ما بعد دوام المكتب. انتهى النقاش وتهيأنا للانصراف، فطلبت من هادي أن نجلس في أحد المقاهي. نظر إلى ساعته وقال: «لقد تأخرنا... لكن لا بأس سنجلس معاً لبعض الوقت».

استأت من كلامه هو الذي كان يبحث عن دقيقة ليلتقي بي، لكنني أغفلت استيائي وركبت معه في السيارة وتوجهنا إلى مقهى (الغوندول).

ـ لماذا لا نذهب إلى مقهانا المعتاد؟ سألت.

ـ إنه بعيد وليس لدينا من الوقت ما يكفي.

ـ أنا لدي كل الوقت أجبته، أما أنت فما هو الأمر الذي يشغلك؟

ـ لقد طلبت مني زوجتي بعض الأغراض للغداء، وها قد مضى الوقت وهي تنتظر. قال ذلك وهو ينظر مجدداً إلى ساعته.

لم أصدق كلامه، مع أنني أعرف أنه هو الذي يشتري كل أغراض البيت، لكنني لم أعلق بأية كلمة، إلى أن جلسنا في المقهى. طلب الشاي ومكثنا صامتين. لكن حين ثقل الصمت سألته: «لماذا لم تأتِ البارحة؟».

ـ إلى أين؟ أجابني بكل جدية كأنه يجهل عما أتكلم.

ـ هل نسيت؟ لقد زارتني ليال. وكنتَ قد وعدتني بأنك آتٍ.

خبط على رأسه وهو يقول: «حقاً نسيت».

ـ وما هي المشاغل التي أنستك اتفاقنا؟ سألته بكل لؤم.

ـ نسيت لأنني ربما كنت قد قرّرت بلاوعيي ألا أزعجكما، كيف كان اللقاء بينك وبين ليال؟

ـ جيد. أجبته باختصار.

ـ وهل أعجبتك ليال؟ سألني بلهجة ملتوية.

ـ ماذا تقصد؟ هي جميلة ويبدو أنها طيبة لكن....

ـ لكن ماذا؟ سارع إلى السؤال.

ـ لكنها مدّعية وفخورة بذاتها أكثر من اللزوم. أجبته متلبسة لبوس

الموضوعية.

ـ ألا يحق لها؟ قال بين المزاح والجد.

ـ ربما، لكنني لم أكتشفها بعد كما يجب مع أنها نالت إعجاب سهام.

ـ كيف حال سهام؟ قال كأنه يريد الابتعاد عما أبغيه.

بالفعل انتقل الحديث بنا إلى وديع وسهام ومشاغل البيت وغيره من الأمور العامة قبل أن يعتذر ويستأذن بالانصراف.

ـ هل نسيت أنني أتيت معك في سيارتك؟ سألته وتابعت: عليك أن توصلني إلى بيتي لأنني أتيت إلى الاجتماع بالتاكسي.

ـ أمرك ستنا. أتى جوابه ساخراً.

أوصلني إلى البيت حيث ترجلت من سيارته، وأنا أقول له إلى اللقاء في موعدنا العادي أول الأسبوع القادم.

14

انصرف الرفيق هادي ونام طارق بالقرب مني في السرير. لكنه قبل أن يغفو كلمني عن هادي مبدياً إعجابه به، والأمر كان طبيعياً، إذ إن هادي قد اهتم كثيراً بطارق خلال السهرة. غفوت تلك الليلة بطريقة متقطعة لأستيقظ على رنين الهاتف.

ـ من المزعج؟ قال طارق وهو يتثاءب. لكنني أنا كنت قد حدست أنه هاني، وبالفعل أتاني صوته السائل: «كيف كانت سهرتك؟».

ـ ممتعة وما زال الضيف عندي. أجبته بخبث.

ـ إنني آتٍ لأتأكد من كلامك. سارع إلى الإجابة، فما كان مني إلا أن قلت:

ـ لا تنسَ أن تجلب معك الكنافة، لأن الضيف الكريم يحب ترويقة الكنافة.

أتى هاني ورحّب بطارق الذي كان يعرفه من قبل وتناولنا الفطور معاً.

ـ كيف كانت سهرتك مع خالتك ليال؟ سأل هاني طارق.

ـ ممتازة، لقد هيأت لي العشاء، سهرنا قليلاً ونمنا باكراً.

فوجئت بجواب طارق هذا وتساءلت: «ما هذا الحدس المرهف الذي يتمتع به هذا الصبي؟».

لم يمكث هاني معنا طويلاً. ما إن أنهينا الفطور حتى قال: «أنا صاعد إلى البقاع هل تريدين شيئاً؟».

ـ لا شكراً، كن حذراً على الطريق. أجبته، فتوجه إلى طارق وقال: انتبه إلى خالتك. ثم استودعنا ورحل. وما إن أقفلت الباب وراءه حتى أتى تعليق طارق:

ـ بين هادي وهاني ستكون الإقامة عندك ممتعة. صمت قليلاً ثم تابع: «شرط أن لا يلتقيا».

لم أعلق على ما قال، وطلبت منه أن يجهز نفسه لمرافقتي إلى مركز عملي.

وأتى تعليقه، بعد أن رأى أمينة عندي في المكتب: «شو وجّها آسي هالمرا».

ـ إنها لطيفة جداً على الرغم من هذه القسوة البرانية. أجبته.

ـ هل هي صديقتك؟ سألني.

ـ ليس تماماً، لكننا سنصبح صديقتين.

ـ هل تعلّم معك في الجامعة؟

ـ نعم، وهي أستاذة مميزة.

ـ ألا يخاف منها الطلاب؟ سأل وهو يقطب حاجبيه.

ـ يجب أن يخاف الطالب من الأستاذ. أتى جوابي المباشر.

ـ لا، يجب أن يحب الطالب الأستاذ، وأظن أن طلابك يحبونك.

ـ لا أدري. أجبته وأنا أمسّد على وجنتيه.

ـ أنا متأكد لأن وجهك بشوش، على عكس وجهها.

ـ اسكت يا ولد. صحت به، لا أريد أن أسمع تعليقاتك وعليّ إتمام ما هو مطلوب مني قبل أن نغادر.

صمت طارق وتابعتُ عملي إلى الساعة الثانية من بعد الظهر، ثم تركنا المكتب وتوجهنا إلى أحد المطاعم لتناول الغداء وعدنا إلى البيت حيث استلقيت لأرتاح وبقي طارق صاحياً. وما إن نهضت من النوم حتى سألني: «هل يصدق هاني ويأتي بالمقانق أم أنه فنّاص؟».

ـ حتى الآن لم يتصل، لكن اطمئن سأحضر لك المقانق.

ـ هيا بنا قبل أن تقفل المحال أو يبدأ القصف. قال مسرعاً.

لبّيت رغبته وذهبنا إلى سوبرماركت (غوديز)، فاشترينا المقانق وعدنا

قبل الساعة السابعة.

ـ سأهتم بتهيئة العشاء، قلت لطارق، كي يكون جاهزاً قبل الأخبار، هكذا نجلس في الصالون ونتناول العشاء أمام التلفاز.

ـ وإن أتى هادي فلن ندعه يشاركنا. أجابني ضاحكاً.

ـ لا أظنه سيأتي، ربما جد عليه عمل ما.

ـ كان عليه أن يتصل ويعتذر، الكذب غير مسموح. قال طارق بجدية، وأجبته:

ـ الغائب عذره معه كما يُقال، وعمو هادي مسؤول ويقع على عاتقه مهام عديدة.

وما إن توقفنا عن الكلام، حتى طُرق الباب وأتى هادي ومعه ما وعد به طارق في الأمس وأضاف إليه السجق والبسطرما.

ـ اشتريتها من أفضل مكان مخصص لهذه المأكولات، صاحبه أرمني ويتقن عمله جيداً، سترون. قال هادي وهو يضع ما أتى به على الطاولة في المطبخ.

ـ لكننا سبقناك واشترينا المقانق من عند غوديز ظناً منا أنك لن تأتي. قال طارق.

ـ هذا عيب، أجاب هادي، فالرجل حين يعد يفي بوعده وأنا وعدتك البارحة بأن أطعمك أطيب مقانق. ثم توجه إليّ وتابع: «ضعي ما اشتريتِه في البراد ودليني على مكان المقلاة، أنا سأحضر كل شيء كما ينبغي لأنني، بكل صراحة لا أثق بمواهبك المطبخية.

قهقه عالياً وسحبني من يدي إلى المطبخ وأخذ يتحرك فيه على مزاجه حتى أتـمّ مهمته بكل نجاح.

انتهى التحضير فأتيت بكاسات العرق، وفقاً لطلب هادي، وجلسنا حول الطاولة نتذوق ما قدمه لنا ونثني على مهاراته المتعدّدة. التهمنا الطعام وبدأت الصحون تفرغ ولم يبقَ في أحدها إلا قطعتا مقانق، ورأيت كلاًّ من طارق وهادي يحمل شوكته ويتحضر لأخذ قطعة، لكن طارق كان أرشق من هادي فقد غرز شوكته في القطعة الأولى وبعجلة غرزها في الثانية والتهمهما معاً، فأطلق هادي ضحكة مدوية، نهض من مكانه وقبّل طارق على جبهته وهو يقول: «يا أخو الشليتة منّك هينّ».

بعد العشاء بقليل نعس طارق ونام واضعاً رأسه في حضني، فأيقظته لينام على السرير في غرفتي. فتح عينيه وقال: «سأترككما، لكن كن على ثقة يا دكتور هادي أنني أسمع كل شيء».

ـ الآن بدأ الجد، قال هادي حين عدت من غرفة النوم، هل تحبين الشعر؟

ـ ومن لا يحبه؟ ولديّ بعض المحاولات فيه. أجبته.

ـ هيا أسمعينا. قال مرحِّباً.

ـ إنها تمارين في الشعر وليست شعراً بكل معنى الكلمة.

ـ على كل حال سأستمع وأعطيك رأيي.

قرأتُ له بعضاً مما كنت قد كتبته وأتى رأيه بأن ما سمعه ليس شعراً بل خواطر: «كتابتك ذهنية، وإن أردت كتابة الشعر فعليك أن

تفسحي في المجال لمخيلتك وأن تلجمي ذهنك قليلاً، على الشعر أن يكون حراً ينساب كالماء العذب».

ـ هل تكتب الشعر؟ سألته.

ـ في حالات معينة، حين أكون عاشقاً، وقد نشرت ديواناً واحداً حتى الآن، لكنني أحضر ديواناً ثانياً.

ـ هذا يعني أنك عاشق. أتى تعليقي.

ـ لا بل أذوب عشقاً. أجابني ماغطاً الـ«ذو» في كلمة أذوب.

ـ وهل بدأت الديوان الجديد؟

ـ البارحة، بعد أن ذهبت من هنا، كتبت القصيدة الأولى، سأقرأها عليك وستعرفين كيف يكتب الشعر.

سحب من جيبه أوراقاً مطوية، فتحها وقال: «عيناك والبحر».

ـ العنوان جميل، قلت بخبث، فلنستمع إلى القصيدة.

بدأ بالقراءة بكل انفعال وثقة، يلفظ كل حرف بإتقان مانحاً إياه كل أبعاده. أعجبتُ بما قرأ، وخاصة بطريقته في الإلقاء، وعبّرت له عن إعجابي هذا، فطرب لقولي وحاول تقبيلي. أبعدته قائلة: «عليك أن تقبّل من كتبتَ لها هذا الشعر».

ـ هل أنت غبية أم أنك تفتعلين الغباء؟ سألني بدهشة.

ـ لا هذا ولا ذاك. أجبته من دون انفعال.

ـ إنه لك يا جاهلة. أجابني متوتراً.

دغدغ قوله نرجسيتي وقلت بغنج مفتعل: «إنه شعر جميل لكن من أوحى به هو حتماً أجمل».

ـ الله يلعنك شو نرجسية، قال ضاحكاً، وتابع: «على كل حال يحق لك بذلك».

لكن شعرت أن الأمور ستأخذ منحى الجد ولم أكن مستعدة لذلك لأنني لم أشعر بأي ميل نحو هادي، فحاولت تغيير الموضوع وسألته عن مسألة في أحد كتبه النظرية، وأتاني جوابه:

ـ ما بك tu sautes du coq a l'ane كنا في رحاب الشعر وتقفزين فجأة إلى النظريات الجافة؟ لست على استعدادٍ للنقاش، فأنا في أجواءٍ أخرى ولا أود الخروج منها.

ـ لقد قلت لك إن شعرك جميل، ألا يكفي ذلك؟ سألته مفتعلة اللهجة الموضوعية.

ـ لا، لا يكفي، عليك أن تشعري به، أن تعيشيه، أن تلتقطي كل معانيه. أجابني وهو رافع ذراعيه.

ـ تذوقته وعبّرت عن ذلك. أجبته.

ـ لا تجيدين التعبير، لو قلته لغيرك لقبلتني ألف قبلة.

ـ هذا ما يفعله غيري وليس أنا. أجبته بكل كبرياء.

ـ وهل أنت مختلفة؟

ـ بكل تأكيد.

ـ تعجبني كبرياؤك، وأعدك بأنك ستعجبين بشعري وتقدرينه كما ينبغي. قال وهو يطوي الأوراق بين يديه.

ـ سنرى. أجبت باقتضاب.

ـ أنا واثق. أما ألآن فسأتركك، لقد تأخر الوقت وبدأتِ بالتثاؤب، أراك غداً... هل ستطول إقامة طارق عندك؟ سألني وهو ينهض من مكانه.

ـ فقط عطلة الميلاد، بعدها يعود إلى مدرسته وأهله.

ـ حسناً، حسناً، قال وهو يتهيأ للمغادرة. لكن ما إن توجهنا نحو الباب حتى سمعنا دوي انفجارات غير بعيدة، فتسمرنا مكاننا وطلبت منه أن يتريث في الرحيل. كنت، بالفعل خائفة، وأود لو يبقى هادي معنا هذه الليلة. حدس بما أشعر وقال:

ـ سأبقى إلى أن يتوقف القصف. سأتصل بالعائلة وأبلغها أنني باقٍ حيث أنا إلى أن يهدأ الوضع. لكن القصف استمر إلى ساعات الفجر وهكذا لم يغادر هادي إلا حوالى الساعة السابعة صباحاً.

15

قبل لقائي المعتاد بهادي زارني أحد الرفاق الذي يقيم في البناية التي تسكن إحدى شققها ليال وأخبرني أنه يرى سيارة هادي في موقف البناية، قال: «لم أره هو، فقط رأيت سيارته، ربما كنت على خطأ لكني... شبه متأكد... من أنها سيارته، إلا إذا كان أحد من زوار البناية يملك سيارة مثل سيارته». تردد قليلاً ثم تابع: «منذ ثلاث ليالٍ مكثت تلك السيارة في موقف البناية حتى الصباح ولهذا السبب أشك أن تكون سيارة هادي».

لم أجبه لكنني تمزقت غيظاً وقرّرت أن أسأل هادي عن الأمر بكل وضوح حين نلتقي. لكني ابتلعت غيظي وتابعت النقاش مع الرفيق كأني لم أسمع ما قاله.

حان الموعد، فخرجت من منزلي وتوجهت كالعادة إلى المكان الذي نلتقي فيه، وهو شقة صغيرة في أحد الشوارع المتفرعة من شارع

الحمرا. فتحت باب الشقة ودخلتها متفحصة هل من تغير فيها أو هل من أثر لغيري على أثاثها وفي سريرها أو... ولكن سرعان ما استدركت أن ليال تسكن وحدها في شقة وليست بحاجة إلى أن تجد لخلواتها بالعشيق، أي مكان سري.

أتى هادي في تمام الساعة العاشرة، لم يتأخر. دخل الشقة وارتمى على المقعد وهو يقول: «إنني متعب جداً، لم أنم البارحة».

ـ وما هو سبب أرقك هذا؟ سألت.

ـ كنت أكتب، وقد أخذتني الكتابة، ولم أنتبه إلى نفسي إلا حين سمعت عجقة الأولاد وهم يجهزون أنفسهم للذهاب إلى المدرسة.

ـ هذا يعني أنك أنجزت قسماً مهماً من كتابك الجديد؟ قلت بتحبب.

ـ لم أنجز كلمة واحدة منه، كنت في أجواء أخرى. أجابني شارداً.

ـ وماذا كتبت إذاً؟

ـ كنت أكتب الشعر.

أتى جوابه كمن رشقني بالماء الغالي، لأنني أعرف أنه لا يكتب الشعر إلا في حالات الانفعال الشديد، وهو يعرف أنني أعرف هذا عنه، فهل قاله لأفهم منه، بطريقة غير مباشرة، أنه يعيش حالة عشق؟

ـ وهل نسمع ما كتبت؟ سألته.

ـ لم تنجز القصيدة بعد، يلزمها الكثير من الـ retouches كي

أرضى عنها وتصبح صالحة للقراءة.

ـ اقرأ ما كتبت ونصححه معاً كما في العادة.

ـ لا أحمل الأوراق معي، تركتها على المكتب. أجابني باقتضاب.

كنت أشتعل غيظاً من موقفه المستهتر بأحاسيسي، لكني تمالكت نفسي وحاولت تغيير الموضوع لجره إلى أحضاني من جديد، لكنه أبدى برودة لا تحتمل فانفجرت وصحت به:

ـ هل هذه الـnana اللعوب سلبت عقلك؟

ـ من تقصدين؟ سأل بكل هدوء.

ـ هذه القحبة التي أدخلتموها إلى الحزب. صرخت به.

ـ أمينة لا تفقدي أعصابك واحترمي الآخرين كما تحترمين نفسك فمن تتكلمين عنها ليست لعوباً وليست قحبة. أجاب بهدوء.

ـ وتدافع عنها أيضاً؟ وتمضي الليالي في بيتها؟ لقد قالت لي إن لها عشيقاً وإنها معجبة بعيسى، وها هي الآن تغويك. ألا تكون الإنسى لعوباً حين تجمع الرجال حولها لتهزأ بهم جميعاً وتشبع نرجسيتها الجشعة؟

تابعتُ كلامي وأفرغتُ كل ما في قلبي من حقد على ليال وهو يستمع من دون جواب. وحين توقفت عن الكلام، نهض من مكانه وأخذ يتمشى في الغرفة وهو صامت. نفد صبري وصرختُ به من جديد: «هيا انطق، دافع عن نفسك».

ـ لن أدافع عن نفسي لأنني لست مخطئاً. كل ما في الأمر أنك ترفضين تقبّل أن ما كان بيننا قد انتهى.

ـ انتهى بسبب هذه الشر... المدّعية التحرر.

ـ ليس لها دخل في ما بيننا، وأنت تعلمين جيداً ذلك لأن علاقتنا، بشكلها الماضي، قد انتهت منذ زمن.

ـ وتقولها بكل بساطة؟ كيف لعلاقة مثل علاقتنا أن تنتهي هكذا؟ سألته وأنا أترنح من الغيظ.

ـ هذه مأساة الحب والعشق، أجابني بكل برودة، يبدآن من طرفين وينتهيان من طرف واحد.

ـ هذا يعني أن حبك لي قد توقف نهائياً؟ لكنني لم أتبدّل، فأنا ما زلت كما كنت.

ـ ربما أنا الذي تغيّر، فما عدت أشعر حيالك إلا بالصداقة، وتابع: طبعاً إن قبلتِ بها.

ـ وإن لم أقبل بها؟ سألت بلهجة حاسمة وجافة.

ـ كما تريدين، سأختفي من حياتك نهائياً. أجابني محافظاً على هدوئه.

كتمت غيظي من وقع كلامه الذي لا يحتمل وحاولت الظهور بأنني أستوعب ما يقول وفكرت في أنني، ربما، استعدته إن قبلت معه بما يعرضه علي، وقلت، بصعوبة، آملة أن لا يلتقطها: «طيب يا صديقي العزيز أتمنى لك التوفيق في مغامرتك الجديدة». فأجابني:

ـ أمينة، نحن مثقفون والعلاقات في ما بيننا يجب أن تكون واضحة، والآن كأصدقاء سنظل معاً وسنلتقي، ربما، أكثر من قبل، وفي وضح النهار وليس في السر، ولهذا السبب ما عاد من داعٍ للاحتفاظ بهذه الشقة، سنتركها وننقل لقاءاتنا إلى الأماكن العامة كما يفعل كل الأصدقاء، مع العلم أنك ستظلين الصديقة المميزة.

حين سمعت كلامه هذا أدركت أنه، بالفعل، قد خرج من العلاقة، وشعرت بحزن كبير وبحسرة ممزوجة بالغضب، لكن كبريائي أنجدتني وقلت: «كما تريد، فلنتحول إلى أصدقاء». كنت في تلك الحالة كمن يترنح بعد أن قطع الأمل.

ـ كنت أعلم أنك ستتفهمين الوضع، قال مبتسماً، أنت إنسى ناضجة وذكية وأكبر من ردود الفعل الانفعالية كما عند النساء العاديات. هيا فلنتصافح ونفتتح مرحلة جديدة.

اقترب مني ومدّ يده، فما كان مني إلا أن مددت يدي فتصافحنا وقبلَني على الوجنتين وأنا أقول في نفسي: «كم هو جاهل بما يدور في دواخل الإنسى حينما تجرح مشاعرها».

16

التقيت بعيسى، في شارع الحمرا، وطلب مني أن يزورني في المساء للبحث في انتخاب المسؤول عن الخلية الحزبية. رحبت به وعدت مع طارق إلى البيت.

حوالى الساعة الثامنة، أتى عيسى، وبعده بأقل من نصف ساعة أتى هادي الذي قال، حين وقع نظره عليه: «ماذا تفعل هنا يا آدمي؟».

ـ أنا هنا في زيارة عمل، أما أنت فماذا أتيت تفعل؟ سأل عيسى مازحاً.

ـ وأنا أيضاً أقوم بزيارة عمل مهم. أجابه هادي وهو يضحك.

ـ على كل حال، سيشاركنا في اختيار المسؤول. أجبتُ عيسى.

ـ ليس له دخل في خليتنا، فليهتم بمجموعته. أجابني.

ـ الأمر محسوم، قال هادي، وهل أنسب من ليال لتسلم هذه المسؤولية؟

ـ هكذا اتفقنا، أنا أيضاً أزكّي ليال. قال عيسى.

ـ وأين ذهبتما بآراء الرفاق في الخلية؟ أجبتهما.

ـ سأقنع الجميع بالأمر إن كنت موافقة. أجابني عيسى.

ـ غداً موعد الاجتماع وسنرى. قلت ذلك لأقفل الموضوع.

ـ الآن أظن أن زيارتَك قد انتهت، قال هادي متوجهاً إلى عيسى. قالها وهو يقهقه ضاحكاً.

ـ سأبقى على قلبك. أجاب عيسى وهو يضحك أيضاً.

ـ أهلاً بكما، قلت، ماذا تشربان؟

ـ سأهتم بتحضير كل شيء، أجاب هادي وهو ينهض من مكانه متوجهاً نحو المطبخ. لكن قبل أن يدخله استدار نحونا وتابع بنبرة هي خليط من الجد والمزاح: «هيا عيسى ساعدني، أم أنك تعتقد أنني سأترككما وحدكما؟».

ـ ليسا وحدهما، قال طارق ضاحكاً، أنا هنا وأراقب كل شيء، اطمئن.

اقترب منه هادي وقبّله وهو يقول: «برافو عليك يا بطل، هيك بدي إياك، ما تخلي حدا يقرّب من خالتك ليال».

ـ بما فيهم أنت يا صديقي، أجاب طارق.

ـ يا ولد، أنت حصتي أم ماذا؟ سأله هادي.

ـ أنا حصة ليال وحدها، وكل من يقترب منها سينال نصيبه. أجاب طارق وهو ينفخ صدره.

بدأنا الجلسة وبدأ النقاش حول الحرب وممارسات الحزب، وظهر الاختلاف في الآراء بين هادي وعيسى؛ الأول يرى أن الحزب على حق في كل ما يقوم به، بينما الثاني كان ضد سلوك الحزب الذي لا يختلف عن سلوك من نسميهم الانعزاليين، وقد عبر عن رأيه بقوله:

ـ صحيح أن أهداف كل من الطرفين هي مختلفة إن لم نقل متناقضة، لكن انظر إلى الواقع، ألا ترى أنهما يتماهيان في الممارسة؟ فالقتل والقصف والخطف والـ... واحد عند الطرفين. وقبل أن يسهب في نقده قال هادي:

الحرب هي الحرب، لكن المهم هو أن نعي إلى أين نحن ذاهبون. هل تريد للمشروع الإسرائيلي أن ينجح في لبنان وأن يقسم البلد إلى دويلات طائفية؟

ـ لكن الواقع يقول إنه أصبح مقسماً، وللأسف، إنه بات مقسماً طائفياً، حتى إن مسيحيي هذه المنطقة بدأوا يتركونها إما إلى الخارج وإما إلى المنطقة الشرقية. لقد بدأت المناطق تتصفى طائفياً، ولن يبقى من مسيحيين في هذه المنطقة الغربية سوى بعض الشيوعيين المسيحيين مثلي ومثل ليال. لكن إن استمر الوضع على ما هو عليه لا أدري...

وقبل أن يتابع فكرته سارع هادي إلى القول:

ـ أمثالك ربما تركوا المنطقة الغربية التقدمية، لكن أمثال ليال سيبقون ثابتين في مواقعهم.

هنا انتقل النقاش إلى نوع من المزايدات التي حملت في طياتها تراشق العبارات ذات المعاني المبطنة بين هادي وعيسى، معانٍ تدور كلها في فلك استمالتي من قبلهما؛ كانا يجرّحان بعضهما ويكيلان المديح لي، ومع ذلك كان الجو ودياً، مما جعلني أعلق بالقول: «ما هذه العلاقة الرائعة بينكما!».

ـ انشرحي أنت، يا نرجسية. أجاب هادي.

كنت بالفعل مسرورة لهذا التخاصم بين ذكرين يحاول كل منهما أن يظهر نفسه الأفضل أمامي. كانا كديكين متصارعين حوّلاني إلى دجاجة منفوخة الريش أو إلى طاووس يستعرض ذيله أمام المعجبين. لكن ما إن انتهيا من احتساء الكأس الأولى وحُلّ تلعثم الألسن نهائياً، حتى سحب هادي من جيبه أوراقاً مطوية، وضعها على الطاولة أمامه وقال لعيسى: «الآن سأسكتك نهائياً». فتح الأوراق وقرأ بطريقة مسرحية، استعراضية: «العشق رقصاً». وتابع: «اسمع يا غبي كيف يكون العشق الحقيقي».

ـ كلنا سمع أيها المعقّد. أجابه عيسى.

ـ أنا معقد يا متعجرف وفارغ؟ أجاب هادي مبدياً استياءً مفتعلاً.

ـ نعم، معقد وفاشل، تلجأ إلى الكتابة لتغطي عجزك.

ـ اصمت واسمع. نهره هادي.

حسمتُ الأمر وقلت: «كلنا سمع، هات ما عندك». وكنت متأكدة

من أن ما عنده هو قول عني أنا، وكنت لا أزال ذلك الطاووس الناشر ذيله.

ـ أمرنا لله، سنسمع تفاهاتك إن كانت تريد ليال ذلك. قال عيسى.

بدأ هادي القراءة وهو يلفظ كل الأحرف بدقة مميزة وبصوت جهوري، مما استدعى تعليقاً من عيسى الذي اقترب مني وقال بصوت منخفض: «إنه ممثل بارع بالفعل». لكن هادي تابع إلقاءه وهو يشير إلى عيسى بأن يصمت. وحين انتهى، صفقتُ له بينما قلب عيسى شفته السفلى وقال: «وهل تعتبرين ما سمعتِه شعراً؟».

ـ جاهل، أتى جواب هادي، أنت لا تفقه معنى الشعر الحقيقي، لستَ من هذا المستوى الذي يتذوق فيه المرء المستويات الرفيعة. حين يصل المرء إلى العشق الحقيقي يأتيه الشعر طوعاً. أما أنت فلا تعرف العشق ولا تعرف الشعر.

ـ أنا أعيش الحب وأترك لغيري الكتابة عنه. قال عيسى.

ـ هادي يكتب في العشق، كما سمعت من قصيدته، وليس في الحب.

أجبتهما.

ـ والعشق هو قمة الحب. أتى جواب هادي.

ـ لا، عذراً، الحب هو غير العشق. أجبته.

ـ إنه الحب المصفَّى. أجابني مصراً على رأيه.

ـ إنه قاتل الحب الحقيقي. سارعت إلى الإجابة.

ـ كيف؟ سأل هادي مستفهماً.

ـ الحب هو أن تقبل الآخر كما هو وتحبه كآخر مختلف عنك، أما في العشق، فيُسقط العاشق على المعشوق بعضاً من هواماته، بمعنى أنه يكوّن عنه صورة على مزاجه ويعشق هذه الصورة بينما يظل الأصل خارج اللعبة. وبمعنى أوضح، إن أردت، العاشق يعشق نفسه وليس الآخر بينما المحب يعترف بوجود الآخر المختلف.

ـ أظنك، يا سيدتي تتكلمين عن الصداقة وليس عن الحب. أجاب هادي وتابع: الحب بمعناه الحقيقي هو العشق حيث يذوب الواحد في الآخر ليحولا حياتهما إلى رقص على أنغام انسجامهما.

ـ وهل العشق هو أن يتحول العاشق إلى قرد يقفز في مكانه؟ علّق عيسى وهو يضحك.

ـ تفسير سطحي terre .terre كشخصيتك التافهة. قال هادي بصوت عالٍ، فنهرته قائلة:

ـ أرجوك أخفض صوتك ستوقظ طارق. كان طارق قد تمدّد على الكنبة ونام حين بدأ هادي بقراءة شعره الراقص. فما كان من طارق إلا أن فتح عينيه وقال: «متى تذهبان؟ أريد أن أنام مع خالتي».

ـ ادخل إلى سريرك يا ولد. أجابه هادي. أما عيسى فقد نهض من مكانه استعداداً للانصراف.

ـ هيا ارحل مع ألف سلامة. قال هادي.

ـ وأنت؟ سأل عيسى.

ـ سأتابع السهرة مع ليال.

ـ لا، أجبت، إما أن تنصرفا معاً أو تبقيا معاً.

ـ إنك مغتبطة بهذا التناحر بيننا، قال هادي مازحاً، لكننا صديقان وسنبقى صديقين. اقترب من عيسى، قبله وقال: «هيا بنا، فلنترك طارق ينام مع خالته».

رحلا ودخلت مع طارق إلى غرفة النوم، استلقينا على السرير وأتى تعليق طارق: «وينك يا هاني تسمع وتشوف كيف أن الرجال تتقاتل على خالتي ليال».

ـ إنهما رفيقان وصديقان وكل ما قالاه كان من باب المزاح. أجبته.

ـ هذا كلام تقنعين به هاني وليس أنا، فالغبي يلاحظ أنهما مغرمان بك.

ـ نم يا ولد، لقد تأخر الوقت.

صمت طارق وسرعان ما غرق في النوم، أما أنا فكنت متيقظة أتساءل: «هل ألعب بالنار؟ لكنها لعبة ممتعة، وممتع أن ترى الإنسى الرجال يتراكضون حولها لنيل رضاها. وحين غفوت كنت ممتلئة بذاتي مع قرار بأن أحسم الأمر لصالح هاني الذي تربطني به علاقة ممتازة، صحيح قائمة على براعته في تلبية رغباتي الجنسية وكل متطلباتي المزاجية، لكني لست بحاجة إلى غيرها من قبل الرجل».

17

وصلتُ بيت الرفيق حيث مكان اجتماع الخلية. رأيت سيارة ليال أمام مدخل البناية: «ما زالت متحمسة، تصل قبل الوقت المحدّد». قلت لنفسي. لكن حين دخلتُ الصالون وجدتها برفقة عيسى. سررت لمنظرهما معاً، وأثنيت عليه بتعليق محبّب، ولاحظتُ انفراجاً في أسارير عيسى، بينما تجاهلت ليال الأمر.

اكتمل النصاب وبدأ الاجتماع الذي كان مخصصاً لانتخاب مسؤول جديد عن الخلية.

ـ من يرشح نفسه؟ سأل عيسى وهو رفيق قديم والكل يحترمه.

ـ أنا أرشحك أنتَ. قلت بنبرة حاسمة.

أجاب الجميع بالموافقة، لكنه شكرنا واعتذر مقترحاً ليال. امتعضتُ من اختياره، وفي الوقت نفسه فرحت به، إذ أوحى لي بعلاقة ما

بينهما، وهذا يعني أن شكوكي حول علاقتها بهادي ليست صحيحة.

ـ ما رأيك رفيقة أمينة؟ سألني عيسى، هل ترغبين أنت في...

قبل أن ينهي جملته أجبته: «أنا شخصياً لا أرغب في ترشيح نفسي ولا استلام المسؤولية لأنني كثيرة المشاغل. تعرف أنني في فريق تحرير المجلة، ثم لدي كتاباتي الخاصة التي تأخذ كل وقتي. ليال تملك الوقت، وليس لدي اعتراض على اقتراحك». تقصّدت هذا القول لأسخّف ليال وأظهر فراغها وتفوقي عليها؛ صحيح أنها أستاذة في الجامعة مثلي، لكنني أتفوق عليها بالكتابة التي تميزني. ظلت ليال صامتة، لكني قرأت الاستياء في تقاسيم وجهها، لقد فهمت قصدي لأنها ليست غبية. بالفعل لقد حققت بقولي هذا هدفين، فمن جهة دغدغت نرجسية ليال بقبولي بها كمسؤولة، لكن من جهة ثانية وضعت لها حدوداً تقف عندها وهي حدود الكتابة والإبداع اللذين هما من اختصاصي أنا. لها الخارج والمظهر، ولي الداخلي والحقيقي.

ـ ما رأيك ليال؟ سألها عيسى.

ـ إن كنتم مجمعين على اختياري، فليس لدي مانع من استلام المسؤولية. أجابت وهي تنظر إلي نظرة لم أفهم كل معانيها.

هنا صاح الجميع: «موافقون». وانتهى الاجتماع وتفرقنا من جديد، لكن عيسى وليال انصرفا معاً؛ رأيته يركب سيارتها. وقبل أن تقلع اقتربت منهما ودعوتهما لشرب القهوة عندي في البيت.

ـ لا نريد إزعاجك، ربما شغلناك عن الكتابة. أتى جواب ليال بنوع

من اللؤم الذي فرحت به، لأنه أثبت لي أن الرسالة قد وصلتها.

ـ لا إزعاج على الإطلاق، لقد قرّرت الاستراحة من العمل بعد ظهر هذا اليوم، أجبتها وكرّرت دعوتي لهما لأنني كنت أرغب في معرفة ما هي طبيعة العلاقة التي تجمع عيسى بها.

ـ كما تريد ليال، أجاب عيسى.

ومن دون أن أنتظر جوابها قلت وأنا أتوجه إلى سيارتي: «اتبعاني».

دخلنا بيتي فاستقبلنا وديع بالترحاب وهو يسأل بجدية مفتعلة: «من تكون هذه الصبية الجميلة؟».

ـ إنها صديقتي الجديدة ليال، وهي رفيقة لنا في الحزب، أجبته.

ـ أهلاً أهلاً عمو، قال وهو يحييها وتابع: «هل في الحزب من هذه النوعية؟».

استأت من كلامه هذا وأجبته: «في الحزب أجمل سيدات هذا البلد».

انتهى المزاح وجلسنا معاً، فتحمس وديع وقال: «سأحضر لكم القهوة، كيف تشربينها يا ست ليال؟».

ـ وأنا لماذا لا تسألني؟ أجاب عيسى مازحاً.

ـ أنت تحصيل حاصل، أما الآن فنرحب بليال.

أحضر وديع القهوة، جالسنا قليلاً ثم اعتذر وانصرف إلى برنامجه بعد ظهر كل يوم حيث يلتقي أصدقاءه للعب النرد. وما إن غادر

حتى أتت سهام التي فرحتْ جداً بوجود ليال عندنا، فرمت كتبها على طاولة الطعام وعانقتها وهي تقول: «ما هذه المفاجأة السارة؟» ثم جلست بالقرب منها وبدأ حوار بيننا حول دور الإنسى وأهمية تحررها من كل التقاليد والأعراف غير المنطقية.

دافعتُ عن بعض التقاليد التي لا نستطيع الخروج عليها، بينما حاولت ليال القفز فوق كل ما لا ينسجم مع العقل والمنطق. كنت أحاول أن أضع حدوداً لجنوح سهام نحو التحرر كي استمر في التحكم بها والسيطرة على تطلعاتها المنفلتة من كل قيد. لكنني لم أفلح، لأن ليال كانت توافق على طروحات سهام وتشجعها، مما أوجد بينهما نوعاً من التواطؤ الخفي الذي أزعجني؛ «هل تأخذ مني ابنتي بعدما أخذت مني حبيبي؟».

ـ الموضوع معقّد وطويل، قلت، وتابعت متوجهة إلى سهام التي كانت منسجمة جداً مع النقاش: «عليك إتمام واجباتك المدرسية، هيا إلى غرفتك سنتابع النقاش لاحقاً».

انسحبت سهام على مضض، وتابعنا الحوار، لكنني تمكنت من نقله إلى حيث أريد، وتوجهت إلى عيسى متجاهلة ليال: «إنني مدعوة إلى ندوة في القاهرة حول موضوع النقد الأدبي، وقد اخترت كتابة دراسة عن جبران وميخائيل نعيمة، فما رأيك بهذا الاختيار للكلام عن الأدب المعاصر؟».

ـ اختيار ممتاز، أجاب عيسى باقتضاب كأنه لا يود الغوص في هذا الموضوع.

لكنني أصررت وحاولت عرض ما توصلت إليه وأنا أتقصد محاورته وحده، ومن وقت لآخر ألتفت إلى ليال التي كانت صامتة تصغي

إلينا وهو أمر أفرحني لأنني وضعتها خارج الحلبة بعد أن كانت قد احتلتها في حوارها مع سهام. لكن عيسى أقفل الحوار قائلاً: «أنا لا أفهم كثيراً في النقد الأدبي، وأوافق على كل ما قلته»، ثم نظر إلى ليال وسألها: «هل نرحل؟».

ـ نهضت ليال بسرعة وقالت: «علي الانصراف لأن الوقت قد تأخر». استودعاني وانصرفا وأنا أردّد لليال: «لا تتأخري في المجيء إلينا، أنتظرك».

كنت بالفعل أريد أن تأتي لأتمكن من وضعها دائماً تحت نظري وأن أراقب منحى وتطور علاقتها بهادي أو عيسى، مع شعور عميق بأنها طيبة وصادقة، وهذا ما يفسر فجاجتها أحياناً.

18

ـ والآن إلى أين؟ سألني عيسى حين ركبنا السيارة.

ـ كل منا إلى بيته، سأوصلك وأمر ببيت أخي لأصطحب طارق وأعود معه إلى البيت. أفضل أن أكون في بيتي إذا ما فاجأنا تجدّد القصف الذي، كما تعرف، يكون أحياناً عشوائياً ويطال كل الأماكن من دون أن يحقق أهدافاً سوى إرعاب الناس المساكين مثلنا.

ـ ما زال الوقت باكراً، وهم لا يبدأون هذا القصف قبل الساعة الثامنة كما عوّدونا.

ـ يا لها من عادة لن أتمكن يوماً من التآلف معها. أجبته.

لكن عيسى أصر على موقفه وسألني:

ـ هلّا شربنا كأساً في الحانة التي زرناها في المرة الماضية؟

ـ في هذه الحالة، أفضل أن نشرب كأساً عندي في البيت، ما رأيك؟

ـ كما تريدين، أنتِ الآن رئيسة الخلية وعلينا تنفيذ أوامرك.

ـ هذا كلام في النظام، قلت وتابعت سائلة: لكن بالمناسبة، هل أعجبك جواب أمينة حين رفضت تسلم المسؤولية.

ـ أمينة مسكينة كي لا أقول معقدة، فهي متمسّكة بهذا النقد الأدبي ذات الطابع البنيوي لأن لا وجود لها إلا به أجابني وهو يهز رأسه يمنة ويسرة.

ـ إنه مجال تميزها وأتفهّم تمسكها به. أتى تعليقي.

ـ صحيح، أنتن النساء تفهمن بعضكن أكثر منا، لكن ما رأيك بابنتها سهام؟

ـ إنها ممتازة وفهيمة. أجبته بسرعة وعفوية.

ـ لا بل هي أكثر فهماً من أمها. أجابني.

ـ لا أظن أن ما قالته أمينة يعبر حقيقة عن آرائها، لكنها مضطرة لذلك كي تلجم ابنتها وتوعيها وتضبطها، فما زالت صغيرة على هذا التمرد. أوضحت له.

ـ لكن سهام جارتك في كل طروحاتك، وهذا ما أزعج أمينة ودفعها إلى إبعادها بحجة الدرس. لكني أشتم رائحة غير واضحة.

ـ ماذا تقصد؟ سألته مستنكرة.

ـ سهام معجبة بك كثيراً وهذا يطرح عندي بعض الشكوك.

ـ من أي نوع؟

ـ لا تتظاهري بالغباء، لقد فهمتِ ماذا أقصد. قال ذلك عيسى وهو يبتسم، فشعرت بضرورة وضعه عند حده وعدم السماح له بأن تشطح مخيلته إلى أمور بعيدة كل البعد عن الواقع وقلت بلهجة جادة:

ـ أنتم الرجال دائماً سيئو النية وكل صداقة بين إنسيين تتهمونها بالشذوذ. سهام شابة متحمسة ووجدت عندي صدى لما تفكر به، هذا كل ما في الأمر.

ـ سأتركك على بساطتك. كان تعليقه المقتضب.

وصلنا إلى بيت أخي فأوقفتُ السيارة وانتهى الحوار.

لكن ما إن وصلنا إلى البيت حتى أتى هادي وهو يحمل معه بعض المأكولات وزجاجة من الوسكي.

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، صاح هادي بصوت عالٍ حين رأى عيسى، من الذي أتى بك إلى هنا؟

ـ وأنتَ؟ سأله عيسى.

ـ أتيت لأحتفل مع ليال بانتخابها رئيسة للخلية.

ـ وما دخلك أنت بالموضوع؟ سأله عيسى بنبرة عالية.

ـ دخلي أنني أنا من اقترحها. أجاب هادي مرفقاً إجابته بضحكته المعهودة.

ـ لم تحتج إلى اقتراحك، كان الجميع موافقين على ترؤسها الخلية. قال عيسى.

ـ بمن فيهم أمينة؟ سأل هادي وكأنه يسائل نفسه.

ـ وقد دعتنا إلى شرب القهوة في بيتها. أجبته.

ـ ممتاز، أرى أنكما ستصبحان صديقتين؟

ـ وهو كذلك، ما المانع؟ سألت مستغربة.

ـ ليس من مانع إذا تفهمتْ هي الوضع وقبلته. أجابني بصوت منخفض.

ـ أي وضع؟ لا أفهم. سألته مستفسرة.

ـ ألا تفهمين؟ لماذا تتظاهرين بالغباء؟ صرخ بوجهي.

ـ إنها لا تفهم لأنها لا تريد أن تفهم، أفهمت أنت؟ قال عيسى.

ـ أنت اصمت ولا تتدخل في ما لا يعنيك. أجاب هادي وهو يضع يده على فمه.

ـ الأمر يعنيني أكثر مما تتصور، اسأل ليال.

ـ أمركما معاً لا يعنيني، أجبتهما، فأنا من أختار أصدقائي، وأنا من أحدد طبيعة علاقاتي بالآخر.

ـ لكن لا تنسي أن للآخر دوراً أيضاً في تحديد مسار العلاقة وطبيعته، قال هادي وتابع: لا أنصحك بالركون إلى طيبة قلبك، فالآخر يظل لغزاً علينا اكتشافه كل يوم وأحياناً كثيرة ما نفاجأ.

ـ إن كانت المفاجأة حسنة تتوطد علاقتي به، وإن كانت سيئة أطوِ الصفحة وأتابع طريقي. أجبته.

ـ وماذا تفعلين بالالتباس وعدم الوضوح؟ قليلون هم الواضحون بينما الأغلبية الساحقة من الناس هم غير واضحين حتى مع أنفسهم.

ـ أحاول أن أتعامل مع من هو واضح معي ومع نفسه. أجبته بكل حزم.

ـ لكن اللعنة هي حين يكون الآخر واضحاً مع نفسه وملتبساً معك، قال هادي.

ـ من الصعب أن يكون الإنسان واضحاً مع نفسه وملتبساً مع الآخر، أجبته.

ـ ولهذا السبب أقول إنك طيبة القلب، فكثيراً ما يظهر لك الآخر أنه يتقبلك ويريد صداقتك، بينما يضمر أذيتك وإلغاءك.

ـ وهذا ما أسميه عداقة وليس صداقة. أجبته.

ـ توليف موفّق، أعترف لك به يا صديقتي، وتابع متوجهاً إلى عيسى: ألا توافقني الرأي يا عديقي العزيز؟

ـ وهل أنت أقلّ عداقة مني؟ أجابه عيسى.

ـ لا، وأعترف بأنني أود إلغاءك كلياً من هذا البيت. قال هادي مرفقاً قوله بضحكة مدوية.

ـ وهذا بالضبط هو شعوري نحوك. سارع عيسى إلى الإجابة.

ضحكنا جميعاً وانتهت السهرة بأن انصرفا وذراع كل واحد منهما يلف كتفي الآخر.

19

انصرف عيسى وليال وأمسيت وحدي في الصالون، وحدي أفكر بهذه الليال التي نبتت فجأة، وفجأة دخلت الحزب والتفّ حولها الشباب. كم هم سخفاء رجالنا، يركضون وراء المظهر ويتجاهلون الأساس. والسيدة المصونة لا تكتفي باستمالة الرجال وحدهم، بل استحوذت على إعجاب سهام أيضاً، لكن لن أتركها تفعل، سأستعيد سهام وأردها إلى الصواب، إلى رأيي أنا.

ـ سهام، ناديت بصوت عالٍ، ألم تنتهي بعد من دروسك؟

ـ بلى، قالت سهام وهي تخرج من غرفتها، لكنني أقرأ.

ـ ماذا تقرئين؟

ـ «العاشق» لمرغوريت دوراس.

ـ ممتاز، أحب هذه الروائية، كتاباتها صادقة وتعبّر بأمانة عن المشاعر الإنسانية الفعلية.

ـ حين يكون الإنسان صادقاً مع نفسه يستطيع أن يلتقط كل تلاوين المشاعر. علّقت سهام.

ـ وما رأيك بجلستنا مع ليال وعيسى؟ سألتها.

ـ عيسى إنسان رائع. أجابتني سهام.

حدستُ أنها تتجاهل ليال عن قصد كي لا تغيظني فسألتها: «وليال»؟

ـ تبدو رائعة، لكنني لا أعرفها جيداً كما أعرف عيسى.

ـ هل تظنين أنها مقتنعة بما تقول؟ سألتها.

ـ لا أدري، لكن ما قالته هو مقنع جداً، ويبدو أنها تعيش قناعاتها. قالت بلهجة باردة. لكنني تابعت أسئلتي:

ـ هل توافقين على كلامها في الحب؟

ـ بكل تأكيد. أتى جواب سهام القاطع.

ـ وهل تعتقدين أنها تمارسه بالفعل، أم أنها تنظّر كي تلفت الانتباه إلى طروحاتها المتطرفة أحياناً كثيرة.

ـ لا أعرف شيئاً عن حياتها كي أحكم سلباً أو إيجاباً، وآراؤها ليست متطرفة كما تصفينها.

ـ لكنني لا أظنها صادقة، بل تتباهى بإطلاق الأفكار المثيرة لتصدم الآخر وليس اقتناعاً بها. قلت ذلك لأمتحن مشاعر سهام الحقيقية نحو ليال.

ـ ليست بحاجة إلى ذلك، فهي تشد الانتباه حتى ولو صمتت. أتى جوابها بكل برودة.

ـ دعينا من المظهر البراني، أنا أتكلم في العمق الداخلي للإنسان وليس في واجهته الخارجية التي ستنهار، حتماً، مع مرور الزمن.

ـ وماذا تعرفين عن عمقها الداخلي كي تحكمي أنها غير صادقة؟ سألتني.

ـ لو كانت صادقة بحبها لعشيقها كما تدعي، لما عملت على استمالة رف من الرجال حولها. قلت مبدية اشمئزازي.

ـ هناك الحب وهناك الصداقة والأمران مختلفان. أوضحت سهام، فهي تحب حبيبها وتصادق من تريد من إناث أو ذكور.

ـ وهل الصداقة بين رجل إنسي هي صداقة بريئة؟ سألتها من دون أن أتوقع جوابها الذي أتى قاطعاً:

ـ أليس لديك أصدقاء رجال؟ أعرف العديد منهم، فلماذا صداقاتك معهم هي بريئة وصداقاتها هي ليست بريئة؟

ـ لا أقول ذلك، فقط أطرح سؤالاً. لكن كيف تبدو لك علاقتها بعيسى؟ ألم تلاحظي أنه معجب، لا بل مغرم بها؟

ـ أظن ذلك، وعلى كل حال إنهما منسجمان كلياً في التفكير

ويليق أحدهما بالآخر.

فرحت بكلام سهام لأنه بدّد قليلاً من شكوكي حول علاقة ليال بهادي، لكنني قلت:

ـ وهذا من باب الدهاء، فهذا الانسجام في التفكير الذي تتكلمين عنه بينهما ليس انسجاماً فعلياً، لقد لاحظتُ أنها تحاول التماهي به كي يزيد إعجابه بها، وهي آلية تلجأ إليها الإنسى حين تكون فارغة وليس لديها آراؤها الخاصة.

ـ ألا تعتقدين أنك تظلمينها قليلاً، قالت سهام، مع أنني لاحظت أنها تريد التقرب منك وقد مدحتك مرات عديدة.

ـ لم تقل إلا الحقيقة في مديحها لي، أم أنك نسيت أن أمك هي إنسى مهمة؟

ـ وأهم أم في الدنيا، قالت ذلك وهي تدنو مني لتعانقني وتقبلني.

فتح الباب ودخل وديع وانتقلنا إلى أجواء أخرى.

20

حان وقت الجمعية العمومية للحزب وحُدّد الموعد والمكان. في الزمن المحدد توجهت إلى ذلك الفندق وكان كثيرون قد سبقوني إليه. أخذت مكاني وبدأنا نستعد لكي نستمع إلى الأمين العام. لم ألحظ وجود أمينة وهادي بين الحضور. لكن ما كدت ألاحظ ذلك حتى دخلا وتوجها معاً إلى مقعدين فارغين. حين رأتني أمينة، رفعت يدها وحيتني من بعيد، وهكذا فعل هادي. فرحت بهما وقلت لنفسي: «آمل أن تعود علاقتهما كما كانت وكما يعرفها الجميع».

اكتمل النصاب وبدأت الجلسة. اعتلى الأمين العام، محاطاً بأركان الحزب، المنصة، حيّا الحاضرين وعلا التصفيق الذي ما إن هدأ حتى بدأ الكلام الذي طال لأكثر من ساعة ونصف الساعة، فالأمين العام متكلم بارع وصاحب منطق متماسك. انطلق من تحليل الوضع

الدولي ثم انتقل إلى الوضع الإقليمي ومنه إلى الوضع الداخلي وأسهب في شرح قناعات الحزب وآرائه حول الحرب الأهلية التي نخوض غمارها ضد الحلف الإمبريالي العالمي وليس فقط ضد الأطراف الداخليين. وقد لاحظتُ أنه ميز بين ما هو ضرورة نظرية وواقع سياسي يستوجب أخذه بالاعتبار.

كنت خلال الاجتماع جالسة بالقرب من عيسى الذي قرأت الاستياء على وجهه حين تطرق الأمين العام لهذا التمايز المبرّر بضرورة التحالفات المحلية وبالاعتبارات السياسية. وحين أنهى الأمين العام كلامه فتح باب الحوار فكان أول المحاورين الدكتور عيسى الذي أتى سؤاله على الشكل التالي: لو كنت أنا مكان الأمين العام لقلت كذا ولفعلت كذا. وهو تماماً ما يناقض ما أسهب في شرحه الأمين العام الذي أتى جوابه على الفور:

ـ لو كنت أنا مكان الدكتور عيسى لما قلت إلا الذي تفضلت به الآن، لكنني في موقع سياسي يحتم علي قول ما قلته سابقاً وهو الموقف الصحيح نظراً للظروف الراهنة.

لم يقتنع عيسى بجواب الأمين العام، لكنه آثر الصمت وجلس مكانه وهو يقول بصوت منخفض كأنه يسر به إليّ: «الكلام عبث مع هكذا عقلية».

ـ لكنك على حق، أجبته، لأن كلام الأمين العام لم يقنعني كلياً. أجبته بصوت منخفض أيضاً.

شارك بعض الرفاق في النقاش، وكان بينهم الرفيق هادي الذي دافع عن وجهة نظر الأمين العام وعن سياسة الحزب وكأنه يرد مباشرة على ما طرحه عيسى الذي علق على كلامه بهز الرأس فقط. انتهى

الحوار الذي دام أكثر من ساعة وانفضّ الاجتماع بعد أن تُليت المقررات.

ما إن انتهى الاجتماع وهممنا بالانصراف، حتى رأيت هادي يتوجه نحوي. تجاهلته وتابعت سيري نحو سيارتي وأنا أسمع خطواته ورائي. أسرعت الخطى وركبت السيارة وأدرت محركها استعداداً للرحيل. لكنه اقترب مني وأشار لي بيده أن أفتح النافذة. فعلت، فاتكأ عليها وسألني: «إلى أين تذهبين؟ لماذا كل هذه العجلة؟».

ـ إلى البيت، ولست مسرعة إطلاقاً. أما أنت فلماذا تركت أمينة؟

ـ لقد أصرت على أن تأتي معي ولم أرد إحراجها.

ـ الأمر لا يعنيني، عد إليها. أجبته.

ـ سأعود وأرافقها إلى بيتها، لكنني آتٍ إليك بعد ذلك.

ـ إنني مشغولة، أريد إكمال الدراسة التي أوقفتها حين كان طارق في زيارتي.

ـ وهل غادر؟ سألني وهو يبتسم.

ـ البارحة، لقد انتهت العطلة وعاد إلى مدرسته وأهله.

ـ سأزورك الليلة وأطّلع على عملك.

قال ذلك وانصرف من دون أن ينتظر جوابي.

في البيت كنت أعيد قراءة الدراسة وأقوم ببعض التصحيحات حين قُرع الباب وأتى هادي، فأدخلته مباشرة إلى غرفة المكتب حيث

كنت أعمل، فأخذ الأوراق من أمامي وبدأ يقرأها بعد أن طلب مني تحضير كأسين من الوسكي.

ـ أعتذر، لن أحضر الوسكي، بل الشاي. قلت له بحزم.

ـ ولماذا هذا التقشف؟ سأل ضاحكاً.

ـ ليس تقشفاً، بل عدم رغبة. أجبته بكل جدية.

ـ كما تريدين، افعلي ما تشائين واتركيني أقرأ النص.

تركته وأحضرت الشاي وجلست أنتظر حتى أنهى القراءة وتوجه إليّ قائلاً:

ـ الدراسة جيدة، لكن لدي بعض الملاحظات التي إن أخذت بها أصبحت ممتازة.

ـ وما هي ملاحظاتك هذه؟

بدأ بتقليب الصفحات وبإملاء الملاحظات طالباً مني تغيير بعض الآراء. استمعت إليه قليلاً ثم قلت:

ـ احتفظ بملاحظاتك إلى ما بعد نشرها لأنني لن أغير حرفاً واحداً مما كتبت وأنا مقتنعة جداً بما قمت به.

ـ ملاحظاتي هي من باب المساعدة وليست أسْتَذَة كما ظننت أيتها المتعجرفة.

ـ لست متعجرفة، لكنني أرفض أن أكتب غير قناعاتي. بعد أن تنشر الدراسة، لك الحق بأن تفنّدها كما تشاء، لكن ليس الآن.

ـ غيرك يتمنى أن أقرأ له ما يكتب وأن أصحح له ما هو بحاجة إلى تصحيح. قال بكل اعتزاز.

ـ هذا غيري وليس أنا. أتى تعليقي.

ـ مغرورة، لكنك رائعة ولهذا السبب أحببتك و... سحب من جيبه أوراقاً فتحها وقرأ: «الحب أنت». وتابع قراءة قصيدته التي كانت واضحة المعاني ولا يمكن التذرع بعدم فهمها. وقبل أن ينهي قراءته قلت:

ـ أرجوك لا تتابع، أنا أبغي الصداقة من علاقتنا وليس الحب، وأنا واضحة مع نفسي لأنني لا أشعر حيالك إلا بالود والمعزة والاحترام. ثم أنت عشيق أمينة، كلنا نعرف ذلك ولا أريد أن أدخل بينكما.

ـ أمينة انتهت من حياتي، ولست أنت السبب في ذلك، فلا تشعري بالذنب. قال وهو يقترب مني.

ـ ليس شعور بالذنب إطلاقاً، فلو أحببتك لما كنت سألت عن أي شيء، لكنني، بكل صراحة، لا أحبك.

ـ وهل تحبين عيسى؟ سأل.

ـ وعيسى أيضاً صديق.

ـ وتحبين هذا التافه هاني الذي ليس له علاقة بعالمك وأجوائك وأفكارك و...

ـ أحب هاني، وما يقدمه لي يكفيني لأنني لست بحاجة إليه بأكثر من ذلك.

ـ فقط تبغين العلاقة الجسدية من الرجل؟ أين ذهبت بالتكامل والانسجام ووحدة التفكير والأهداف والتطلعات وكل ما يجب أن يجمع بين محبين؟ سأل بتعجب.

ـ يا عزيزي هادي، الحبُّ لا يُفتعل، فإما أن يكون أو لا يكون، إنه ليس بفعل إرادي، هو شعور يعصف بك من دون أن تعلم كيف ولماذا، وما عليك إلا مجاراته والقفز معه إلى حيثما يأخذك. هذا مع العلم أنك ربما استفقت يوماً واكتشفت تفاهته، حينذاك تتخلى عنه.

ـ ألم تستفيقي بعد من علاقتك السخيفة بهاني؟ سألني مستغرباً.

ـ يبدو أنني لم أستفق بعد. أجبته بكل هدوء.

ـ لكنك لم تكتشفي بعد الحب الحقيقي الذي ينقلك إلى عوالم أخرى ويجعلك تحلّقين في أجوائه الرحبة. لا تعرفين معنى الحب، أنت جاهلة أو أنك تتدلّلين لكي تثيريني أكثر. دعيني أعلمك كيف يكون العشق.

قال ذلك واقترب مني أكثر وحاولي تقبيلي على ثغري، فأبعدته وصحت به: «من سمح لك بذلك؟».

ـ العشق لا يستأذن أحداً ليعبّر عن ذاته.

ـ هذا إن كان الآخر عاشقاً أيضاً. صرخت به.

ـ صحيح أنك سخيفة. أتى تعليقه المباشر.

استفزني كلامه وأجبته: «السخيف هو من يفرض نفسه على الآخر وهو يعلم أن هذا الآخر يرفضه».

ـ أنت عاجزة وأصغر من عظمة الحب، قال بغضب، ثم توجه نحو أوراقه التي كانت لا تزال على المكتب، رفعها بين يديه ومزقها بحركة مسرحية وهو يقول: «إنك لا تستحقين الشعر لأنك لا تفهمين معنى الحب».

أمام هذا المشهد لم أجد سوى الضحك مخرجاً، فضحكت وقلت له: «أيها الأستاذ في الحب، اذهب إلى حبيبتك أمينة وتعلّم ألا تفرض نفسك على أحد».

ـ مئات النساء يتمنين أن أحبهن، لكن يبدو أنني أخطأت في اختياري.

ـ أتمنى لك حسن الاختيار في المرات القادمة.

ـ لم أخطئ مرة واحدة في حياتي. أجاب متحدياً.

ـ هناك دائماً المرة الأولى التي أتمنى لك ألا تتكرر.

ـ لن تتكرر، كوني مطمئنة. أما الآن فأستودعك.

ترك أوراقه الممزقة على الطاولة ورحل. وجلستُ أفكر بالجرح الذي يشعر به الرجل حين ترفضه الإنسى، يصبح مخصياً ويفقد كل ذكورته فيتحول إلى ديك يريد إثبات رجولته بشتى الطرق ويحاول أن يرمي من رفضته بكل الصفات الرخيصة علّه ينقذ نفسه من الهوة التي رمته فيها. أما الغريب في الأمر فهو أنه ليس من اختلاف بين الرجل الجاهل والرجل المثقف في هذه الأمور؛ ردود فعلهم هي واحدة. أسفت لما آلت إليه علاقتي بهادي؛ كنت أجد فيها بذور صداقة يمكن أن تكون رائعة، لكن، لسوء الحظ، يبدو أن الصداقة

بين الرجل والإنسى ليست ممكنة. هل هي ممكنة بين أبناء الجنس الواحد؟

21

هل يفقد الرجل عقله واتزانه حين يعشق؟ تركني هادي على مرأى من كل الرفاق وهرول وراء ليال ووقفت كالبلهاء أنتظر عودته. كابرت وأظهرت أمامهم أنني أنا من أرسله لكي يحثها على إتمام الدراسة المطلوبة منها للمجلة. هز عيسى برأسه، تقدم مني وهو مغتاظ أيضاً وسألني: «هل أوصلك يا رفيقة؟».

ـ شكراً، لقد أتيت مع هادي وسأعود معه، لن يتأخر. قلت ذلك وأنا أحاول أن أتحايل على نفسي وعليه بافتعال الابتسامة.

ـ حتماً سيعود، لكن لو كنت مكانك لما انتظرته. قال عيسى.

لن أنسى، ما حييت، تلك اللحظات وتلك الطعنة التي شعرت بها تخترق قلبي، لكنني تمالكت ذاتي وأنقذتني عودة هادي السريعة.

ـ هيا فلنرحل، قال حين عاد.

ركبتُ إلى جانبه في سيارته وكنا صامتين. بعد قليل قطع الصمت وسألني: «ما رأيك بالاجتماع؟». كنت في عالم آخر حين سمعت سؤاله وأجبته بانفعال: «وما رأيك بركضك وراءها كطفل أرعن؟».

ـ لقد اتفقنا على أننا أصدقاء، ولا يحق لك أن تحاكمي سلوكي، فأنا المسؤول عنه.

ـ لكنك أحرجتني أمام الرفاق لأنني وقفت كالبلهاء أنتظرك، بينما أنت تحادث الست المصون. ماذا كنت تريد منها، وهل الأمر بهذه الضرورة ولا يتحمل أي تأجيل؟ أم أنك ذهبت إليها لتمهد الطريق أمام زيارتها في المساء؟

ـ بكل بساطة سألتها إن كانت قد أنجزت الدراسة، وتعلمين أن العدد على وشك الظهور. أجابني مفتعلاً البراءة.

ـ حجة واهية. قل لي بكل صراحة، هل تحبها؟ صرخت به.

ـ إن كنت تسألينني كصديقة فسأجيبك كصديق وأقول: نعم أحبها.

ـ أنزلني هنا، صرخت به مجدداً، وتقولها بكل وقاحة يا سافل؟ تحب هذه القحبة التي لا تترك أحداً من شرها؟ لكنني سأشمت بك حين تعلكك وترميك كالكلب.

ـ اطمئني، لن أعود إليك إن رمتني كالكلب، لأن ما كان بيننا قد انتهى والزمان لا يسير إلى الوراء، لكنها لن ترميني أجابني بكل ارتياح.

ـ إن لم تبعدك عنها، تكن بالفعل قحبة وصيادة رجال، وأنتم

كالبلهاء تؤخذون بالتفاهات. إن لديها عشيقاً تعترف به أمام الجميع فماذا تريد منكم أنتم؟ أنت وعيسى وربما غيركما؟

ـ أفرغي غضبك إن كان ذلك يريحك، لكنه لن يغير شيئاً. أما الآن فقد وصلنا، إلى اللقاء.

ترجلت من سيارته، خبطت الباب بقوة وتوجهت نحو مدخل البناية من دون أن أنظر ورائي وقد سمعت صوت سيارته تبتعد. صعدت إلى البيت وأنا غاضبة، ومن حسن حظي أني لم أجد أحداً فيه. رميت أوراقي ومحفظتي على الطاولة واستلقيت على السرير وأنا أرتجف: «الوغد، يقولها بكل صراحة ولم يحسب لمشاعري أي حساب. كم أتمنى أن ترميه كالكلب ليعرف قيمته هذا الغبي».

فتح الباب وأتت سهام وسمعت صوتها تنادي: «ماما أين أنت؟»

ـ هنا في غرفتي تعالي. أجبتها

دخلت الغرفة وسألتني مما أشكو ولماذا أنا ممددة في مثل هذا الوقت.

ـ لا أشكو من شيء، لقد عدت للتو من اجتماع أتعبني قليلاً.

ـ اجتماع حزبي؟ هل رأيت ليال؟ ولماذا لم تأت معك؟ سألتني.

ـ لقد انصرفت بسرعة قبل أن أتمكن من دعوتها.

ـ فلنتصل بها. قالت وهي تتوجه نحو الهاتف.

ـ لا، وانصرفي أنت إلى دروسك، ليال ليست من جيلك. أجبتها بكل حزم.

تركتني ودخلت غرفتها ونهضت أنا من السرير وجلست في الصالون أحاول عبثاً القيام ببعض القراءات. كنت مسكونة بما سمعته من هادي، وحين أتى وديع يبدو أنه قرأ التوتر على وجهي فسألني إن كنت أشكو من شيء.

ـ أنا في أحسن حالاتي. أجبته مفتعلة الابتسامة.

لم يعلّق وجلسنا نتكلم بأمور عادية لأكثر من ساعة حين خرجت سهام لتسألني عن موضوع يتعلق بالفيلسوف سارتر. لم أستطع إجابتها بشكل أكيد، فقالت: «سأتصل بعمو هادي لأسأله».

فرحتُ باقتراحها لأنني كنت أود أن أعرف إن كان هادي في البيت، فوافقتها الرأي واتصلتْ، وإذا بأحد أولاده يجيب: «حين عدت من المدرسة، لم أجده ولا أعرف أين هو».

ـ لم أجده، ماذا نفعل الآن؟ أنا بحاجة إلى جواب لأكتب فرضي. سألتني سهام.

ـ اتصلي بليال. قلت ذلك بسرعة لأنني كنت متأكدة أنه عندها. وتابعت: أنا سأطلبها.

أخذتُ سماعة الهاتف من يد سهام وطلبت بيت ليال وردّتْ مرحبة بي.

ـ سأعطيك سهام لتسألك عن موضوع معين، ثم أكلمك.

أنهت سهام مكالمتها وأخذت السماعة من يدها من جديد لأتابع الحديث مع ليال.

ـ ماذا تفعلين؟ سألتها.

ـ أنقح الدراسة وقد انتهيت منها.

ـ ممتاز، إن انتهيت منها فتعالي نكمل السهرة معاً. قلت ذلك لأعرف إن كانت وحدها في البيت.

ـ أرغب في ذلك، لكنني متعبة وأريد النوم باكراً.

جوابها لم يشفِ غليلي. هل هو معها وتحججت بالتعب؟ من أين لي أن أعرف؟ لكن ماذا سيفيدني إن عرفت وقد اعترف لي بكل صراحة بأنه يحبها.

ـ كما تريدين. أجبتها، سآخذ منك الدراسة غداً في الجامعة لأقرأها

قبل نشرها لأنني، كما تعلمين، أنا في هيئة تحرير المجلة.

كنت أتوقع منها أن تقول لي إن هادي قرأها، لكنها لم تفعل بل قالت:

ـ أنا غداً لن أذهب إلى الجامعة، فما رأيك لو زرتني في بيتي، أنا لا أسكن بعيداً عن الجامعة.

كنت أعرف أين تسكن، لكنني تجاهلت الأمر وأخذت العنوان منها على أمل أن نلتقي في الغد.

في تلك الليلة استفاقت كل طاقتي الجنسية ولأول مرة أنا من طلب من وديع أن يضاجعني. كنت كمن يريد الانتقام من ذاته ومن الآخر، فإن كان هو معها فأنا لن أكون وحدي وسأمارس جسدي

مع غيره وبملء إرادتي وليس كما كان يحدث عادة بيني وبين وديع حيث كنت أنام معه وأفكر بهادي، أمارس معه ما يطلبه فقط لأسكته عني وأرتاح. استغرب وديع الأمر لكنه قام بدوره على أحسن ما يرام وباعتزاز، إذ شعر بأنه ما زال مرغوباً به، وفي الصباح كان هو من يقدم لي القهوة.

22

استفقت على يوم ماطر، فلازمت البيت وأعدت قراءة الدراسة التي سأسلمها لأمينة بعد الظهر. أصلحت كتابة بعض الأحرف كي تسهل قراءتها وغرقت في قراءة كتاب من كتب هادي التي لم أكن قد أطّلعتُ عليها بعد. شدتني القراءة وأمضيت كل ذلك النهار مع أفكار هادي التي تنساب بإتقان منطقي صارم وممتع لمن يتمتع بفكرٍ رياضي.

في تمام الساعة الخامسة قرع الباب ودخلت أمينة وهي تلعن الشتاء والمطر.

ـ هذه أيامه: قلت لها وأنا أقبلها.

ـ أنت تستمتعين به لأنك في البيت، أما من يتجول فلا يستمتع إطلاقاً. أجابتني بتأفف.

تناولت منها مظلّتها، وضعتها، وهي مفتوحة، في المطبخ وسألتها: «أين نجلس؟ في الصالون أم في المكتب؟».

ـ في المكتب، طبعاً تكون الجلسة أكثر حميمية.

دخلنا المكتب وأول ما لاحظتْه هو الدراسة فعلقتْ: «تبدو دسمة».

ـ حوالى الأربعين صفحة بخط اليد. أجبتها.

ـ وهذا يعني حوالي العشرين في المجلة، قالت وهي ترفع الأوراق بين يديها.

ـ سنعود إلى الدراسة، أما الآن ماذا تشربين؟ سألتها قبل أن نجلس.

فكرتْ قليلاً ثم قالت: «أشرب الشاي، ففي هذا الطقس هو أفضل من القهوة».

ـ وهل تفضلينه على الطريقة الأوروبية أم على الطريقة الشيعية الجنوبية؟

ـ ومن أين لك أن تعرفي الطريقة الشيعية الجنوبية؟ سألتني أمينة بانفعال.

ـ البركة بالرفيق أحمد، لقد علمني هذه الطريقة.

ـ تقصدين هادي؟ وهل أتاك بالعدة؟

ـ بكل تأكيد.

ـ هذا ما يفعله مع كل أصدقائه، أجابتني كأنها تحط على عيني،

وتابعت: لكنني أفضل الطريقة العادية البسيطة.

ـ وأنا أيضاً، أجبتها وأنا أتوجه إلى المطبخ كي أقفل الموضوع الذي، يبدو أنه أزعجها.

ـ وماذا تقرئين في هذه الفترة؟ سألتني بعد أن جلسنا معاً نشرب الشاي ونأكل بعض الحلوى.

ـ كنت، في هذه الفترة مشغولة بكتابة الدراسة، فلم يتسنَّ لي أن أقوم بقراءات جديدة، أما اليوم وقد انتهيت من العمل فقد بدأت بقراءة كتاب هادي حول الصراع الطبقي الذي أهداني إياه منذ فترة.

رفعت الكتاب بين يديها وقرأت الإهداء ثم توجهت إليّ وقالت: «هل ترسمين»؟ كان الإهداء يأمل بالتلاقي بين حدة الكلمات وحدية الخطوط التي تشكل اللوحة.

ـ نعم وهذه اللوحات التي تزين البيت هي من رسمي أنا. أجبتها وأنا أشير بيدي إلى اللوحات.

ـ لم أعلم ذلك، قالت وهي تنهض من مكانها لتتأمل اللوحات المعلقة على الجدران. لكنها لم تعلق بكلمة واكتفت بالصمت، فما كان مني إلا أن سألتها: «كيف تجدين رسمي؟»».

ـ لا بأس به، لكن ينقصه التكنيك، إنه رسم منفلت، يجمع بين مدارس عديدة من دون أن يركز على واحدة منها.

ـ وهذا ما يميزه بنظر هادي. أجبتها.

ـ لكنه لا يفهم بالرسم. قالت بنبرة متوترة، وتابعت: لقد تأخر الوقت وما زال الطقس عاصفاً، سآخذ الدراسة وأنصرف.

ـ لكن أرجوك أن تنتبهي إليها لأنها النسخة الوحيدة المنقحة والمصححة والكاملة. كل ما لدي عداها هو أوراق وأفكار مبعثرة.

ـ لا تخافي، إنها في أيادٍ أمينة. أجابتني وهي ترفع الأوراق عن المكتب.

ـ هل أضعها في كيس بلاستيكي؟ فليس لدي ما يسمونه كبّاساً كي أجمع أوراقها.

ـ لستِ بحاجة إلى أي شيء، فسيارتي على مدخل البناية. قالت ذلك أمينة، حملت الأوراق وانصرفت.

في صبيحة اليوم التالي الذي كان لا يزال ماطراً، نهضت باكراً لأحضر نفسي للذهاب إلى الجامعة، وحين خرجت من باب البناية رأيت ما لم أكن أتوقعه على الإطلاق؛ كانت أوراق دراستي منثورة في الباحة وكلماتها شبه ممحاة من كثرة المطر. تجمدت مكاني للحظة كي أستوعب المشهد ثم حاولت لملمة الأوراق المبلّلة وأنا أشتم أمينة والساعة التي زارتني فيها وقد مرّ في ذهني أنّ عليّ الآن مكابدة كتابتها من جديد. لعنت أمينة ألف لعنة ولعنت نفسي وعدت مباشرة إلى البيت كي أتصل بها علها تكذِّب ما أرى، وكنت أود ذلك حتى ولو اتهمت بالخبل.

23

ـ أمينة ماذا فعلت؟ أتاني صوت ليال عبر الهاتف.

صمتُّ لا أدري بما أجيب، لكنها كرّرت: «ماذا فعلت بالدراسة؟».

ـ يبدو.... أنها... وقعت مني ولم أنتبه. قلت بشكل متقطع.

ـ لماذا لم تتصلي بي مساءً ربما كنت استطعت لملمتها من تحت المطر قبل أن تتبعثر وتمحى كل حروفها. قالت مؤنبة.

ـ حين أتيت إلى البيت لم أنتبه لأنني كنت مصممة على قراءتها في الصباح. قلت بلهجة معتذرة.

ـ شكراً شكراً، لكنك علمتني درساً لن أنساه طوال حياتي. أما الآن فعليّ كتابتها من جديد، قالت لي والغضب ينهش كل كيانها.

ـ وكم من الوقت تحتاجين لذلك؟ سألتها بكل برودة.

ـ لست أدري. متى يصدر العدد الجديد من المجلة؟ سألتُ.

ـ نحن بصدد صف مقالاته وكنا قد أفردنا مجالاً لدراستك. أجبتها من دون أن أغيّر نبرة صوتي.

ـ لا أظن أنني قادرة على إنجازها من جديد قبل صدور العدد، أجابتني كأنها تريد إقفال الموضوع.

ـ بسيطة، اهدئي، ستنشر في العدد القادم. أجبتها كي أخفف من غضبها.

ـ لن أنتظر العدد القادم سأنشرها في مكان آخر. شكراً على كل حال. قالت ذلك وأقفلت الخط.

أقفلتُ خط الهاتف بدوري وأنا أبتسم، لقد شعرتُ البارحة بأن الأوراق وقعت مني لكنني، بسبب المطر، لم أستطع لملمتها. لكن لا بأس سيصدر العدد من دون دراستها التي، من المؤكد أن هادي قد شارك فيها. فلتنشرها في مكان آخر إن استطاعت، وإن لا، فستنشر في العدد القادم، وهكذا ستكون خارج السياق، إذ إن هذا العدد مخصص للفكر العربي المعاصر، أما التالي فسيكون مخصصاً لأمر آخر.

ستخبر هادي حتماً بما جرى وسيساعدها على إنجاز الدراسة قبل صدور العدد، أنا متأكدة. غداً سأعلم بكل شيء، غداً هو موعد لقائي به. لكن ما حصل أمر يُغضب فعلاً وأنا أتفهم وضع ليال. هل أتصل بها وأعتذر، وهل ستقتنع بأنني لم أقصد أذيتها؟ هممت

بالاتصال بها لكنني سرعان ما غيرت رأيي وقلت لنفسي سأكلمها حين تهدأ، وسأعرض عليها المساعدة لكتابة الدراسة من جديد. لن تقبل عرضي، أنا متأكدة من ذلك ولهذا السبب من الأفضل أن أترك الأمور على حالها. لكنني سأعلم بكل التطورات غداً من هادي.

في اليوم التالي أتى هادي مبعثراً ويبدو عليه كأنه لم ينم في الليل.

ـ ما بك؟ لماذا أنت متعب هكذا؟ سألته بلهفة. كنت أنتظر منه أن يسألني عن دراسة ليال، لكنه لم يفعل، بل تحجج بالأرق وبالكتابة. لكن هل هذا يعني أنه لم يزرها في البارحة؟ كيف لي أن أعرف؟

ـ هل أنجزت ليال دراستها لهذا العدد؟ سألت بكل لؤم منتظرة منه جواباً أكثر لؤماً.

ـ أعتقد ذلك، لقد كانت قد شارفت على النهاية منذ يومين.

ـ هل قرأتها؟

ـ نعم، لكنها كانت غير نهائية بعد.

ـ وطبعاً ساعدتها كي تنهيها. قلت معلقة على كلامه.

ـ لم تقبل ملاحظاتي، وطلبت مني أن أبديها بعد نشر الدراسة.

ـ لكنها لن تنشر في هذا العدد، قلت، بعد أن اطمأننت إلى أنه لا يعلم شيئاً.

ـ لماذا؟ سألني بتعجب.

أخبرته بما جرى وأتى تعليقه: «أنتِ إنسى جهنمية، سامحك الله على فعلتك».

ـ لم أتقصد ذلك و...

ـ وأتت الأمور كما تريدين وسيصدر العدد من دون دراسة ليال كما كنت تتمنين لأنك تعتبرينها nana لا تصلح إلا للأمور التافهة، لكن دراستها، على الرغم من بعض الملاحظات، كانت جيدة. قال.

ـ إن كانت هي التي كتبتها فستعيد كتابتها بسرعة. أجبته كي يختصر في تحليلاته.

ـ لكنها لن تنشرها عندنا، أنا متأكد، فطباعها ليست هيّنة، أعرفها جيداً.

ـ لن نمضي الوقت على دراسة ليال، أخبرني أنت ما هي أوضاعك؟

ـ أوضاعي ليست على ما يرام.

ـ أما عدت عاشقاً؟ سألته بتحبب.

ـ سأظل طوال حياتي عاشقاً. أجابني وهو يهز برأسه.

ـ وهل ليال تتجاوب معك؟ ولماذا لم تخبرك بما جرى معها؟

ـ لم أزرها البارحة ولن أزورها و...

ـ ماذا تقصد؟ سألته قبل أن ينهي كلامه.

ـ لا تعرف معنى الحب. قالها بمرارة.

أثلج كلامه قلبي وشعرت بأنه سيعود إلى أحضاني، لكنه تابع: «غيرها أفضل منها».

ـ لن تجد حضناً كحضني ولن تجد من يحبك مثلي. قلت ذلك وأنا أقترب منه.

ـ لقد اتفقنا على أن ما كان بيننا قد انتهى، وأكلمك الآن كصديقة. أجابني وهو يبتعد.

لم أعلّق على ما قاله، لكنني عدت إلى البيت وكلي أمل بأن تعود علاقتنا إلى سابق عهدها: «سأعطيه بعض الوقت، لن أكون ملحاحة، سأتركه يخرج من صدمته مع ليال وأستعيده إليّ، لن يفلت من قبضتي إطلاقاً».

24

هل وقعت الأوراق من يد أمينة دون أن تدري، أم أنها رمتها عن قصد؟ لكن لماذا ترميها عن قصد؟ هل تنتقم مني؟ لن أتركها تتوصل إلى حيث تبغي مهما كان هدفها. سأستعيد كل ما كتبت وسأنجز الدراسة بأسرع وقت، حتى قبل أن يصدر العدد الجديد، لكني لن أنشره عندهم، سأجد مجلة أخرى.

بعد أن عدت من الجامعة، جمعتُ أوراقي وحاولت تنظيمها من جديد وسهرت طوال الليل أكتب، غير آبهة للوضع الأمني الذي كان متفجراً لكنه ليس قريباً من الحي الذي أسكنه. لم أنم تلك الليلة قبل أن أنجزَ القسم الأكبر من الدراسة. وفي اليوم الثاني استفقت باكراً وتابعت عملي، بعد أن اتصلت بالمكتب لأطلب إذناً بالغياب، إلى أن أنهيت الدراسة وقد أتت أفضل مما كانت عليه. فرحت من نفسي واتصلت بأمينة لـ «أحط على عينها» كما يقال.

ـ أهلاً ليال، قالت بتردد، هل من جديد؟

ـ نعم، لقد أعدت كتابة الدراسة.

ـ بهذه السرعة؟ سألت مستغربة.

ـ إنها موجودة في ذهني وذاكرتي ولهذا السبب أنجزتها بسرعة، لكنني لن أسلمها لأحد قبل أن أصوّرها.

ـ أكرّر اعتذاري، قالت، لكن إن كنت قد كتبتها من جديد فلا بأس، صوريها وسلميني نسخة عنها للمجلة.

ـ لا، لن أنشرها عندكم. أجبتها بحزم.

ـ ليس عندنا، فالمجلة لكل الحزب وهي منبر لكل الرفاق، وإن نشرتِها في مكان آخر فستثيرين التساؤل. علقت أمينة.

ـ اطمئني لن أخبر أحداً بما قمتِ به.

ـ أعود وأكرر لك أن ما حصل لم يكن عن سوء نية بل مجرد صدفة لن تتكرر.

ـ أرجو ذلك، لكن هذا لن يغير رأيي في عدم نشرها في المجلة، قلت، وأنا أفكر أنها رمت الأوراق عن سوء نية وإلا لما كانت ذكرت ذلك، لم أكن قد نسيت بعد ما أخبرني به هادي عن رأيها بي. وأتى جوابها:

ـ حتى ولو طلبها منك هادي؟ فهو أيضاً في هيئة التحرير وهو الذي اقترح عليك كتابتها.

ـ إن طلبها هادي فسأقبل، قلت بخبث.

ـ سأجعله يفعل، لن يرفض طلبي.

ـ خاصة إن أخبرتِه بما حدث. أتى جوابي السريع.

ـ لقد أخبرته، فنحن على اتصال دائم ولا يُخفي أحدنا شيئاً على الآخر.

ـ أتمنى لكما دوام التوفيق، لكن دعيه يطلبها هو، حينذاك أفكر في الموضوع.

ـ سيفعل بأقرب وقت.

أقفلتُ خط الهاتف مع أمينة وأخذتُ أحلّل أمر زيارتها لي وطلبها الدراسة وما حصل بعد ذلك. فكرت كثيراً فلم أجد سبباً مقنعاً لقيامها، عن قصد، بما قامت به. لكن ظل السؤال عالقاً؛ لماذا لم تخبرني بما حدث لحظة حدوثه؟ لماذا انتظرت كي أكلمها أنا؟ ربما كانت محرجة ولا تريد أن تبدو مستهترة أمامي، لكن كل ذلك لا يبرر ما حصل ولا يغيره. أما الآن وقد أعدتُ العمل إلى ما كان عليه وربما أفضل مما كان عليه سأحاول إيجاد منبر له غير منبر الحزب. إن اتصل بي هادي فسأرفض، مع يقيني أنه لن يفعل، لن يكلمني بعد ما جرى بيننا في آخر جلسة.

انتظرتُ إلى اليوم التالي ولم يتصل بي أحد. لكن يبدو أن النوم والراحة قد بدلا تفكيري وقرّرت نشر الدراسة في مجلة الحزب وليس في سواها؛ فإن كانت أمينة، من وراء عملتها، تريد إلغائي ككاتبة أو باحثة لتثبت مقولتها بأنني إنسى لعوب لا أصلح لأن

أكون بمستواها الفكري، فسأجعلها تتأكد من العكس. إن كانت قد رمت الأوراق عن قصد فستغتاظ مني ومن استعجالي بإعادة كتابة الدراسة ويكون عملها الحاقد قد ذهب هدراً، وإن كان ما حدث هو مجرد صدفة كما تدّعي فستسر، لأن ما قمتُ به سيلغي الفعل الشائن الذي حدث من دون إرادتها. لكن لمن سأسلم الدراسة وهادي لم يتصل بعد؟ سأسلمها إلى أمينة نفسها من جديد بعدما أصبحت عاجزة عن تكرار ما حدث لأن النسخة الأساسية ستبقى بين يدي.

ذهبت إلى المكتب حيث أعمل قبل الظهر واتصلت بأمينة:

ـ هل تمرين بي لشرب القهوة في المكتب؟

رحبت بالفكرة وقالت: «إنني آتية، لن أتأخر».

بعد أقل من نصف ساعة أتت أمينة وقبلتني كصديقة حميمة وهي تكرر اعتذارها.

ـ لقد انتهى الموضوع وسأنشر الدراسة في مجلة الحزب.

ـ أمر رائع. قالت وهي ترفع ذراعيها.

ـ وسأسلمك إياها من جديد.

ـ ممتاز، مع العلم بأنني طلبت من هادي أن يستلمها منك.

ـ لم يتصل بي أحد.

فرحتْ لكلامي وجلست قبالتي بعد أن طلبتُ القهوة: «ثلاثة

فناجين من فضلك». قلت لوليد.

ـ لمن الثالث؟ سألت أمينة، هل من زائر آخر؟

ـ سأدعو المدير إلى شرب القهوة معنا. أجبتها وأنا أعيد سماعة الهاتف إلى مكانها.

أدركت أنني أريد أن يكون المدير، وهو شقيق هادي، شاهداً على تسلمها الدراسة، لكنها رحبتْ بالفكرة ورحبت بأبي فادي حين دخل علينا.

ـ ما هذه الجلسة الحميمة الرائعة! قال وهو يدخل.

ـ ليست حميمة وإلا لما كنت دعوتك. أجبته.

ـ وهل أروع من أن يجلس المرء بين سيدتين جميلتين ومثقفتين؟ قال وهو يجلس بيننا.

ـ استمتع بهذه النعمة. قالت أمينة مازحة.

وقبل أن ننهي الجلسة سحبتُ الدراسة من الدرج، وبحركة مسرحية رفعتها إلى أعلى وقلت متوجهة إلى أمينة: «لقد أنجزت ما طلبتموه للمجلة».

استلمتْ أمينة الأوراق وهي تقول شكراً، شكراً لأنها أدركت، من طريقتي في الكلام، أنني لم أخبر أحداً بما حصل. لكن المدير، وقبل أن ينسحب، طلب مني أن أمر به، بعد أن تنصرف أمينة وقال: «لك عندي خبر يمكن أن يسرك... حتماً سيسرك».

25

ما هو الأمر الذي سيسر ليال وتكتم عليه أمامي؟ سأعرفه من ليال نفسها. سأزورها أو أدعوها إلى زيارتي وأستدرجها إلى الكلام، وهي بعفويتها المعهودة ستروي لي كل شيء. سأنتظر يومين أو ثلاثة وأتصل بها.

رن جرس الهاتف في بيتها مرات عديدة ولا جواب. كان الوقت مساءً، ومن المفروض أن تكون في بيتها لأنها تعتقد أنه آمن ولا تطاله القذائف بسبب الأبنية العالية التي تحيط به من كل الجهات. سأتصل باكراً في الصباح، سأجدها حتماً. لكن رنين الهاتف الصباحي أتى كرنينه المسائي من دون جواب. ثارت حشريتي وانتظرت إلى الساعة التاسعة واتصلت بالمؤسسة حيث تعمل وسألت عنها.

ـ لقد سافرت ولن تعود قبل يومين أو ثلاثة. أتاني الجواب.

ـ إلى أين سافرت؟ سألت.

ـ لا أدري. أجابني الأوفس بوي.

هل أطلب المدير وأسأله؟ ربما بدا ذلك حشرية مني. سأزور المؤسسة وهكذا، إن سألت عنها سيبدو الأمر طبيعياً. لم أنتظر طويلاً، جهزت نفسي وتوجهت إلى حيث أبغي. دخلت عليهم كعادتي ورحب بي المدير كعادته. لكن ما إن طلب القهوة حتى اقترحت عليه دعوة ليال لاحتسائها معنا.

ـ لقد سافرت البارحة. قال أبو فادي.

ـ إلى أين؟ وما الداعي؟ سألت.

ـ لقد أرسلها الحزب لتمثيله في الندوة التي تعقد في بال في سويسرا حول التمييز العنصري، وهي ندوة يقوم بها مجلس السلم العالمي.

ـ وهل لديها اطلاع على الموضوع؟ سألته بتعجب.

ـ لقد حضّرت كلمة ممتازة، بالفرنسية، حول مفهوم التمييز العنصري. على كل حال سننتظر عودتها لنحكم على نجاحها أو فشلها. أجابني.

ـ حتماً ستقول إنها نجحت. قلت باستهتار.

ـ لن نتكل على قولها فقط، تعلمين ذلك، ولدينا قنواتنا الخاصة لمعرفة كل ما يحصل خلال هذه الندوة. هذه المرة نعتبرها كـteste كاختبار لنبني عليه للمرات القادمة.

ـ وإن فشلت؟ لا سمح الله. سألته.

ـ سنستعين بغيرها، لكنني متأكد أنها لن تفشل، وأنا مَن اقترحها لهذه المهمة. لقد خبرت قدراتها خلال عملها في المؤسسة، وأنا متأكد أنها ستبيّض وجهنا في الخارج. قال كأنه فخور بها.

ـ آمل ذلك، قلت قبل أن أستأذنه بالانصراف.

عدت إلى البيت وأنا مسكونة بالغضب على هذا الحزب الذي يُبهر بكل جديد. فهل كونها سيدة جميلة يفسح لها في المجال لأن تقوم بأعمال، أنا متأكدة، أنها ليست أهلاً لها؟ فشكلها الخارجي وحده، يوحي بعدم مصداقيتها في النضال ضد التمييز العنصري. لقد أساء الحزب الاختيار وسيكتشف ذلك بنفسه. لكن، ربما كان لهادي دور في اختيارها. سأعرف غداً حين ألتقي به.

ـ هل تعلم أن ليال مسافرة؟ سألت هادي بعد أن جلسنا معاً في ذلك المقهى.

ـ أعلم، لقد سألني أبو فادي رأيي وأثنيت على اقتراحه. أجابني.

ـ وهل تعتقد أنها الشخص المناسب لهكذا مهمة؟

ـ لمَ لا؟ وأنت تعرفينها جيداً، فإن كانت لا تجيد الحب، فهذا لا يعني أنها لا تجيد أموراً أخرى.

ـ لا أدعي أنني أعرفها جيداً، فقط لدي بعض الانطباعات حولها. أجبته.

ـ من قراءتي لدراستها الأخيرة اكتشفت أن لديها إمكانات جيدة

وعلى الحزب الإفادة منها. قال هادي بكل جدية وتابع هل قرأتها؟

ـ لم أقرأ نصها بعد، سأفعل اليوم بالذات. أجبته.

ـ ومن أين تأتين به بعد أن رميته تحت المطر؟ سألني ساخراً.

ـ لقد أعادت كتابته بأقل من يومين وسلمتني نسخة عنه.

ـ صحيح أنها طيبة القلب، فلو كنت مكانها لما وثقت بك ثانية. واستدرك قائلاً: لا، ليست طيبة القلب كما ظننت، بل هي قوية الشخصية. فإن أرادت أن تسلمك النسخة الجديدة فما ذلك إلا لتقول لك إنك لن تقوي عليها مهما فعلتِ.

تجاهلت تحليله وقلت:

ـ كنت تفضل أن تسلمك أنت النص.

ـ بكل تأكيد، لكنني لم أرها منذ فترة.

ـ هل رمتك بعد أن علكتك كما تنبأت لك؟ سألته بتشفٍّ.

ـ فكري كما تشائين، فلن يتغير شيء في الموضوع. أجابني وهو ينظر إلى تحت.

ـ والآن آمل أنك اكتشفت أن لا أحد يحبك مثلي وأن حضني هو أدفأ حضن. قلت بدلال مفتعل.

ـ ليس المهم أن يكون الحضن دافئاً، المهم أن يشعر من هو في الحضن بالدفء. أتى جوابه كطعنة.

ـ يا جاحد! ما عدت تشعر بالدفء بعد أن أخذته كله؟ صرخت به.

ـ وقد أعدته إليك. فامنحيه لمن تشائين . أجابني من دون أن يرفّ له جفن.

ـ سخيف، سخيف، ردّدت باستياء.

ـ هذا كل ما تجيدين قوله. أما الآن فقد حان وقت الرحيل إلى البيت وإلى أوراقي وكتبي.

لم أمتعض كثيراً من كلامه حتى ولو أتى قاسياً. المهم، بالنسبة لي، هو أنه لم يعد معها. أما أمر استرداده فسأعمل عليه ولن أتركه يفلت من جديد.

26

كانت الرحلة إلى سويسرا متعبة لكن نتائجها أتت جيدة، وبعد عودتي بيومين، نُشر في إحدى الصحف الشجب الذي قام به مجلس السلم العالمي لممارسات إسرائيل في جنوب لبنان لأنها تعتبر من باب التمييز العنصري. كنت أنا من قرأ الخبر أولاً، وذلك بسبب عملي على الصحف اليومية. أخذت الصحيفة وتوجهت إلى غرفة المدير وقرأت له الخبر، فأثنى على جهودي وقال: «قريباً ستعقد ندوة للمجلس في نيودلهي، حضّري حالك».

ـ أنا جاهزة للسفر في كل لحظة.

أنهيت عملي في المؤسسة بعد أن صورت الخبر واحتفظت بنسخة عنه، وذهبت إلى الجامعة، وإذ بأمينة تلوّح لي بيدها من بعيد. التقينا وتصافحنا بشوق وذهبنا مباشرة إلى المقهى.

ـ حمداً لله على سلامتك، متى عدتِ؟ سألتُ.

ـ منذ يومين.

ـ وكيف كانت الندوة؟

ـ ممتازة ومثمرة وها هي نتائجها، قلت ذلك وسحبت من محفظتي الخبر الذي نشر في الصحيفة.

ـ أمر رائع، لكن هل ممارسات إسرائيل في جنوب لبنان تدخل في خانة التمييز العنصري؟

ـ هذا ما وافق عليه السيد شندرا، رئيس المجلس، حين اقترحت عليه الموضوع، ولأجل ذلك أمضيت أكثر من ساعة معه لإقناعه بوجهة نظري.

ـ هل كنت وحدك معه حين أقنعته؟ سألت وهي تبتسم.

أدركتُ ماذا تقصد، لكنني تجاهلته ووصفت لها ما حدث بكل براءة وأنهيت كلامي بالقول: «المهم هو النتيجة».

ـ وهل أنت من دعاة أن النتيجة تبرّر الوسيلة؟ سألت أمينة.

استفزني قولها وسألت بغضب: «وماذا تقصدين؟».

ـ أقصد أنّ من الصعب على رجل رفض طلب لسيدة جميلة مثلنا.

ـ وهل تستغلين جمالك للوصول إلى غاية ما؟ سألتها بلؤم.

ـ لا، بل أقول ذلك من باب التحبب فقط.

ضحكنا معاً وتابعتُ: «لكن المهم هو أن هذا اللقاء في سويسرا قد عرفني على الكثير من الناس النشطين في عالم السياسة وعلى مستوى عالمي.

ـ أنا لا يهمني رجال السياسة، لا أهتم إلا بالمثقفين، ولهذا السبب لا أحضر إلا الاجتماعات الثقافية، وقريباً سأذهب إلى تونس في إطار ندوة حول الشعر العربي الحديث. قالت أمينة بكل اعتزاز.

ـ هنيئاً لك، لكن في الندوة (حول التمييز العنصري) كان يوجد بعض الكتاب ومنهم، على سبيل المثال، إميل حبيبي من فلسطين.

ـ ألم يكن أيضاً ممثلون لإسرائيل؟ سارعتْ إلى السؤال.

ـ طبعاً وهنا دعيني أخبرك ماذا حدث؛ قبل ذهابي أوصاني أبو فادي أن أتلافى اخذ أي صورة مع الوفد الإسرائيلي، فكان علي في البداية أن أكتشف هذا الوفد، والأمر لم يكن صعباً لأن كل واحد منا كان يحمل على صدره بطاقة تحمل اسمه واسم بلده. كانوا ثلاثة، رصدتهم وحاولت الابتعاد عنهم. لكن الأمر المحرج حصل قبل انعقاد الندوة حين طلب منا القيمون عليها، أن ننقسم إلى قسمين: من يفهم الفرنسية ومن يفهم الإنكليزية. حتما كنتُ سأتوجه نحو الفريق الفرنسي، لكنني لاحظت أن الإسرائيليين انضموا إلى هذا الفريق، فما كان مني إلا أن توجهت نحو الفريق الإنكليزي وبذلت جهداً كبيراً كي أتابع ما قيل، تحضيراً للندوة. لكن المضحك هو أنني، بعد الجلسة الأولى وفي فترة الغداء، رأيت الوفد الإسرائيلي والوفد الفلسطيني على طاولة واحدة في المطعم، ورفضت دخوله، فما كان من إميل حبيبي إلا أن ناداني، وحين دنوت منه قال: «ألاحظ أنك تتهربين من مقاربة الإخوان في الوفد

الإسرائيلي، فهؤلاء هم من الحزب الشيوعي ونحن على اتصال بهم، هيا اجلسي معنا». لكنني اعتذرت ولم أجالسهم.

ـ وكم دامت الندوة؟ سألت أمينة متجاهلة كل ما رويته لها عن تجنبي الوفد الإسرائيلي.

ـ يومين، لقد ذهبت يوم الثلاثاء وعدت يوم الجمعة. لكن يبدو أن مجلس السلم العالمي يعقد ندوات كثيرة، وأظن أنني سأذهب قريباً إلى الهند.

ـ الهند بلد جميل وله ثقافته الخاصة. قالت معلقة على ما سمعته مني.

ـ فلنذهب معاً إلى الهند، سأقترح على الحزب أن نترافق في هذه الرحلة. قلت لها.

ـ لا، لا تفعلي، لأن لكل منا اختصاصها، وأنا اختصاصي الأدب والنقد، يعني الثقافة، ولا وقت لي لمتابعة الأمور الأخرى كالسياسة التي ليست من اهتماماتي.

قالت ذلك بنوع من الاستعلاء الذي أغاظني، لكنني تجاهلت الأمر وقلت لها: «متابعتي لهذه الأمور لن تبعدني عن الثقافة، لا بل أجدها إثراءً لها؛ أن تكتشفي العالم هو أمر لا بد أن يثمر في عالم الثقافة التي لا تتماشى مع ضيق الآفاق.

ـ أتمنى لك التوفيق، قالت وهي تلملم أشياءها استعداداً لدخول قاعة المحاضرات.

27

«ما هذا البروز الصاروخي!» قلت لنفسي وأنا أتوجه إلى الصف. لم يمضِ على وجود ليال إلا فترة قصيرة في الحزب وها هي الآن رئيسة الفرقة، والأنحس من ذلك أنها بدأت تمثل الحزب في مؤتمرات دولية. لكن هذه المؤتمرات السياسية ليست سوى نوع من العلاقات العامة التي تعوّل على الظاهر فقط. ولكثرة ما هي مأخوذة بنجاحها في هذه الندوة، نسيت أن تسألني عن دراستها وهل قرأتُها وما هو رأيي فيها وكأنها مستغنية عن رأيي. لكنها لو فعلت لكنت أسكتّها بسرعة بحجة أنني لم أقرأها، لن أفسح لها في المجال أن تطل من باب الثقافة والفكر، فلتكتفِ بإطلالاتها الاستعراضية التي لا تدوم. لن أتركها تخطو خطوة واحدة في الحقل الذي أنا فيه سيدة.

انتهيت من إلقاء محاضراتي وعدت إلى البيت، وإذا برئيس تحرير المجلة يتصل بي:

ـ هل قرأت دراسة ليال وما رأيك فيها؟ لقد اتصلتُ بالدكتورة وقالت لي إنها سلمتك الدراسة منذ أسبوع.

ـ قرأتها بسرعة، ولهذا السبب لم أكوّن عنها فكرة واضحة. أجبته كي لا يدفعني إلى إبداء الرأي الذي سيربكني.

ـ لكن هادي قال لي إنها دراسة قيمة وينبغي نشرها.

ـ تعرف أنني أحترم رأي هادي، لكن الدراسة مليئة بالأخطاء التي علينا تصحيحها قبل النشر. قلت له من دون أن أتوقف عند رأي هادي فيها.

ـ هل أشرت إليها؟ سألني.

ـ بكل صراحة، لا، لأنني كما قلت لك قرأتها بسرعة. أجبته باستخفاف.

ـ هل لي أن أطلب منك إعادة قراءتها وتصحيحها؟

أقفلت الخط مع رئيس التحرير وانكببت على قراءة دراسة ليال محاولة تفليتها لأصطاد الأخطاء التي تكلمتُ عنها. لم أستطع التدخل في الأفكار لأنني لا أعرف جيداً المفكر الذي كتبت عنه، ويبدو أنها تملك أدوات النقد إذا صدقت في ما تنسبه إلى المفكر، لكنني لم أتوقف عند هذه الناحية لكي لا أظهر جهلي، وصببت اهتمامي على اللغة والأخطاء اللغوية، ولكي أكون صادقة مع ذاتي لم أجد منها الكثير، فصححتها وسلمتها، في اليوم التالي إلى رئيس التحرير، الذي علق حين استلمها: «يبدو أنها دراسة دسمة، ستأخذ حيزاً مهماً من المجلة».

ـ المهم ليس الحجم، بل المضمون. أجبته بنبرة استعلائية.

ـ وهل المضمون سيئ؟ سألني باستغراب.

ـ بكل موضوعية أقول إنه عادي. أجبته.

ـ القارئ سيحكم. قال، مقفلاً الموضوع.

اتصلتُ بليال وأخبرتها أنني سلمت الدراسة، فشكرتني وسألت متى سيصدر العدد الجديد؟

ـ في غضون شهر، أجبتها وأنا أنتظر منها أن تسألني رأيي، لكنها لم تفعل، فقلت: «لقد صححت الأخطاء قبل تسليمها».

ـ وهل غيرت شيئاً فيها؟ سألت بسرعة.

ـ لم أعر انتباهي للنواحي الفكرية لأنني أحياناً لم أفهم خطك، توقفت فقط عند الأخطاء اللغوية وقد كانت كثيرة. أما الناحية الفكرية فسنناقشها بعد النشر حيث يمكن قراءتها بوضوح.

ـ شكراً على التصحيح، فأنا حين أكتب أكون مأخوذة بالفكرة ولهذا السبب لا أنتبه إلى بعض الأخطاء، ولا تنسي أنني أعدت كتابتها بسرعة، وهادي حين قرأها لم ينبهني إلى هذه الأخطاء... لكنه قرأها بصيغتها الأولى المتأنية، والمهم أنها ستصدر قريباً وستكون أول عمل لي منشور، وأنا مسرورة أن هذا سيتم في مجلة الحزب، وأنا الآن بصدد كتابة دراسة ثانية، لكنها دراسة فلسفية.

أغاظني كلامها وأشعرني بالغيرة من هذه الإنسى الطموحة وأجبتها بسرعة:

ـ إن كانت متخصصة جداً فلن يكون لها مكان في المجلة، لأننا نعمل على محاور محددة ومحور العدد القادم لا دخل له بالفلسفة.

ـ هناك مجلات متخصصة لهذه المواضيع وسأنشر فيها، كمجلة (الفكر العربي المعاصر) وغيرها. أجابتني.

ـ ممتاز، المهم أن ننتج، قلت وأنا ممتعضة، وتابعت: متى سيكون المؤتمر الثاني لمجلس السلم العالمي في الهند كما ذكرت لي سابقاً؟

ـ الشهر القادم وعليّ تحضير كلمة للمناسبة.

ـ الكلمات في هكذا مناسبات لا تستدعي التفكير المعمق ومن السهل تحضيرها إذا كان من يقوم بالعمل مسيّساً.

ـ بالفعل، لكن ما نكتبه، حتى في مناسبات كهذه، يظل كتابتنا نحن ويدلّل على مستوانا الفكري والثقافي، ولهذا السبب أحاول إتقان ما أكتب لكي يأتي انعكاساً لمفاهيمي ولشخصيتي، حتى ولو خرج أحياناً عن متطلبات المناسبة.

ـ لا أوافقك الرأي تماماً، أجبتها، فالقصة ليست استعراض عضلات ويجب أن يكون القول متماشياً مع المناسبة. لكن الموضوع يتطلب نقاشاً مطولاً، متى سنلتقي؟

ـ متى أردت، أنا جاهزة وقد اشتقت إليك. أجابتني بتحبب.

اتفقنا على الموعد وجلست وحدي فسرح ذهني في أمور كثيرة أعادتني إلى الماضي إلى أحداث لن أنساها ما حييت.

28

أتى هاني وبدأت سهرتنا كالعادة بارتشاف القليل من الكحول وهو يداعب بعض أجزاء من جسدي تمهيداً لتمضية ليلة ممتعة. كنا في لحظات أنيسة حين رنّ جرس الهاتف وإذا بهادي يسألني إن كنت جاهزة لاستقباله. ارتبكت في بداية الأمر، لكنني قررت بسرعة أن أستقبله وأن أجعله يقابل هاني ويرى ما هي علاقتي به كي يكفّ عن ملاحقتي وأنهي الموضوع.

ـ أستقبلك بكل سرور، أنتظرك. قلت ذلك وأقفلت الخط، فاغتاظ هاني وهم بالرحيل، لكني طمأنته وأقنعته بالبقاء متهمة إياه بأنه يريد التهرب من مواجهة أصدقائي وعالمي لأنه لا يثق بنفسه. تحديت كبرياءه، فاستجاب لطلبي وبقي معي وتابعنا ما كنا نقوم به ولو ببرودة من ناحيته.

فتحتُ الباب، وإذا بهادي ترافقه صديقتي حسنية. رحبت بهما

ودخلنا إلى الصالون حيث هادي كان واقفاً متأهباً. لكنه حين رأى حسنية انفردت أساريره وارتاح تشنجه لأنه كان يعرفها من قبل.

ـ لماذا لم تخبرني بأن حسنية معك؟ سألته.

ـ أردت مفاجأتك.

ـ على كل حال، إنها مفاجأة جيدة. قال هاني الذي سارع إلى إحضار كأسين فارغتين كي يشاركانا الشراب.

كان هادي متوتراً، لكنه اصطنع الهدوء وحاول، بشتى الطرق إفهامي أنه استبدلني بحسنية «التي تفهم جيداً معنى الحب والعشق». وهي بدورها كانت شبه منتشية، فالإنسى العادية التي لا تثق بنفسها وثوقاً كافياً تركض وراء السلطة، أي سلطة، وتحاول التمسك بها واستمالتها، وهادي هو سلطة فكرية بارزة ليس فقط داخل الحزب، بل على مستوى البلد بأكمله.

راودني في تلك السهرة شعوران متناقضان؛ فمن جهة فرحت بعلاقة هادي الجديدة بحسنية، لكن، من جهة ثانية، استغربت هذه الانعطافة السريعة عنده؛ فمنذ أيام قليلة كان يقول إنه متيَّم بي، فكيف أصبح الآن متيَّماً بها، وحاولت أرضاء نفسي بالتشكيك بصدق علاقتهما. وقد عبرت بطريقة ملتوية عن ذلك، لكنه فهم تلميحاتي وحاول بدوره دحضها بسلوكه المهتم جداً بحسنية. كنت أتمنى أن يأتي وحده وأن أتمكن من السلطنة على الاثنين معاً، هو وهاني، وأثير غيرتهما إشباعاً لنرجسية الأنثى في داخلي، لكنهما كانا مرتاحين جداً، إذ شعر كل منهما بأنّ له حصته من الوليمة.

انقضت السهرة بالهرج والضحك وبإثارة موضوعات عامة شارك

فيها هاني بكل ارتياح وكنت قد تقصدت ذلك لكي لا أشعره بالحرج إن فتحت مواضيع فكرية ليست من اهتماماته وهو ليس من مستواها وأعترف بأن هادي قد ساهم في ذلك على الرغم من محاولات حسنية المتكررة لجر الحوار إلى الجدية التي لا تتخلى عنها.

انصرفا وأمضيت ليلة شبقة مع هاني الذي أبدع في اجتراح كل ما يساهم في إشباعي جنسياً وكأنه يعوض عن نقص شعر به تجاه هادي ومحاولاً إثبات رجولته. انسجمت معه كلياً وأثبتُّ له بدوري أنني لا أطلب من الرجل سوى ما يقوم هو به.

انصرف هاني بدوره وأصبحت وحدي لأستعيد في ذاكرتي تلك السهرة، وأهم ما استوقفني وأحزنني هو أن أمينة قد خرجت بالفعل من عالم هادي. كنت أظن أنه سيعود إليها بعد أن يئس مني لكنه لم يفعل. هل أخبرُ أمينة؟ ربما تلقت قولي من باب الغيرة الرخيصة. لن أفعل، وستعرف لأن البلد صغير وتنتشر الأخبار فيه بسرعة وبخاصة أن حسنية ليس لها مصلحة في إخفاء علاقتها بهادي؛ فهي إنسى مطلقة وتعيش وحدها وليس لأحد من حق عليها، ستتباهى بهذه العلاقة وبخاصة أمام الأصدقاء الذين سينقلون الخبر إلى أمينة. مسكينة أمينة، سأتقرب منها أكثر لأنها ستشعر بالوحدة بعد هادي، وبخاصة أنها قد أصبحت في مرحلة من العمر لا تسمح لها بإقامة علاقة جديدة كما ترغب. وأول عمل قمت به في صبيحة اليوم الثاني هو أن اتصلت بأمينة لنتفق على لقاء بيننا.

29

كم تشبه ليال صديقتي القديمة لويزا، إنهما تتشابهان شكلاً ومضموناً، وها هي القصة تتكرر من جديد. في ذلك الزمن، حين كنت في بداية نضجي تعرفت إلى شاب وأُغرمت به كما هو أغرم بي. كمال كان شاباً وسيماً مليئاً بالحياة، يتمتع بحدة ذكاء هائلة. كانت لويزا إلى جانبي دائماً وكانت الشاهد على حبنا الذي انتهى بالخطوبة تمهيداً للزواج. شجعتني على ما قمت به ولازمتنا كل فترة الخطوبة ورافقتني في كل لقاءاتي بكمال. لكن قبل زواجنا بفترة قصيرة فاجآني بأنهما تزوجا وتواريا عن نظري. كانت الصدمة لا تحتمل، صدمة حملتني على الكفر بالصداقة وكل توابعها، وحتى الآن لا أؤمن بالصداقة بين النساء، كل من تتقرب مني أشعر بها كأنها تأخذ مني شيئاً ما. وها هي الآن الست المصون، السيدة ليال تخطف هادي مني وتتظاهر بالصداقة. أنا لا أصدق رفضها له، إنه نوع من الغنج الذي تلجأ إليه الإنسى كي تزيد من تعلق الرجل

بها. أكرهها لكني غير قادرة على رفض صداقتها لأنني بحاجة إلى التعرف أكثر إلى هذه الشخصية التي استطاعت أن تسرق حبيبي. ما هو سرها وما الذي جعل هادي يغرم بها؟ هل هو الشكل الخارجي؟ ربما، فإنها شديدة الشبه بلويزا وهذا ما شد انتباهي إليها. هل الرجل الشرقي معقد إلى هذه الدرجة ليركض وراء هذا النموذج الأوروبي؟ لماذا الشقراوات يسترعين انتباهه؟ حتى أنه لا يعود يميز بين شقراء طبيعية وشقراء مزيفة. لن أرفض صداقتها سأضعها دائماً تحت نظري لأكتشفها وأراقب كل سلوكاتها. طلبت مني أن نلتقي، سأستقبلها وأتظاهر بالود تجاهها علّ ضميرها يستفيق وتبعد نهائياً عن هادي. سأتصل بها وأقول لها إنني بانتظارها.

فتحت لليال الباب وتعانقنا. دفء غريب تسرب من جسدها، دفء أشعرني بالاطمئنان ووجدت نفسي أقبلها بحرارة، دفء غيّر مزاجي ودفعني إلى الترحيب بها من دون تكلف. دخلنا الصالون وذراعي يلف كتفيها. رمت حقيبتها على أحد المقاعد وجلستْ في المكان الذي اختارته في المرة الماضية، حين زارتني برفقة عيسى. كانت بكامل أناقتها مما دفعني عفوياً إلى التعبير عن إعجابي بذوقها.

ـ هو بعض ما عندك يا صديقتي، أجابت.

ـ أحب السيدة التي تهتم بهندامها. فهذا دليل أنوثتها.

ـ لكنه يكون في بعض الأحيان دليل تعويض ما. قالت ليال بأسى.

ـ وعمّ تعوضين؟ سألتها باستغراب.

ـ هناك دائماً نقص أشعر به، نوع من عدم الاطمئنان، نوع من

القلق وعدم الرضا على أنا عليه. أشعر بأن كل ما أقوم به لا يشبعني كما يجب، لا يلبي كل طموحاتي. أجابتني بمرارة.

ـ الطموحات لا تتحقق دفعة واحدة وعلينا برمجتها كي نتمكن من تحقيقها. أجبتها مواسية.

ـ صحيح، لكن الزمن يمر بسرعة ويلتهم الكثير منها. أجابت بصوت منخفض كأنها تكلم نفسها.

ـ وبِمَ تطمحين بعد؟ ها قد أنهيت دروسك وحصلت على وظيفة جيدة وتمارسين حياتك كما تريدين، وتابعتُ كي أرى ردة فعلها، «ولديك عشاق كثر يدورون في فلكك..».

ـ ليس المهم كثرة العشاق، بل الأهم هو من نعشق وكيف وما هو أفق العلاقة.

ـ وأنت عاشقة على ما أعتقد.

ـ عاشقة ومرتبكة، فهو يلحّ علي بالزواج وأنا أرفض. قالت.

ـ لماذا ترفضين؟ فالزواج هو تتويج العلاقة.

ـ أظن أنه مقبرتها. أجابتني ضاحكة.

ضحكت بدوري من تعليقها فسارعتْ إلى القول: «إنك توافقينني الرأي، العشق أمر والزواج أمر آخر. على كل حال أنا مرتاحة لوضعي الحالي ولن أفكر في المستقبل، فإن استمرت العلاقة فهذا جيد وإن لم تستمر فغيرها أفضل منها».

أغاظني كلامها، ماذا تقصد بـ«غيرها» هل تقصد علاقتها الجديدة بهادي؟ كيف لي أن أعرف؟ سأكون مباشرة وأفتح موضوعه:

ـ العلاقة الحقيقية لا تهتم بالزواج. خذي علاقتي بهادي، هي خارج إطار الزواج لكنها ممتازة ومستمرة منذ سنين عديدة.

صمتت حين سمعت كلامي ولم أفهم صمتها. هل استاءت مما قلت؟ هل تخبئ شيئاً ما؟ سأستفزها كي تتكلم:

ـ هل لا يزال يزورك؟

تردّدت ثم قالت: «لقد زارني البارحة، كنت مع عشيقي وأمضينا سهرة ممتعة.

ـ ألم ينزعج هاني منه؟ سألتها.

ـ لماذا ينزعج؟ فهادي صديق، وعشيقي واسع الذهن ويتقبل كل علاقاتي شرط أن تكون ضمن حدود الصداقة.

ـ لكنني لا أحب التطفل، كان على هادي أن ينسحب حين وجدك مع حبيبك، سأنبهه إلى ذلك.

ـ كان سيفعل، لكن هاني أصر عليه بالبقاء.

هل عشيقها كان يريد امتحانها كما أحاول أنا الآن؟ ربما، لكنها مرتاحة جداً، مما يعني أنها ليست على علاقة بهادي إلا إذا كانت قحبة وتكذب على الجميع.

ـ عليك أن تتزوجي كي ترتاحي نهائياً من كل تطفل. قلت لها.

ـ وهل زواجك منعك من إقامة علاقة ثانية؟ أجابت من دون تردد.

أسكتني جوابها، لكنني أحببته إذ وجدت فيه اعترافاً منها بأن هادي هو لي أنا وليس لسواي. لكنها تابعت:

ـ هل الزواج يميت الشعور؟ حين ينجذب شخص إلى آخر فلا الزواج ولا سواه يغير في الوضع. بل يصبح استمرار الزواج نوعاً من تغطية على العلاقة الجديدة، وأنا، في مثل هذه الحالة أفضل الطلاق لأنني لا أستطيع أن أعيش مع شخصٍ وأكون، بالفعل، مع سواه.

ـ ما تقولينه صحيح، لكن الظروف، أحياناً، تحتم عدم الانفصال وبخاصة حين يكون الزواج قد أنتج أولاداً. أنت تستسهلين الأمر لأنك لم تنجبي بعد. أجبتها كي أبرر موقفي.

ـ ولن أفعل لأنني لا أريد لأي مخلوق، مهما كان، أن يحدّ من حريتي. قالت بلهجة متحدية.

فتح الباب وسمعت صوت سهام فقلتُ: «فلنقفل الموضوع، لا أريد لسهام أن تسمع هكذا نقاش لأنه يشوش أفكارها وأنا أريد لها أن تتزوج وأن تنجب و....

دخلت سهام وفرحتْ جداً بليال وعانقتها كما لو أنها صديقتها الخاصة ثم جلست معنا وانتقلنا إلى أجوائها حيث وافقتها ليال على كل آرائها المتطرفة مما دفعني إلى الطلب من سهام أن تدخل غرفتها وتباشر دروسها وفروضها المدرسية. فهمت ليال انزعاجي فاستأذنت وهمّت بالرحيل، لكن دخول وديع غير الجو نهائياً وتعامل مع ليال كأنها من أفراد البيت وأصر عليها أن تبقى وتشاركنا العشاء. كانت بسيطة جداً، قبلت الدعوة وأمضت السهرة معنا، وحين صمّمت

على الانصراف كان الجو الأمني بدأ بالتدهور وشعرت بأنها خائفة من العودة وحدها إلى بيتها، فما كان مني إلا أن أصررت عليها بالبقاء معنا هذه الليلة. سقط عليها كلامي كالماء البارد المنعش ووافقت بسرعة على طلبي وباتت معنا في غرفة سهام التي انتقلت إلى النوم في الصالون. وقبل الفجر بقليل هدأ الوضع واستطعنا أن نخلد إلى النوم، وحين استيقظنا لم نجد ليال في الغرفة.

30

أجواء بيت أمينة مريحة وزوجها ظريف جداً، أما سهام فهي أنضجهم وأكثرهم عمقاً على الرغم من صغر سنها، وتعبر عن آرائها بكل عفوية واندفاع، وأعتقد، لولا تهيبها من أمها، لكانت أكثر صراحة عما تفكر به بالحقيقة. لقد لاحظت أنها تسايرها وتحاول أن تبدي آراءها بنوع من التلطيف اللفظي الذي لا يخفي شخصيتها الفعلية. لقد قرأت نوعاً من الغيرة في نظرات أمينة إلى ابنتها كما لو أنها تنبهها بأنني صديقتها هي لا صديقة ابنتها. أما وديع فهو نموذج الشخص المرح الذي يرمي وراء ظهره كل المشاكل ولست أدري إن كان هذا السلوك استهتاراً بالحياة أو أنه يأس منها. على كل حال إنه شخص، ممتعةٌ الجلسة معه «يشيل الهم عن القلب» كما يقال.

لكن لماذا أخفيتُ عن أمينة أن هادي زارني برفقة حسنية؟ هل كنت أحاول التخفيف عنها أم كنت، بلا وعي مني، أبغي إثارة غيرتها؟

وإن كنتُ صادقة مع نفسي فهل تقبلت بسهولة انتقاله السريع إلى سواي؟ في الواقع لم أشعر تجاهه بأي ميل، لكن كونه كان متيماً بي هو أمر يسرّني حتى ولو لم أتجاوب معه، وانتقاله إلى حسنية أثار لدي شعوراً ملتبساً أفهم جيداً طبيعته على الرغم من أنه أزعجني. لو عاد إلى أمينة لكنت فرحت أكثر لأنني كنت شعرت بأنني ساهمت في استردادها له. لكن وإن أخفيت الأمر عنها، فستعلم به وستتأكد من أنني لم أكذب حين أنكرت علاقتي بهادي، وهكذا ستتوطد صداقتنا أكثر وأنا أرغب بهذه الصداقة، صداقة واضحة لا يشوبها أي التباس. لكن هل هي ترغب في ذلك؟ أشعر بأنّ لديها حشرية في أن تتعرف إلى كل ما يخصني ولو أنها لا توافقني الرأي تماماً في كل ما أطرح. لكن الموضوع لم يستوقفني كثيراً وأعدت اعتراضاتها على آرائي إلى كونها ناقدة ووظيفة النقد هي أن يبين الوجه الآخر لكل طرح. وهي، بالإضافة إلى ذلك، ناقدة ماركسية تعول كثيراً على التناقض ولا تتقبل الأشياء من جهة واحدة. لكنها تخاف على سهام مني، تخاف أن أؤثر عليها بأفكاري التحررية. سأنتبه إلى ذلك وسأحاول التلطيف من حدة طروحاتي أمام سهام. بالنهاية أمينة هي التي أبغي صداقتها لا سهام التي هي من عمر ابنتي لو كان لدي ابنة. لكنها منفتحة جداً وأشعر بأنها تنظر إلي بإعجاب ومحبة، وهذا يدغدغ نرجسيتي التي لا أتخلى عنها ولو للحظة. لكنني سأحاول.

أتى هاني كالعادة لتمضية السهرة معي وإشباع جسدي وجسده المتعطشين دائماً للعناق والحب. ارتوينا وجلسنا معاً، وإذ به يسألني:

ـ أليس لديك صديقات؟ وهل لا تصادقين سوى الرجال؟

ـ سأعرفك، بأقرب وقت، على صديقة جديدة وهي عشيقة هادي.

ـ وحسنية؟ أليست عشيقته؟ سألني باستغراب.

ـ العشيقة الفعلية هي أمينة، وما حسنية إلا للترفيه. قلت ذلك لأنتقم، ولو لفظياً من حسنية.

ـ أنا لا أفهمكم أنتم في الحزب. وهل تقبل أمينة بهذا الترفيه لعشيقها؟ هل وصلتم إلى هذه الدرجة من التحرر؟ قال ذلك ثم تابع: لكنني لاحظت، من نظراته إليك، أنه مغرم بك، فما هو شعورك تجاهه وهل ما أحسست به هو صحيح؟

ـ ما شعرت به هو صحيح، قلت، كي أثير غيرته التي كلما أثيرت ازدادت رغبته بي.

ـ وتقولينها بكل بساطة؟ سأل.

ـ لا أقول إلا الحقيقة. أجبته بكل جدية.

ـ وأنتِ ما هو شعوركِ نحوه؟

ـ أنتَ تعلم، فلو كان شعوري نحوه كمثل شعوره نحوي لما كنت أنتَ هنا الآن.

ـ ألم يحاول النوم معك؟ سأل بحشرية غيورة.

ـ لقد فعل. أجبته بكل لؤم.

ـ هل قبّلك؟

ـ لقد حاول.

ـ عرفيني على أمينة سأخبرها بكل شيء كي تربي هذا «الفلتان عراسو» من دون أن يجد من يردعه. هل كنت تستقبلينه وحدك؟

ـ استقبلته مرات عديدة حين كان طارق هنا.

ـ الملعون لم يخبرني. لقد تواطأ معك والله وحده يعلم ماذا كنتم تفعلون.

شعرت أن غيرته بلغت أوجها فعانقته وأنا أقول: «أنتم الرجال أغبياء ولن تستطيعوا فهم الإنسى مهما فعلتم».

ـ تحاولين إسكاتي لكنني مصمم على معرفة كل ما حدث بينكما. قال وهو يحاول إبعادي عنه.

ـ وماذا تفعل حين تعرف؟ سألته.

ـ هل هذا يعني أنه حدث أمر ما بينكما؟

ـ لا فائدة من الإجابة فمهما تكن فلن تستخرج السوسة التي بدأت تنخر رأسَك. قلت له.

ـ سأرحل ولن أعود إلا حين تقررين إعلامي بكل ما حدث بينكما. قال ذلك وهو ينهض من مكانه.

ـ هل أراك غداً؟ نحن مدعوان إلى شرب كأس عند أمينة.

تردد قليلاً ثم قال: «لا أدري، الأمر يتعلق باستعدادك للكلام بصراحة».

ـ وهذا بدوره يتوقف على استعدادك الفعلي لتصديق ما سأقول.

ـ أنا مستعد. أجابني بحزم.

ـ بكل بساطة لم يحدث شيء على الإطلاق بيننا. وما ذنبي أنا إن كان هو من جهته يحبني؟ قلتُ بدلال مفتعل.

ـ هل تقولين الحقيقة؟

ـ هل رأيتْ؟ لقد دخل الشك رأسك وأنتَ وحدك كفيل بإخراجه، فارحل ولا تعد إلا وأنت مطهر منه.

ـ تريدين أن أرحل كي «يفرغ لك الجو معه».

ـ ومن سيمنعني إن أردت أن «يفضى الجو بيننا»؟ سألته.

نظر إلي بغضب، خبط الباب وراءه ورحل.

الرجال سخفاء وأسخفهم هاني، ألم يفكر للحظة أنني معه بملء إرادتي وأنني لو أردت غيره فما من أحد يمنعني؟ لكن لدى الرجال شعور بلذة ما توقظ عندهم الرغبة حين يتوهمون أن حبيبتهم بين ذراعي آخر، وما الغيرة إلا تظهير لهذا الشعور الملتبس، وهي عند هاني تتجلى بأن يصبح نهماً في ممارسة الجنس، نهماً وفناناً، وهو أمر يسعدني إذ يشبعني. أين المفر وأنا هنا أفق النظر وقاع الحنين، أين المفر يا هاني، ستعود وتعتذر. بالفعل لقد عاد في اليوم الثاني وتابعنا حياتنا بعد أن أخذت جرعة مقويات على أثر غيرته، التي اقتنع بأنها غير مبرّرة.

31

لا يبدو أن ليال سخيفة كما كنت أعتقد وأتمنى. مظهرها واهتمامها به لا يوحيان أنها بهذا العمق. وأن يكون هادي قد أغرم بها هو دليل على صحة انطباعي عنها. لقد جذبتني لا أدري لماذا أنا التي أتحرق غيرة منها. تملك شيئاً ما محبباً يشد الآخر إليها، وأهم ما فيها صراحتها التي تجرح أحياناً، فهي تقول رأيها من دون مواربة وهذا ما دفع سهام إلى الانسجام معها، وأحياناً على حسابي. لكن لن أتركها تسلب سهام مني بعد أن سلبت هادي. حتى هادي سأسترده منها إن كانت صادقة في قولها إن ما بينهما هو مجرد صداقة. أعرف هادي جيداً فهو لا يكتفي بالصداقة ولا يؤمن بها بين رجل وإنسى، أو أنه يؤمن بها فقط إذا دخلها الجنس.

تقول إن لديها عشيقاً، لكن حتى الآن لم تظهره، هل هو لعبة تخفي وراءها ما تريد إخفاءه؟ سأستدرجها إلى إظهاره إن كان

موجوداً فقد أتمكن من الحد من سلوكها اللعوب. هي تدافع عن المساكنة كأمر طبيعي بين شخصين بالغين لا يحتاجان إلى شاهد على حبهما وقد قالت لي مرة في إحدى جلساتنا: «الزواج الحقيقي هو صحة العلاقة بين الطرفين لا العقد الذي يكتب بحضور كاهن أو شيخ». صمتت قليلاً ثم تابعت: «المساكنة يمكن أن تكون بين رجلين أو بين إنسيين أو بين رجل وإنسى، ونحن نشاهد الكثير من المساكنات بين طالبتين أو طالبين ولا أحد يعترض، مع أن هذا النوع من المساكنة ربما كان أخطر من مساكنة رجل لإنسى». هذا ما قالته ووافقتْها عليه سهام، مما أجبرني على التدخل للقول إن الزواج هو إشهار العلاقة. لكنها تابعت: «والمساكنة يمكن أن تكون علنية كما هو الحال بيني وبين هاني. والمساكنة المسكوت عنها بين شابتين أو شابين مثلاً هي علنية، مع أننا لا نعلم ماذا يدور في الداخل ووراء الجدران».

ـ لكننا لم نتعرف إلى هاني حتى الآن، أجبتها لأردها إلى موضوع عشيقها.

ـ لم أجد الفرصة بعد وفي أول مناسبة سيكون برفقتي، أجابتني من دون تردد.

سأفتعل هذه المناسبة لكن سأحضرها على مزاجي، ستكون بحضور هادي كي أتمكن من إرغامه على تقبل علاقة ليال بهاني وعلى الابتعاد عنها، لا أعتقد أن كبرياءه تسمح له بملاحقة إنسى تشهر علاقتها بغيره.

ـ ما رأيك لو أتيت غداً برفقة هاني، نشرب كأساً ونتناول العشاء معاً، وديع سيكون مسروراً جداً وسهام أيضاً. قلت لها كي أنهي

الموضوع بسرعة.

ـ سألبي الدعوة إن كان هاني جاهزاً.

شعرت أنها تتهرب، فهل هذا دليل على أن هاني ليس عشيقها كما تدعي؟ لكن سهام سارعت إلى القول: «إن لم يكن جاهزاً تأتين وحدك، ما المانع؟».

ـ ليس لدي من مانع، لكن والدتك تود التعرف إلى هاني على ما أعتقد، ولهذا السبب سأحاول معه وإن لم يكن جاهزاً ربما أجلنا الدعوة إلى يوم آخر.

ـ تأتين غداً ونؤجل مجيء هاني إلى يوم آخر. أجابت سهام.

ـ ألا يسكن هاني معك؟ ولماذا لا يكون جاهزاً؟ سألتُ.

ـ لا يسكن معي بشكل مستمر، أجابت، فأنا لا أتحمل وجود شخص آخر يشاركني فضائي كل الوقت، لا أتحمل أن أراه دائماً أمامي، أشعر بالاختناق، وعلى الرغم من تعلقي به، أشعر بأن حريتي هي أهم من كل الرجال مهما كانوا، وهو يتفهم ذلك، ولهذا السبب يلبي كل رغباتي ويأتيني حين أكون مستعدة لاستقباله. صحيح أننا نعيش المساكنة، لكنها مساكنة من نوع خاص.

ـ وهل يقبل هو بشروطك هذه؟ قلت بلهجة المستغربة.

ـ إلى الآن هو يقبل، وحين لا يعود يقبل، فهو حر باتخاذ القرار الذي يناسبه. أجابتني.

ـ وأنتِ؟

ـ ماذا تقصدين؟

ـ ماذا ستفعلين إن خيّرك بين المساكنة المستمرة وبين إنهاء العلاقة؟

ـ ستتركه يرحل وتتحرر منه، سارعت سهام إلى القول.

ضحكت ليال وضمت سهام إليها وهي تقول: «الأمر ليس بهذه البساطة». ثم توجهت إلي وتابعت: «سنأتي غداً كما تريدين وستتعرفين إليه».

انصرفت ليال على أمل أن نلتقي مساء الغد وبدأت أنا أحضر الطريقة التي تساعدني على دعوة هادي وجعله يقبلها، فلم أجد وسيلة سوى سهام التي كانت قد سألتني عن أمر في الأدب الفرنسي ولم أستطع إجابتها فقلت لها: «اتصلي بعمو هادي واطلبي منه أن يأتي غداً كي يشرح لك الموضوع». اتصلت سهام به واتفقا على أنه سيمر بنا في تمام الساعة الثامنة وهو وقت مناسب جداً.

32

هل سيأتي هاني غداً؟ عليه أن يأتي لأنني وعدت أمينة أننا سنزورها معاً. إن أتى فسأذهب إلى بيت أمينة برفقته، وإن لم يأت فسأذهب وحدي. لكن إن زرتها وحدي فلن تكون مسرورة، فهي مصرة على التعرف إلى هاني وكأنها تشك بوجوده. عليه أن يأتي، وهذا يتطلب مبادرة مني سأقوم بها باكراً في الصباح حتى يتمكن، إن كان لديه عائق ما، من أن يتخلص منه قبل المساء.

في صبيحة اليوم التالي اتصلت بهاني، وهو أمر عادي بيننا، لكن ما استغربه من الاتصال أنني كرّرت عدة مرات سؤالي له هل سيأتي الليلة.

ـ وهل تريدين أن آتي؟ سألني بلؤم. وتابع: «أم أنك تودين المعرفة كي تستقبلي غيري؟».

ـ فكر كما تشاء، لكن أريد منك أن تزورني.

ـ ولماذا هذا الإصرار غير المعتاد؟ هل بتِّ تخافين من النوم وحدك في هذه الأجواء المتردية؟ سألني ربما تمهيداً منه للإقامة معي بشكل مستمر. وأجبته:

ـ لأننا، وبكل بساطة، مدعوان إلى بيت صديقتي أمينة. وهي تود التعرف إليك.

ـ أنا الآن في البقاع وسأحاول المجيء باكراً إذا سمح الوضع بالتحرك.

ـ مر بي قبل الساعة السادسة، هكذا يكون لدينا الوقت الكافي قبل توجهنا إلى بيتها؟

ـ الوقت الكافي لماذا؟ سأل وقد رأيتُ عبر الهاتف ابتسامته الخبيثة.

ـ أنت تعلم لماذا. أجبته بلهجة أكثر خبثاً.

ـ وهكذا نزور أمينة ونحن مرتويان. قال ضاحكاً.

ـ تماماً. أنتظرك الساعة السادسة.

ـ سأكون عندك قبل السادسة.

ـ أعود من الجامعة، كما تعلم، حوالى الساعة الخامسة.

ـ أعلم، أعلم. إلى اللقاء.

أقفلت الخط وذهبت إلى عملي في المؤسسة حيث أمضيت النهار

وعدت لأرتاح قليلاً قبل ساعة التدريس في الجامعة التي ما إن انتهيت منها حتى توجهت مباشرة إلى البيت حيث وجدت هاني وقد استحم وتمدّد في السرير وهو يحتسي القليل من الوسكي. فما كان مني إلا أن فعلت مثله وأمضينا وقتاً ممتعاً قبل أن ننهض لنهيئ أنفسنا لزيارة أمينة.

ـ ماذا سنأخذ معنا؟ سألته.

ـ كل شيء جاهز، لقد أحضرت زجاجتي وسكي معي في السيارة، أو تعتقدين أنني أتكل عليك في هذه الأمور؟

ـ لا شك عندي بحسن تصرفك، هيا بنا.

ركبنا سيارته، وكانت الساعة قد قاربت الثامنة والنصف، وتوجهنا إلى بيت أمينة. في هذا الوقت يبدأ عادة القصف وتتعكر الأجواء وكنت خائفة من حدوث ذلك لأنه سيعكر لنا سهرتنا. حين فكرت في ذلك لمت نفسي وتساءلت: هل أتمنى الهدوء لأنني أود قضاء سهرة ممتعة؟ وكيف لم أفكر بما ينتج عن تدهور الوضع من قتلى وجرحى ومشردين و... ما هذه الأنانية التي يلجأ إليها المرء حتى على حساب تهديد الآخر مهما يكن هذا الآخر؟

ـ بماذا أنت شاردة؟ سألني هاني.

ـ أفكر بهذه الحرب التي لا توفر أحداً ولا ينتج عنها سوى الدمار والقتل. إنها، بالفعل، حرب مجانية لا أجد لها أفقاً ولا أهدافاً.

وافقني الرأي وقال: «الله يسترنا وننجو من هذه الحرب اللعينة التي شرذمت البلد وبعثرت أبناءه وفرقت بين الأصحاب والأهل».

ـ أتمنى أن يتعظ الناجون بما يحدث الآن، لكن متى سيكون وقت هذا الاتعاظ ومتى سينتهي هذا العبث بحياة الناس؟ قلت كأنني أسأل نفسي.

ـ لقد وصلنا على ما أعتقد، قال هاني، أليس هذا هو الشارع الذي حددته قبل أن ننطلق؟

بالفعل كنا قد وصلنا، فركن هاني السيارة على حافة الرصيف وترجلنا منها متوجهين إلى مدخل البناية حيث تسكن أمينة.

طرقنا الباب، وإذ بوديع يفتحه ويرحب بنا، وما لبثت أمينة إلا أن أطلت وشاركته الترحيب ودخلنا جميعاً إلى الصالون، وما إن جلسنا كل في مكانه ووديع يكرر الترحيب، حتى فوجئنا بهادي وسهام يدخلان علينا وذراع هادي تلف كتفي سهام.

ـ أهلاً بالشيخ هاني، قال هادي، ما هذه المفاجأة السارة؟

ـ وهل تعرفه؟ سألت أمينة مفتعلة الاستغراب.

ـ طبعاً، أجبتها، وقد قلت لك إننا سهرنا معاً في بيتي منذ يومين.

ـ ما عدت أذكر، إذاً لا مجال للتعريف.

اقتربتْ سهام مني وقبلتني، ثم توجهت إلى هاني وسلمت عليه بنوع من الحشرية البادية على وجهها. اكتملت الجلسة ونهضت أمينة برفقة سهام إلى المطبخ، ثم خرجتا منه وكل منهما تحمل صنية، فوق إحداهما كاسات فارغة وفوق الثانية بعض الصحون الصغيرة المليئة بكل أنواع المكسرات والجزر وغيره. ملئت الكاسات بحسب الطلب وبدأت السهرة التي افتتحها وديع بطرح سؤال حول

الوضع الراهن في البلاد.

كنا في شهر أيار من سنة ١٩٨٢ وكان البلد لا يزال في غمار الحرب الأهلية القذرة التي أذاقتنا طعم المر والخوف والرعب والويلات.... تنحنح هادي وقال: «الوضع سيئ جداً ولا أدري كيف ستنتهي هذه الحرب، وأنا متخوف من الأعظم».

ـ أكتر من القرد ما مسخ الله، أجاب وديع ونحن هنا، لن نترك بلدنا.

ـ المهم أن نبقى أحياء في هذا البلد، قلت.

ـ سنبقى، أجاب وديع، هيا فلنشرب نخبنا. لقد تعودنا على جو الحرب ولم يبقَ لنا سوى التمتع بما تسمح به فترات وقف إطلاق النار بين المتحاربين الذين لا ندري لماذا يتحاربون.

ـ يتحاربون على مشروعين متناقضين، أجاب هادي، وتابع: كل فريق يريد جر البلد إلى مسارٍ معين، فهل تريد أن نستسلم للمشروع الصهيوني؟ لسنا مغرمين بالقتال، لكن لا سبيل أمامنا سوى الدفاع عن مشروعنا ضد المشروع الانعزالي الإمبريالي.

ـ لكن الحرب طالت ولا بوادر لنهايتها سريعاً، أجاب وديع، وقد مللنا القتل والدمار والملاجئ والـ.... أما الآن وفي هذه الفسحة من وقف القتال فدعونا نتمتع ولو للحظات قصيرة.

وافقنا وديع الرأي ورُفعت الكاسات وشربنا الأنخاب فقالت أمينة: «الكلام عن حالة البلد لا ينتهي وليس بهذه السهولة، فلننتقل إلى موضوع آخر».

ـ أما أنا فلن أتأخر، قال هادي، لدي موعد مع بعض الأصدقاء، فلو علمت مسبقاً بمجيء ليال وهاني لكنت ألغيت موعدي، لكن....

ـ اتصل الآن وألغِ الموعد، قالت أمينة.

ـ لا، لقد تأخر الوقت، ومن غير اللائق أن ألغي الموعد في آخر لحظة.

نظر إليّ هاني وابتسم كأنه عارف أن هادي على موعد مع حسنية. ابتسمتُ بدوري ولم نعلق بأية كلمة. أما أمينة فقد استاءت وقالت بلهجة متوترة: «شو ها المواعيد بآخر الليل»؟

ـ الليل ما زال بأوله، قال هادي وهو ينهض من مكانه، وتابع: «أستودعكم وأتمنى لكم سهرة ممتعة».

ـ ولك أيضاً يا عزيزي، قال هاني وهو يضحك.

ضحك هادي بدوره كأنهما على تفاهم تام ثم لوّح بيديه وانصرف وتبعته أمينة ولم أدر ما دار بينهما من حديث على الباب.

عادت أمينة إلى مكانها، لكن كل مزاجها كان منقلباً فتابعنا السهرة وقد انتبهتُ إلى أن سهام كانت كل الوقت بجانبي وتحاول أن تقدم لي بعض الفستق واللوز وغيرهما. لم أنتبه إلى سلوكها هذا إلا حين نهرتها أمينة تطلب منها أن تدخل غرفتها لإتمام واجباتها المدرسية.

ـ لقد أنهيت كل واجباتي، أجابت سهام.

ـ إذاً إلى النوم، هيا.

انزعجت سهام من أمها لكنها لبت طلبها، وقبل أن تفعل عانقتني وقالت: إلى اللقاء قريباً.

شعرت بأن الجو تغير وأن أمينة أصبحت متوترة فقلت: «نحن أيضاً نستأذن، لقد تأخر الوقت».

ـ لم تجب أمينة، لكن وديع قال: «تأخر على ماذا؟».

ـ على ما تفكر به، أجبته. ضحكنا جميعاً وتابع: «نيالك يا هاني».

استودعناهما وانصرفنا.

33

إلى أين ذهب هادي في مثل تلك الساعة؟ هل عاد إلى بيته وإلى زوجته؟ لا أظن. حتماً لديه عشيقة، كيف لي أن أعرف من، وهل ليال تعرف؟ سأسألها غداً. لكن من أين لها أن تعرف وهي التي تعتقد أنه متيم بها؟ هل انصرف لأنه لم يتحمل وجود ليال مع هاني؟ هل شعر بالحرج من وديع؟ لكنه معتاد عليه وقد سهرنا مرات عديدة مع زوجته ووديع.

ـ هل رحلوا؟ سألت سهام وهي تخرج من غرفتها.

ـ هل ما زلتِ صاحية؟ سألتها.

ـ لم أتمكن من النوم وأنا أسمع أصواتكم. أين بابا؟

ـ لقد خلد إلى النوم.

ـ لا لم أنم بعد، قال وديع، وهو يدخل الصالون مرتدياً ثياب النوم.

وتابع: هيا فلنجدّد السهرة.

ـ لا، على سهام أن تنام لأنها تستيقظ باكراً، وأنت أليس لديك عمل غداً؟

ـ هل نسيت أن اليوم هو السبت؟

ـ فعلاً نسيت. ما رأيك بهاني، بصديق ليال؟

ـ إنه شاب وسيم ولطيف، لكن...

ـ لكنه ليس لها، تابعت سهام، هي تستأهل رجلاً أفضل منه.

ـ مع أنه مغرم بها جداً كما يبدو. قلتُ لها.

ـ ومن لا يغرم بسيدة كليال، لا ينقصها شيء على الإطلاق، إنها جميلة ومثقفة ومرحة و... أجابني وديع.

ـ وأحياناً سطحية، قلتُ، ألم تلاحظ أنها تفضل الأحاديث الخفيفة على المواضيع الجدية؟

ـ أظن أنها تساير هاني في ذلك لأنه أقل ثقافة منها، وقد لاحظتُ أنها غير ذلك حين نكون وحدنا. أجابتني سهام. فتابعتُ:

ـ حتى في الأمور الجدية هي متشبثة بآرائها ولا تتقبل النقاش.

ـ أنا أرى غير ذلك، فهي مرنة وتتقبل كل الآراء. أجاب وديع مصححاً رأيي.

ـ تتقبلها لكن من دون أن تغير في مواقفها. أجبته.

ـ وهذه هي الديموقراطية. أجابت سهام بكل جدية.

ـ ما هذا التعبير الكبير، وماذا تقصدين به؟ سألتها.

ـ أقصد أن نتقبل الآخر كما هو من دون أن يؤثر ذلك علينا وإلا كنا بلا شخصية وليال تتمتع بشخصية قوية.

ـ لو كانت تتمتع بشخصية قوية لما كانت أغرمت بمن هو أقل منها، وعلاقتها به هي علاقة سيطرة. صححت لها.

ـ الناس أحرار في خياراتهم وأنا أجد أنهما ظريفان معاً. قال وديع، وتابع: على كل حال، ما لنا ولهم، فها هما الآن يتمتعان معاً ونحن نجهد أنفسنا لنحلل علاقتهما، فلنترك الآخر حراً وليفكر كل واحد بذاته.

ـ بدأت أشعر بالنعاس، تصبحان على خير. قالت سهام وهي تنهض من مكانها وتتثاءب.

تركتنا ودخلت غرفتها فما كان من وديع إلا أن قال: «ونحن أيضاً نعسنا». كنت أود أن يدخل وحده إلى غرفة النوم ويتركني لأفكاري التي كانت تتلاطم كموج البحر بحثاً عن أثر لهادي. لكن وديع أصر علي بمرافقتي له وهو يداعبني ويقول: «لن أترك هاني وحده يتمتع هذه الليلة».

كان المشروب قد فعل فعله مع وديع الذي ما إن تمددنا على السرير العريض حتى عانقني وعلامات الاهتياج ظاهرة على كل بدنه. اهتجت بدوري ومارسنا الجنس بنهم وبخاصة من قبل وديع الذي، بتأثير الكحول عليه، استطاع أن يؤخر نشوته إلى أن أشبعني أولاً،

ثم غط في نوم عميق وتركني لأفكاري التي استيقظتْ من جديد لتسحب النوم من جفوني، وأخذت أتقلب في السرير وصورة هادي مع إنسى أخرى لا تفارق خيالي. لكن ما أزعجني بالفعل هو أنني لم أتمكن من تصوّر وجه لهذه الإنسى، وحين أجد لها وجهاً يكون وجه ليال التي كلما أطلت لعنتها، فهي السبب الفعلي في ابتعاد هادي عني حتى ولو أنه الآن مع غيرها على ما يبدو. من هي هذه الساقطة الثانية ومن أين لي أن أعرفها وما الفائدة من معرفتها؟ هل هي من أجواء الحزب الذي يستوعب الآن مما هب ودب؟ قهري وغيرتي لا يحتملان إلا إذا تمكنت من تحطيم ليال وكل من هو مثلها، سأحطمها هذه الشخصية المتشاوفة التي تشعرني بالدونية. سأحافظ على صداقتها كي تظل تحت ناظري، ومن داخل الصداقة سأقوم بما يمليه علي حقدي.

اشتعل صدري كالنار وهببت من السرير إلى الصالون حيث أشعلت سيجارة وجلست أحاول القراءة في إحدى المجلات. كنت أقرأ وصورة ليال وهادي متعانقين تتراءى أمامي. رميت المجلة على الأرض ونهضت أتمشى على الشرفة محاولة تشذيب أغصان بعض الشتول. المدينة تغفو ساكنة وأنا أتحرق غيظاً. أرعبني هذا السكوت الذي ينذر بالعاصفة فدخلت الصالون، أطفأت النور وتمدّدت على الكنبة أستعيد كل لحظات الحب والعشق بيني وبين هادي؛ تذكرت إقامتنا في باريس لمدة قصيرة؛ كنا كعصفورين طليقين لا حسيب ولا رقيب علينا، يغمرني بذراعه ونسير في شوارع باريس حتى نتعب ثم نعود إلى الفندق حيث نتفنن بممارسة الحب الذي كان لا يروينا فنظل نجدّده حتى الصباح الذي يفاجئنا منهكين فننام إلى ساعة متأخرة من النهار لنستيقظ ونعيد الكرة. لعن الله هذه الأيام، لكني لن أتركه ينعم بجديده، سأحطم كل من يقترب منه، سأطول

مخالبي لأحطمه هو أيضاً إن لم يعد لي أنا وحدي.

استيقظت في اليوم التالي على صوت وديع وهو يقول: «هل نمت هنا هذه الليلة؟».

34

ما إن ركبنا السيارة حتى قال هاني: «أظن أن أمينة لا تحبكِ».

ـ ظنونك دائماً سيئة، وممّ عرفت أنها لا تحبني؟ سألته.

ـ ألم تلاحظي أنها كانت دائماً تناقضكِ وتحاول أن تظهر خطأ تفكيركِ؟

ـ إنها طبيعة الحوار، وبالنهاية لكل منا رأيه وهذا لا يمنع الصداقة.

ـ لكن واضح أن سهام معجبة بك ويمكنني القول إنه أكثر من إعجاب.

ـ ماذا تقصد؟

ـ ألم تلاحظي اهتمامها بك، حتى أنها كادت تنافسني. أجاب.

ـ أتفهم غيرتك من رجل إذا اهتم بي، لكن أن تغار من طفلة، فهذا يفوق تصوري. قلت مستغربة.

ـ أولاً إنها ليست طفلة، ثانياً من قال لك إنني أغار. اهتمام من هذا النوع يشحذ قابليتي على الجنس وأنا الآن مهتاج جداً وسترين حين نصل البيت سأجعل صوتك يصل إلى آخر الدنيا.

ـ إذاً، اهتمام سهام بي كان أمراً جيداً. أتى تعليقي.

ـ أنا لا أمزح وأتمنى لو تدعين سهام وحدها وتمارسين معها الجنس، فهي حتماً لن ترفض.

ـ كم أن أفكارك شاذة! ومن قال لك إنني أحب ممارسة الجنس مع النساء؟ ومن سمح لك بأن تتطاول على سمعة من أعتبرها أعز من ابنتي؟

ـ ولكن الأمر مثير جداً، ويمتعني أن أرى إنسيين معاً في السرير ويقومان بممارسات جنسية.

ـ خيالك واسع، لكن اعذرني لن أحقق أمانيك. هيا قل لي هل شدتك سهام؟

ـ شدتني بقدر ما اهتمتْ بك. اعذريني لكن أشتم رائحة غير واضحة.

ـ أنتم الرجال دائماً تفكرون هكذا، لا ترون إنسيين معاً إلا وتسقطون عليهما هواماتكم الذكورية. لماذا لم تفكر بأمينة مثلاً؟

ـ لأنها لا تعجبني، وهي كبيرة في السن ولا تصلح لهكذا

مغامرات، بينما سهام ما زالت في أول شبابها.

ـ وأنا بالنسبة لسهام كأمينة بالنسبة لي، فما الفارق إذاً؟

ـ الفارق أنك غبية، فهل يعقل أن تقارني منظرك مع سهام بمنظرك مع أمينة؟ أجاب متسائلاً.

ـ على كل حال لست شاذاً عن القاعدة، كل الرجال لديهم هذا الهوام. فاتركه في مخيلتك لأنه لن يتحقق في الواقع، ليس لأنني أحاكمه أخلاقياً لكن لأنني لا أحب النساء ولا أتخيل نفسي للحظة مع إحداهن. ولا أتخيل أن سهام كما تتصور.

ـ لقد وصلنا وأنا متشوق إليك جداً. أجاب مقفلاً الموضوع الذي شعر بأنه أزعجني.

ـ ألم تشبعك وصلة بعد الظهر؟ سألته.

ـ أنا لن أشبع منك إطلاقاً بهوامات، كما تسمينها، وبغير هوامات.

في السرير فتح هاني موضوع هادي وتساءل عن سبب انصرافه السريع من السهرة وقال: «لم يستطع تحمل وجودي، ما زلت أقرأ العشق في عينيه».

ـ إنه لم يتحمل وجود وديع، على ما أظن. لكنه أوضح أمامنا أنه أتى لمساعدة سهام في بعض المسائل المدرسية. أجبته.

ـ هل تظنين أن موعده كان مع حسنية؟

ـ ممكن. مسكينة أمينة فهي وحدها الخاسرة.

ـ لكن أشعر وكأنها تحملك المسؤولية فهي ليست غبية وتقرأ مثلي في عيون هادي. لن تقنعيني بأن نظراته إليك ليست نظرات عاشق.

ـ وماذا باستطاعتي أن أفعل وأنت تتهم الرجال والنساء معاً؟ اثبت على قرار كي أعرف كيف أسلك. قلت له مازحة.

ـ المشكلة أن مظهرك يجذب الاثنين؛ الرجال والنساء. أجابني هو أيضاً مازحاً.

ـ وهل أغير مظهري كي أحصل على رضاك أيها الأستاذ في علم الجنس؟ سألته.

ـ أستاذ عن حق، فالتجارب علمتني الكثير بينما أنت تعرفين ما تقرئينه في الكتب وهي كلها أفقر من تشعبات الواقع وحيثياته.

ـ ولماذا لا تكتب تجاربك أيها العبقري؟

ـ أترك لك هذه المتعة. أنا أفضل العيش على الكتابة، بينما أنتم المثقفين تفضلون الورق على نضارة الواقع وإيقاعه الذي تعجزون عن التقاطه. أنتم معقدون وتريدون تعقيدنا، لكنكم ستفشلون، الحياة أقوى من كل المجلدات التي تملأ المكتبات.

ـ لكننا نكتب خبرتنا في الحياة.

ـ وهل أمينة تجسر على كتابة تجربتها مثلاً؟

ـ هنا يبرز الفارق بين كاتب وآخر؛ منهم من يهرب إلى الخارج كأمينة ومنهم من يهرب إلى الداخل.

ـ وأنت مثلها. أجاب كأنه يتحداني.

ـ حتى الآن أنت على حق. لكن متى اكتملت التجربة سأنتقل إلى كتابة من نوع آخر.

ـ آمل ذلك لأنني سأكون أحد أبطال كتاباتك إن لم أقل بطلها الأساسي. قال بكل اعتزاز.

ـ مغرور، فما زالت تجربتي في بداياتها والله وحده يعلم أين ستتوجه. أجبته كي ألجم طموحاته.

ـ أقتلك إن توجهتِ إلى غيري، قال ذلك وهو يقبّلني على ثغري كي ننهي الموضوع ونغط في النوم.

35

بعد أيام قليلة زارتني صديقتي العزيزة عبلة، وهي أول من تعرفتُ إليه حين نقلنا سكننا إلى بيروت، وهي أيضاً من رفيقات زوجي وديع في الجامعة. تزورنا من دون تكليف ويفرح بها وديع جداً وهو يستعيد معها أسماء كل الذين عشقوها في صباها وهي تصرّ على أنه كان واحداً منهم، مذكرة إياه برحلة مصر وكيف تصرّف معها وكيف ضرب ذلك الشاب الذي حاول إزعاجها. لكن كل ذلك كان يدور في جو من المزاح المحبب.

زارتني بعد الظهر وكنت وحدي في البيت، رحبتُ بها، لا بل فرحت بمجيئها لأنها ستنشلني من ارتباكات أفكاري وأحقادي على هادي الذي لم أعد أراه ولا حتى أسمع صوته. وليال أيضاً اختفت ولم أعد أعلم عنها شيئاً وكل تخيلاتي كانت تدور حول وجودهما معاً. فرحت بزيارة عبلة لأنها تعرف بكل أخبار البلد، فلا شيء

يفوتها.

بعد السلام وبعض المجاملات الروتينية من سؤالي عن ابنتها وأسئلتها عن كل أفراد عائلتي، قالت: «كنا البارحة مساءً عند حسنية وأمضينا سهرة ممتعة».

ـ من تقصدين بـ«كنا»؟

ـ كان الكثير من الأصدقاء والصديقات وكانت ليال وعيسى وأحمد و... تابعت تعداد الأسماء وأنا توقفت عند اسم أحمد.

ـ هل تقصدين الرفيق هادي؟ سألتها.

ـ طبعاً، لكنني لا أناديه إلا باسمه الحقيقي. أجابتني.

ـ وهل كانت ليال وحدها؟

ـ أتت برفقة عيسى.

ـ وهادي ألم يأت برفقة أحد؟ سألت.

ـ حين وصلنا وجدناه عندها. أجابتني بكل براءة.

تعرف عبلة علاقة هادي بي، فماذا تقصد من كلامها هذا؟ أما تلك الساقطة فكيف تتنقل من واحد إلى آخر وكيف تأتي إلى سهرة برفقة عيسى هي التي تشهر علاقتها بهاني؟ ما هذا السلوك الذي لا أفهمه؟ لكن ما لي ولها، المهم أن أعرف أين أصبح هادي. كيف سأتصرف كي لا تلاحظ عبلة أنني أتحرى عن هادي، وأتى السؤال منها:

ـ أمينة، ألستِ صديقة لحسنية؟ لماذا لم تُدعي إلى هذه السهرة؟

ـ حسنية ليست صديقتي، إنها مجرد معرفة سطحية. أجبتها. لكنها تابعت:

ـ لكن، يبدو أن هادي على صلة وثيقة بها.

ـ وكيف عرفتِ؟ سارعت إلى السؤال.

ـ من سلوكه معها ومن تقبل الآخرين لهذا السلوك وكأنهم يعلمون أن علاقة ما بينهما.

كبتّ غيظي وأظهرت عدم اكتراثي للموضوع وقلت لنفسي: «إن كان يتقلب بهذه السرعة، فهذا دليل على عدم الجدية»، وحاولت تغيير الموضوع قائلة: «طبعاً أكلتم (الفراكة) الجنوبية؟».

ـ فراكة حسنية لا تفوَّت، والطبق الذي أعده هادي كان، أيضاً، لذيذاً جداً.

ـ أعرف ذلك، فهو طاهٍ ماهر ويجيد تحضير بعض الأطباق الشهية وهو دائماً يساعدني في ذلك حين أدعو الأصحاب.

ـ يبدو أنه يساعد الجميع. قالت عبلة وهي تضحك.

ـ هذه طباعه وهو يتباهى بذلك. أجبتها.

ـ لكنه، كعادته أكثر من شرب الكحول وأخذ يتكلم بالفرنسية. وأجبتها بلؤم المتأذي:

ـ وهل فهمت الست حسنية ما كان يقول بالفرنسية، أم أنها

كانت بحاجة إلى مترجم؟

ـ كانت تضحك وتعلّق على أقواله كما كنا نفعل جميعاً.

ـ وكيف انتهت السهرة؟

ـ لا أدري، لقد انصرفتُ حوالى منتصف الليل وخرج معي بعض الأصدقاء وما عدت أعرف كيف انتهت السهرة؟ أجابتني عبلة.

ـ هل بقيت ليال؟

ـ لا، غادرت معي وأنا أوصلت عيسى إلى بيته.

ـ ومن بقي إذاً؟

ـ بقي هادي وبعض الصديقات الحميمات لحسنية.

حسنية سيدة مطلّقة وأعرف أنها تعيش مع أولادها فسألت:

ـ وأين كان أولادها الست المصون؟

ـ كان ذلك يوم السبت وأولادها يذهبون، عادة، إلى والدهم في الويك إند، لكنني علمت أنه يطالب بهم وأعتقد أنهم الآن معه هو وليسوا مع أمهم.

ـ إذاً خلا لها الجو كي تعيش على هواها. أتى تعليقي.

ـ فلتعش، هي ما زالت صبية ولها الحق في أن تمارس حياتها كما تشاء وبخاصة أنها قد انفصلت عن زوجها. قالت عبلة مبررة سلوك حسنية.

انتهت الزيارة، انصرفت عبلة وتركتني لهواجسي كما كنت قبل مجيئها، لكنني الآن وبعد رحيلها دخلت في متاهة جديدة. لقد دخل المشهد عنصر جديد، عنصر يبدو أنه أخطر من العناصر السابقة؛ فإن رفضت ليال العلاقة مع هادي كما تدعي، فحسنية لن ترفضها ولذلك أسباب عديدة أهمها أن حسنية ستتباهى بهذه العلاقة. وأظن أن دعوة الأصحاب إلى السهرة التي تكلمت عنها عبلة ليست سوى إعلان لهذه العلاقة الجديدة بينها وبين هادي. ما هذه الحرية التي تتمتع بها السيدة المطلقة؟ ولماذا لم أجسر على الطلاق؟ هل علاقتي بهادي مهدّدة دائماً بسبب عدم حسمي الموضوع؟ لكنه هو أيضاً لم يقبل بالطلاق من زوجته. كلانا مسؤول. أتفهم طلاق ليال، فلا أولاد لديها تحمل همهم، أما حسنية فكيف استطاعت القيام بالطلاق ولديها أولاد لا يزالون بحاجة إلى الأب والأم معاً؟ لولا وجود سهام لكنت أقدمت على الطلاق، لكن كونها أنثى وصغيرة، كسر رأسي وأرغمني على متابعة الحياة مع أبيها والمحافظة على الزواج في حده الأدنى. مسكين وديع، ألاحظ أنه يعرف ويغض الطرف، أو لا يبالي. هل هذا دليل ضعف أم دليل قوة؟

دخل وديع وهو محمل بأغراض للبيت التي كنت قد أوصيته بجلبها. وضعها على طاولة المطبخ وانهمكنا في ترتيبها في الخزائن والثلاجة و... قبل أن ننتقل إلى الصالون لنتسمر أمام التلفاز بانتظار سهام التي ما إن أتت حتى تغير جو البيت وخرجتُ من أفكاري السوداوية لأهتم بأمورها. لكننا أمضينا تلك الليلة في الملجأ لأن القصف طاول كل الأحياء ولم يهدأ إلا مع ساعات الفجر الأولى وقد خلّف العديد من الضحايا بين قتيل وجريح كما سمعنا في الأخبار.

36

عدتُ من الهند واتصلت بأمينة.

ـ لهذا السبب لم أعد أسمع صوتك منذ أكثر من أسبوع. سارعتْ إلى القول.

ـ لقد عدت البارحة مساءً من الهند وأول اتصال لي هو بك. أجبتها.

ـ كيف كانت الرحلة؟ سألت.

ـ ليست رحلة، أجبتها بسرعة، بل مهمة، كما تعلمين. لكنها كانت مع ذلك، رحلة ممتعة تعرفت خلالها على بلد كنت أحلم بزيارته، إنه رائع ومختلف كلياً عن البلدان الأوروبية التي نعرف.

ـ لن نكمل الحديث عبر الهاتف، هيا تعالي فأنا بانتظارك.

ـ سأذهب أولاً إلى المكتب حيث سأعطي ملخصاً عن المهمة وآتيك بعد الظهر.

ـ وتمضين السهرة معنا ونتناول العشاء معاً.

ـ العشاء سأتناوله مع هاني الذي ينتظرني على جمر. أجبتها من دون تردد.

ـ له كل الحق، إذاً أنهي عملك وتعالي مباشرة فنتناول الغداء معاً.

ـ لا أريد إزعاجك، القهوة وحدها تفي بالغرض. قلت لها، لكنها أصرت على الموضوع وتابعت:

ـ لا إزعاج، تأكلين مما نأكل، لن أحضر شيئاً آخر.

ـ هكذا جيد، إلى اللقاء. قلتُ لها قبل أن أقفل الخط.

وصلتُ المكتب ورحب بي المدير وهو يقول: «لقد وصلتنا الأصداء، الندوة كانت ناجحة والكلمة التي ألقيتها كان لها وقعها الطيب». وأتى تعليقي:

ـ وصلت الأصداء قبل وصولي، هذا ممتاز.

ـ لا تنسي أنك أمضيت يومين في مطار بودابست قبل أن تجدي طائرة تقلك إلى الشام ومنها إلى بيروت بعد أن تردى الوضع نهائياً أثناء غيابك. وتابع: لقد نجوت من جولة عنف قاسية أرغمتنا على المبيت في الملاجئ أكثر من ليلتين.

ـ وكيف الحال الآن؟ تعرف أن القصف العشوائي يرعبني ومن

حسن حظي أن التدهور الأمني حصل في غيابي.

ـ وهل تفضلين القصف المركّز؟ سأل مازحاً.

ـ أكيد، مع أنني ضد كل هذه الحرب التي ما عدت أفهم سبباً لاستمرارها، وكلا النوعين من القصف يسقط الضحايا البريئة. أجبته.

ـ الله يسترنا من الأعظم، وها هي إسرائيل تهدد باجتياح الجنوب. لكننا الآن في مرحلة وقف إطلاق النار الذي لا نعلم إلى متى سيدوم. هيا أخبريني عن مهمتك في الهند.

ـ لكنك علمت بكل تفاصيل هذه المهمة قبل أن أخبرك بها. فممن حصلت على كل هذه التفاصيل؟ سألته.

ـ العصفورة تخبرنا بكل الأمور، حتى ولو كانت وراء البحار، وقد أخبرتنا بالمزيد.

ـ إذاً لا داعي لكي أقدم أي تقرير للحزب، تعرفون كل شيء.

ـ لكن رأيك يبقى مهماً بالنسبة لنا وننتظر تقريرك.

ـ إنه جاهز، وأنا آتية لأسلمك إياه.

ـ هل يحتوي كل التفاصيل، بما فيها التفاصيل الخاصة؟ سألني والخبث بادٍ على كل تقاسيم وجهه.

صدمني سؤاله، هل علم بالعلاقة القصيرة التي جمعتني ببورج، عضو البرلمان الفنلندي؟ فسألته:

ـ ماذا تقصد بالتفاصيل الخاصة؟

ـ ألم تسمعي التعليقات خلال الندوة؟ قال، وما زالت الابتسامة المعبرة على وجهه.

ـ أية تعليقات؟ سألت.

ـ لا تتهربي، كنت دائماً برفقة شاب أشقر اللون، مما استرعى انتباه المؤتمرين وعلّقوا بالقول إنك تمارسين التمييز العنصري في ندوة مخصصة لعدم التمييز.

ـ هل أنت جاد في ما تقول؟ سألت مستنكرة.

ضحك وتابع: «هل استأنست بهذه العلاقة؟ تعرفين أننا لسنا ضد العشق والحب، ويبدو أن ذلك الشاب كان يطاردك دائماً».

ـ صحيح، فهو شاب وسيم جداً، ولو لم أكن مرتبطة هنا لكنت أقمت علاقة معه، وقد صارحني بأنه مستعد للتخلي عن كل شيء والمجيء إلى لبنان.

ـ ألم يحدث شيء بينكما؟ سأل مبتسماً.

ـ بكل صراحة لا، مع أنه كان مستعداً لكل النتائج. أجبته من دون أن أخفي عليه شيء.

ـ غبية، أتى تعليق المدير، فما الضرر من علاقة عابرة إن كان هناك انجذاب ما؟

ـ لو قمت بها لكان عليّ أن أنهي علاقتي بصديقي هنا وأنا لست

على استعداد لذلك بعد.

ـ ولماذا تنهينها؟ هل هو زوجك؟

ـ العشيق أهم من الزوج لأنك تكون معه بملء إرادتك على عكس الزوج الذي تساكنه أحياناً غصباً عنك.

ـ هنيئاً لصديقك الذي لا تقبلين بخيانته ولو كان في آخر الدنيا. أجاب وهو يضحك ثم تابع: كم أود لو كنت مكانه.

تجاهلت كلامه الأخير وقلت:

ـ الصحيح أنني لا أخون نفسي وليس صديقي.

ـ وهل هو لا يخونك من وقت لآخر؟

ـ بالطبع لا. سارعتُ إلى الإجابة. فتابع وكأنه خبير بسلوك الذكور:

ـ مسكينة، لا تعرفين الرجل على حقيقته.

ـ ربما كنت مسكينة، لكنني حين أعلم أنه خانني تكون النهاية، ألغيه من حياتي.

ـ المهم أن الندوة كانت ناجحة واستعدي للسفر إلى فيينا ـ النمسا في المرة القادمة، ربما قمت فيها بمغامرة ناجحة هذه المرة.

ـ أنا جاهزة في أي وقت.

ـ هل أنت جاهزة للمغامرة أم للندوة؟ سأل مازحاً.

ـ للاثنتين معاً، إذا كان الأمر يهمك، قلت ذلك واستودعته.

37

أتت ليال، عانقتني بحرارة وهي تقول: «الحمد لله على سلامتكم». شعرت برعشة غريبة حين لامس جسدها جسدي وانتابني شعور ملتبس ولاح في خاطري لحظة هرول وراءها هادي بعد اجتماع الهيئة العمومية للحزب... واحترت بين إبعادها عني أو تقبل حرارتها ووجدت نفسي، عوضاً عن الترحيب بها، أقول: «لماذا تأخرتِ؟».

ـ في طريقي إلى هنا التقيت بعيسى ودعاني إلى شرب القهوة في (الكافيه دي باري)، فلبيت الدعوة لاعتقادي أن الوقت ما زال باكراً.

ـ أنتظرك منذ أكثر من ساعة ولم أستطع القيام بأي عمل. قلتُ بلهجة معاتبة.

ـ اعذريني، لكن الجلسة مع عيسى لا تفوّت كما تعلمين، أجابتني بكل تحبب.

ـ الغداء جاهز. أجبتها ونحن نتوجه نحو الصالون.

ـ ألا ننتظر سهام ووديع؟ سألتني.

ـ وديع لن يتأخر، أما سهام فقد تأتي بعد ساعة تقريباً.

ـ وأنا لست جائعة، ننتظرها. قالت.

ـ إذاً سنبدأ ببعض المشروب وتخبرينني عن رحلتك إلى الهند. قلت قبل أن يتخذ كل منا مكانه المعتاد.

ـ أولاً هذه هدية صغيرة من ذلك البلد، قالت ليال ذلك وهي تقدم لي كيساً بلاستيكياً صغيراً، فتحتْه وأخرجت منه عقداً من العقيق الأبيض.

ـ شكراً، إنه جميل جداً ولونه رائع. قلت لها ثم قبلتها ووضعتُ العقد حول عنقي، وقد لاحظت أنها تحمل كيساً آخر وضعته إلى جانبها.

ـ لقد اخترت الأبيض لأن غالبية ملابسك هي مزيج من الأبيض والأسود. أوضحت.

ـ حسناً فعلتِ، شكراً. أما الآن فكلي سمع، كيف كانت الندوة؟

تنحنحت ليال وبدأت بالكلام:

ـ كالعادة كانت الندوة ناجحة، لكنني استمتعت بالبلد الذي

يجمع كل غرائب الدنيا، وحيث يتجاور الفقر المدقع مع الغنى الفاحش. تصوري أننا مررنا في أحياء كل أطفالها كالهياكل العظمية، وحيث حجم البعوضة فيها يفوق حجم الجرادة، وكلها مستنقعات وروائح مزعجة، بينما بعض الأحياء الأخرى هي في أعلى درجات الرقي... لكن الرحلة إلى تاج محل كانت الأمتع، تخيلي أن سكان المدينة كلهم يتنقلون على دراجات ولا ترين في طرقاتها إلا السيارات التي تقل السياح. لكن تاج محل هو فعلاً من عجائب الدنيا.

ـ لدي فكرة، لقد قرأت عنه ورأيته في المجلات والتليفزيون، قلت ذلك كي أدفعها إلى الاختصار لأنني أريد الكلام في أمور أخرى. فهمتْ قصدي وقالت: «الواقع مختلف، لكن أخبريني ماذا حدث هنا في فترة غيابي؟ أظن أن الأمور تدهورت، حتى أن المطار قد أقفل مما اضطرنا إلى العودة عن طريق دمشق بعد أن أمضينا يومين ننتظر الطائرة في مطار بودابست.

ـ صحيح أن الوضع تدهور، لكن ذلك لم يمنع البعض من إقامة السهرات. أجبتها.

ـ أين سهرتم؟ عاجلت إلى السؤال.

ـ قلت البعض، وأنا لا أستمتع بأية سهرة حين يكون الوضع الأمني مصعداً. أجبتها باستعلاء ظاهر يفصح عن رفضي. لكنها دافعت عن ذلك السلوك وقالت:

ـ إنها الرغبة بالحياة وتحدي الموت، فكلما اشتد الخطر، كلما أصبح التحدي أكبر، وأنا مع هذه السهرات التي تنسيكِ الواقع المؤلم. أين كانت السهرات إذاً، وكيف علمت بها؟

ـ عند الست حسنية، وعبلة هي التي أخبرتني. أجبتها باقتضاب.

ـ كنت هنا حين أقامت حسنية سهرتها، وكنت من المدعوين إلى تلك السهرة اللطيفة، سهرة محببة أخرجتنا من همومنا واستمتعنا بالأطباق الشهية والأحاديث الغنية، وهادي كان فيها، كعادته، النجم.

ـ سخيف هادي، كيف يُبتذل بهذه الطريقة ويقبل هذا النوع من السهرات الفارغة؟ أتى تعليقي المباشر والعفوي.

استاءت ليال من كلامي وقالت بعصبية: «كنا مجموعة من مثقفي هذا البلد، لا بل أهم مثقفيه».

حاولتُ تلطيف الوضع وقلت:

ـ لا أقصد الجميع، لكني على يقين بأن البعض هم من المتطفلين على الثقافة ويحشرون أنفسهم حيث لا مكان لهم.

ـ ومن تقصدين بالمتطفلين؟ سألت وهي مستاءة.

ـ حسنية، مثلاً، هل هي بالفعل مثقفة؟

ـ طبعاً، وهي مثلنا جميعاً أستاذة في الجامعة.

ـ لكننا لم نقرأ لها شيئاً حتى الآن.

ـ أن لا تكتب فهذا لا يعني أنها غير مثقفة، ثم لا تنسي أنها ما زالت في بداية حياتها.

ـ في بداية حياتها بعد أن تزوجت وأنجبت وطلقت و...

فقاطعتني ليال ودافعت عن حسنية قائلة:

ـ هي حرة بحياتها وأنا لا ألومها، أم أنك تريدينها أن تمضي كل حياتها بالقهر مع زوج ما عاد يعني لها شيئاً؟ وهل الطلاق أصبح عيباً؟ إن من يطلق يستعيد علناً حريته بدل أن يمارسها في السر كما تفعل بعض الزوجات.

كلامها أصابني مباشرة وكرهتها، إذ إنها أسمعتني ما أهرب منه دائماً، لكنني تجاهلتُ الأمر وأعدتها إلى حسنية كي أستوضح منها إن كانت على علم بعلاقتها بهادي فقلت: «هل ما زال هادي يزورك؟».

ـ بعد أن علم واقتنع بعلاقتي بهاني لم أعد أراه إلا في المناسبات العامة. أتى جوابها خالياً من أي انفعال، فتابعتُ:

ـ ولهذا السبب لجأ إلى حسنية التي، على ما يبدو، تستقبله بالأحضان وتفخر بعلاقتها به.

ـ هي حرة ولا علاقة لي بالموضوع، لكننا سنسمع منه شعراً جديداً إن أغرم بها، قالت ليال مازحة.

ـ هادي يعشق كي يكتب الشعر وليس العكس.

ـ تعرفينه أكثر مني. اكتفتْ بالإجابة.

دخل وديع وتغيرت الأجواء وما لبثت سهام أن أتت وكان اللقاء بينها وبين ليال عناقاً وقبلات أشعرني بنوع غامض من الغيرة. جلستا جنباً إلى جنب وقدمت ليال لسهام هدية من الهند وهي تقول: «أتمنى أن تعجبك، هل هذا هو طلبك»؟ كلامها هذا يعني

أن سهام كانت قد أوصتها على شيء معين، متى حصل ذلك؟ كانت الهدية قميصاً من الحرير الهندي الوردي اللون والمزركش ببعض الرسوم الملونة.

ـ هذا تماماً ما أريد، قالت سهام وهي تنشر القميص، ثم تقدمت من ليال وقبلتها من جديد وهي تشكرها وتردد: «ذوقك يطابق ذوقي تماماً، سأجربه فوراً». خلعت سهام قميصها وأصبحت نصف عارية، فسارعتُ إلى القول: «ادخلي غرفتك، أم أنك تقومين بحفلة تعرية (ستريبتيز)».

ـ اتركيها، أجابت ليال، فكلنا من جنس واحد ووديع في غرفته، اتركيها على حريتها.

لم يعجبني جواب ليال، لكن سهام كانت قد ارتدت القميص الجديد وهي تقول: «إنه رائع، الآن سأدخل غرفتي لأرى نفسي في المرآة». ثم خرجت من غرفتها، قبّلت ليال من جديد وجلسنا إلى الطاولة لتناول الغداء فاستقطب وديع كل انتباهنا بأحاديثه ونكاته المسلية.

38

خرجت من بيت أمينة والأسئلة تنهال على رأسي كالمطارق. لكن أول فعل تحررت منه هو إعفائي من إخبار أمينة عن علاقة هادي الجديدة بحسنية. لقد عرفتْ بالموضوع والآن جام غضبها ينصبّ على حسنية بعد أن كان قد انصبّ عليّ لفترة، وها إن حسنية ليست مثقفة أو أنها غير مسؤولة أو سطحية أو.... كل ما يمكنه أن يشوه صورة الإنسان، مع أن حسنية سيدة جميلة ومثقفة وتبغي التحرر وبناء حياتها على أساسه.

لكن ما استوقفني هو سهام وعفويتها التي لا تعجب أمها. سهام شابة مليئة بالحيوية وكلها عفوية كأنها لا تخشى الانقضاض على الحياة والتمتع بها بكل اندفاع الشباب المتحمس مرافقاً بنوع من الاستهتار الذي لا يروق لأمينة التي تطلب من ابنتها كل الرزانة متجاهلة الفارق في السن بينهما. تنسى أمينة أو تتناسى أن جيلها

هو مختلف تماماً عن جيل ابنتها الذي ترعرع وكبر في أجواء حرب عنيفة دفعته إلى التمسك بالحياة وعيشها بنهم، وذلك لمحاربة طيف الموت المخيم على كل البلد. أحببت في سهام اندفاعها هذا، وقدرت عالياً عدم شعورها بالانكسار الذي نشعر به نحن أبناء الجيل الذي نشأ على آمال كبيرة يرى أنها تتحلل أمام ناظريه. باختصار سهام هي نقيض أمها التي تريد قولبتها كي تأتي نسخة عنها غير مدركة أن ما تقوم به سيدفع سهام إلى الابتعاد عنها والتماهي بالنقيض الذي، أشعر أنها تجده في شخصيتي وهو أمر ربما زاد في حذر أمينة مني. لكن لن أتوقف كثيراً عند هذا الموضوع فسهام شابة ذكية وتعرف كيف تساير أمها من دون أن تتخلى عن قناعاتها وسأشجعها على ذلك لأنني أحببتها وسأحاول مساعدتها.

رافقتني هذه الأفكار مسافة الطريق بين بيت أمينة وبيتي الذي كنت أتوقع أن أجد هاني ينتظرني فيه. لكنني لم أجده وسرعان ما رن جرس الهاتف وسمعته يقول: «أين أنت؟ منذ ساعة وأنا أتصل ولا أحد يجيب».

ـ لا تكثر من الأسئلة، أنا بانتظارك. أجبته بسرعة قبل أن أقفل الخط.

بعد أقل من ربع ساعة، كان هاني عندي في البيت وقد أحضر معه كل ما يلزم لتمضية سهرة تكون نتائجها على مزاجه ومزاجي. كنا في غرفة الجلوس والتلفاز يبث الأخبار وسمعنا أن إسرائيل بدأت باجتياح الجنوب. تغير الجو نهائياً وأصبحنا مشدودين إلى محطات التلفاز نتنقل من واحدة إلى أخرى لمتابعة كل جديد، وكلها أذاعت أن الجيش الإسرائيلي يتقدم. أخفضت صوت التلفاز واتصلت بأخي لأستعلم منه عما يجب القيام به وأتاني تحليله كالآتي:

ـ أظن أن الجيش الإسرائيلي سيتابع زحفه إلى بيروت.

ـ وما العمل؟ سألته.

ـ أنا باقٍ حيث أنا، في العاصمة، سأرسل العائلة إلى بيت جدهم في المنطقة الشرقية وأبقى وحدي هنا. كان جوابه القاطع.

ـ وأنا باقية أيضاً، سأبقى معك، قلت له.

ـ لا أنصحك بذلك، بل أطلب منك أن ترحلي إلى المنطقة الشرقية بأسرع وقت، والليلة قبل غدا.

ـ أتركك وحدك في بيروت وأهرب؟ هل هذا ممكن؟

ـ نحن نستطيع الاختباء في أماكن عديدة ساعات القصف ولا أريد أن أحمل همك. لا تجادلي كثيراً، احزمي أغراضك واذهبي إلى بيت أختنا أمل، لن أكرر طلبي. قال بلهجة حاسمة.

ـ كما تريد، أتى جوابي وأنا كلي قلق ودهشة.

أخبرت هاني بما دار بيني وبين أخي من كلام فقال: «هل أنت مجنونة كي تبقي في بيروت إن كان صحيحاً أن إسرائيل ستتابع زحفها إليها؟ إنهم يريدون إخراج الفلسطينيين من لبنان، وأظن أن هذه المعركة ستكون حاسمة. هيا بنا، أنا سأوصلك إلى بيت أمل الآن وليس غداً. على كل حال أنا لن أبقى في بيروت ولن أتركك فيها وحدك مهما رفضتِ».

ـ سأفعل، لكن دعني أتصل ببعض الأصحاب لأقف على ما سيقومون به.

ـ ما علاقتك بهؤلاء الأصحاب، كل واحد يخلّص راسو.

لم أمتثل لطلبه واتصلت أولاً بأمينة، فأتاني جوابها أنها باقية في بيروت، لن تترك هادي وحده وهو حتماً لن يترك العاصمة في لحظات كهذه.

ـ وسهام؟ ألا تخافين عليها؟ وما ذنبها كي تعاني مثلك؟ ما رأيك لو ذهبت معي إلى المنطقة الشرقية؟ سألتها.

ـ لا، لا فسهام وأبوها سيقرران معاً إلى أين سيذهبان. أجابتني مستنكرة طلبي.

استودعتها واتصلت بعيسى وأتاني جوابه أنه سيرحل إلى الشمال مسقط رأسه. ثم اتصلت بعبلة وفهمت منها أنها باقية في بيروت، وأخيراً اتصلت بحسنية وأتاني جوابها أنها سترحل مع أولادها وزوجها السابق إلى فندق على أحد شواطئ الساحل الشرقي. لم أتصل بهادي لاقتناعي أنه لن يغادر العاصمة مهما حصل.

كان هاني، كل ذلك الوقت، يتأفف ويحثني على الإسراع لكي أجمع أغراضي ونرحل.

ـ وهل أترك سيارتي هنا؟ سألته.

ـ حتماً ستذهبين معي وإن سمح لنا الوقت فسأتدبر أمر نقلها في الأيام الآتية. المهم أن تأخذي معك ما أنت بحاجة إليه لمدة أيام قليلة، لا أظن أن الأمر سيطول.

بالفعل جمعت بعض الأغراض وأهمها علبة المصاغ والملف الذي يضم شهاداتي الجامعية، وجواز السفر و... وتوجهنا إلى جونيه بعد أن أعلمت شقيقتي بمجيئي.

الأيام المعدودة تحولت إلى شهور.

39

ـ ما هذه المناضلة المهمة التي تهرب أمام أول امتحان! ها إن هذه الرفيقة التي تمثل الحزب في المؤتمرات الدولية ترتعد خوفاً لمجرد إشاعة أو احتمال. هنا يظهر الفارق بين الأصيل والمزيف. هي ليست فقط مزيفة بل مخبولة كي تطلب مني أن ترافقها سهام حيث هي ذاهبة؟ إنها بالفعل غبية، هل أترك سهام وحدها معها ومع آرائها المنفلتة من كل عقال وحتى من كل أخلاق؟ لكن ربما كانت نيتها حسنة وتريد أن تساعدني وتنقذ سهام من الخطر المحتمل إن وصل الجيش الإسرائيلي إلى بيروت. عليّ ألا أكون سيئة النية دائماً؛ لو كانت كما أحدس في عمق أعماقي، لما عبّرت عن طلبها بكل وضوح وعفوية. سأتصل بهادي وأستشيره حول الموضوع، فوديع قد خرج للقاء شلة الأصحاب التي يلعب معها الميسر وسهام نائمة.

ـ الاحتمال كبير أن يصل الجيش الإسرائيلي إلى بيروت، فهو يريد

محاصرة أبي عمار وقواته التي بدأت تترك الجنوب نحو العاصمة، أجابني هادي.

ـ وماذا ستفعل؟ سألته.

ـ نقاوم، ليس من حل آخر.

ـ ألا نهرب كما تفعل صديقتك ليال؟ أجبته ساخرة.

ـ وأنتِ ماذا ستفعلين؟ سأل متجاهلاً تعليقي.

ـ هل تتصور أنّ من الممكن أن أتركك وحدك تواجه الخطر؟

ـ وماذا عن سهام وعن وديع؟ هل يريدان البقاء في بيروت؟

ـ لم نناقش الموضوع بعد، لكن تصور أن ليال عرضت عليّ أن ترافقها سهام إلى جونيه.

ـ ولمَ لا؟ فسهام ما زالت صغيرة ومن الأفضل تجنيبها الخطر إذا أمكن.

ـ وأنت أين تذهب بعائلتك؟

ـ سيسافرون إلى فرنسا.

فرحت بقوله، إذ شعرت أن الجو سيخلو لنا ولو تحت القصف وأنه سيعود لي وحدي. لكن عدت إلى موضوع سهام وقد لمعت في رأسي فكرة من الممكن تحقيقها، فقلت: «ما رأيك لو ذهبت سهام أيضاً إلى فرنسا، فهي قد أنهت،كما تعلم، المرحلة الثانوية... ماذا لو بدأت دراستها الجامعية في فرنسا؟».

ـ فكرة ممتازة، لكن يا عزيزتي من أين التمويل؟ سألني وهو العارف

بإمكاناتنا المادية المحدودة.

ـ سأطلب لها منحة من مؤسسة الحريري وأنا واثقة من الحصول عليها لما بيننا وبينه من علاقة ودية.

ـ الأمور إذاً، محلولة، ووديع؟ سارع إلى السؤال.

ـ سيذهب حيث يشاء فأنا متأكدة أنه لن يبقى في بيروت.

ـ وهل تجسرين على البقاء وحدك؟ سألني متجاهلاً سبب بقائي في العاصمة.

ـ لن أكون وحدي، سأكون معك، نموت معاً أو نحيا معاً. أجبته بكل جدية واقتناع.

صمت للحظة ثم قال: «افعلي ما ترينه مناسباً، أنت حرة». قال قبل أن نقفل الخط.

لم يعجبني جوابه، لكن أين المفر له؟ لن يستطيع الهروب مني وإلى أين؟ ها هي ليال ترحل، ومن المؤكد أن حسنية ستفعل مثلها لأنهما مناضلات بالاسم فقط، لكن حين يكون الجد يبان الأصيل من المتطفل والمدعي الذي يغرّ أحياناً، لكن لا بد من أن يُفضح وها هي المناسبة آتية لتكشف كل هؤلاء المتطفلين المدّعين. إنما لا بد لي أن أطرح السؤال على ذاتي: هل أعاند وأبغي البقاء في بيروت للمقاومة كما أدّعي، أم أنني أبقى لأمور محض ذاتية؟ وما المانع إن التقى الذاتي بالموضوعي؟ ومن قال إنهما دائماً متناقضان؟ كل الأمور المهمة في التاريخ تحصل نتيجة تلاقيهما.

سأناقش الموضوع مع وديع وسهام غداً صباحاً لأن وديع لن يعود، كعادته، قبل طلوع الفجر حين يكون على طاولة الميسر وهو قد

أبلغني بذلك، ولن أوقظ سهام من نومها. وهذا ما حصل؛ ففي صبيحة اليوم التالي حين استيقظ وديع باشرت بطرح الموضوع وكان جواب وديع لامبالياً كعادته إذ قال: «لا أظن أن الجيش الإسرائيلي سيصل إلى بيروت، وإن وصل فسنفعل كما يقول المثل: حط راسك بين الروس وقول يا قطاع الروس».

ـ هذا ليس جواباً جدياً على موضوع جدي. قلت له.

ـ وماذا تريدين منا أن نفعل؟ الهرب إلى الجنوب مستحيل، وليس لنا أحد في المناطق الشرقية.

ـ سهام ستسافر إلى فرنسا لمتابعة دراستها. وبعد أن شرحت له إمكانية ذلك تابعت سائلة: «وأنت؟».

ـ سأبقى هنا في بيتي مهما صار.

استأت من جوابه وشعرت أنه سيعطل كل مخططاتي وحاولت إقناعه بالذهاب إلى أعالي الشوف حيث تسكن شقيقته.

ـ نذهب، إن أردت، إلى الشوف.

ـ أنا لن أترك بيروت لأنني ملتزمة، وعلينا أن نناضل، وإلا فما معنى الالتزام؟

ـ افعلي ما تشائين، أما أنا فسأغادر بيروت اللحظة التي تغادر فيها سهام. وسنترك لك النضال وتوابعه. أجابني باستهتار.

في غضون يومين كان وديع عند شقيقته، وكانت سهام في باريس حيث ساعدتها زوجة هادي في إيجاد مسكن مؤقت كي تتمكن من تدبير أمورها بانتظار المنحة التي طلبتها لها ووُعدتُ بها.

40

وصلتُ إلى بيت شقيقتي أمل وكانت مع زوجها وابنتها، وبخاصة، طارق، بانتظاري بعد أن هيأت لي، في غرفة طارق التي تعرف علاقتي به، مكاناً لإقامة مريحة، وأمضينا تلك الليلة نتحادث حتى الفجر تقريباً.

في اليوم التالي اتصلت بأمينة وأخبرتني عن برنامجها وحسدتها على شجاعتها سائلة: «ماذا بإمكانك أن تفعلي في بيروت؟ لماذا لا تحاولين الخروج؟».

ـ هذا هو وقت الامتحان، قالت بكل جدية وكأنها تحطّ على عيني، وتابعت: «إن ترك الجميع بيروت فستكون لقمة سائغة للعدو».

ـ يبقى فيها المقاتلون الذين يستطيعون الدفاع عنها، وما بقاؤنا معهم

إلا تعطيل لعملهم.

ـ إنه الصمود، والمقاتل يشعر بالشجاعة أكثر إن كان محاطاً بأهله.

ـ لكنه سينشغل بتأمين الملاجئ لهم.

ـ سيهتمون بأنفسهم، أم أنك تريدين إقناعي بأن الهرب هو الحل؟ سألتني بلهجة متعالية.

اقتنعت بكلامها، لكنني كابرت وحاولت إظهار صحة وجهة نظري، إلا أنني فشلت أمام إصرارها وتمنيت لها السلامة.

بعد أقل من أسبوع وصل الجيش الإسرائيلي إلى تخوم بيروت وبدأ الحصار الذي امتد إلى ثلاثة أشهر والعاصمة تدك بالمدافع والقنابل بدون انقطاع ليلاً ونهاراً والطيران الإسرائيلي يلاحق أبا عمار من بناية إلى أخرى. وفي كل يوم كنا نتصل بأخي لنطمئن عليه، كذلك كنت أتصل بأمينة وعبلة أيضاً وأحيّي صمودهما وأنا شبه عاتبة على نفسي من عدم تمكني من العمل مثلهما وقد عبرت عن رأيي أمام شقيقتي التي هونت علي وأقنعتني بأن ما قمت به هو عين الصواب وقالت: «ألا يكفي أن شقيقنا لا زال في العاصمة تحت القصف؟ واحد منا يمثل كل العائلة وهو بمقاومته يعبر عن مواقفنا جميعاً».

طال الحصار على بيروت وشحت المياه وانقطع الخبز والبنزين و... كل ذلك والصمت العربي هو وحده سيد الساحة، تُدكّ بيروت ويعلو صمت العواصم العربية وأنا في حالة عجز مطلق، حالة رمتني في شبه لامبالاة سلبية، إذ بت أبحث عما يخرجني من ذاتي فالتجأت إلى هاني الذي كان يأتيني كل يوم ليصطحبني إلى البحر أو المطعم أو النوادي الليلية أو... وننهي نهارنا في الشاليه التي

يملكها في مجمع سياحي حيث نمارس الحب والجنس بجشع مما ركز في ذهني ما كنت قد قرأته عن تجاور الجنس مع الشعور الملح بالموت. كنت كمن ينتقم من نفسه، لكن الأمر أعجب هاني الذي ازداد اهتمامه بي وبات جاهزاً لتلبية كل رغباتي ومزاجيتي التي تمثلت بتعلقي الفائق بطارق الذي كان يرافقني في كل برامجي النهارية مع هاني، فكنت أصطحبه معنا إلى البحر وإلى المطاعم وحتى إلى زيارة بعض الأصدقاء. أما في الليل فكنت أعيده إلى بيته لأرتمي في خضم ملذاتي الخاصة مع هاني والتي ما إن انتهى حصار بيروت حتى كرهتها وأصبح همي الوحيد هو العودة إلى بيتي وحياتي السابقة.

لكن هذا الحصار الذي دام لثلاثة أشهر انتهى باحتلال الإسرائيليين لبيروت؛ دخلوها معتقدين أنها صيد سهل. هم لم يحتلوا يوماً عاصمة عربية، بيروت هي أولى تلك العواصم التي تجرأ العدو على احتلالها، لكن، ربما، الصمت العربي شجعه على عمله هذا. صحيح أنهم دخلوها منتصرين لكن دخولهم هذا استنهض الهمم في نفوس المقاتلين الذين هبوا متحدين لتحويل انتصار العدو إلى جحيم وانكسار؛ طاردوه في كل أنحاء المدينة وبتنا نسمع عن عمليات ضدهم كل يوم مما دفع العدو إلى الاستعانة بمكبرات الصوت ليعلن قرب انسحابه من بيروت وهو يردّد، كما وصلتنا الأخبار: «لا تطلقوا النار علينا سننسحب قريباً». دخلوا بيروت منتصرين وجالوا في شارع الحمرا ودخلوا مقاهيه لتصورهم أنهم أسياد الميدان وهم لا يدرون أن هذا الشارع سيصبح محرّماً عليهم وأن فيه أبطالاً سيضحون بحياتهم دفاعاً عنه وعن كل بيروت، قلب لبنان،كل لبنان.

دخلوا مقهى (الويمبي) وأتاهم الرصاص من مسدس أحد الأبطال

ليحول أحدهم إلى جثة هامدة مما زرع الرعب في قلوب الآخرين الذين هرعوا هاربين من الموت المحتّم، إن تمادوا في غيهم.

هذه الحادثة وأمثالها الكثير والتي اشترك فيها كل أطراف الحركة الوطنية من شيوعيين واشتراكيين ومرابطون وقوميين وأمل و.... أرغمت العدو على الانسحاب من بيروت وهو يتلطى من ضربات المقاومين الذين لاحقوه حتى انسحاب آخر فرد من جنوده وجيشه الذي لا يجيد القتال إلا عن بعد حيث يستعين بالطائرات والقذائف وبكل وسائل التكنولوجيا التي تقدمها له الولايات المتحدة الأميركية وسواها. أما في القتال المباشر حيث تظهر، بالفعل شجاعة الإنسان، فهم جبناء ولا يحسنون إلا الفرار، وهذا ما أظهرته مجدداً حربهم على لبنان في شهر تموز سنة ٢٠٠٦ ؛ لقد استطاعوا تدمير كل ما طالته طائراتهم المغيرة بوحشية على البشر والحجر، لكنهم انكسروا أمام إرادة المقاوم، انكسروا وهزموا وانسحبوا وسجل التاريخ العربي أول انتصار مميز على عدو جبار مدجج بكل وسائل النصر، لكنه لا يملك الشجاعة، تلك الشجاعة التي تمتع بها أبطال المقاومة في دحرهم لأعتى جيش في المنطقة وتسجيلهم الانتصار.

انتهى الحصار وحُرّرت بيروت. لكن الحصار والتحرير انتهيا بخروج الفلسطينيين من العاصمة اللبنانية التي احتضنتهم لسنين، خروج رافقته تحية كل الصامدين في العاصمة والذين لم أكن معهم بينما مارست أمينة صمودها حتى النهاية وكانت بين المودعين لأبي عمار وهي ترفع له إشارات النصر كما أخبرتني حين التقينا. لكنني لاحظت أن مرارة ما تعتصرها. لم أفهم معنى تلك المرارة التي عبرت عنها بأن قالت كأنها تنقد نفسها: «ربما كنتِ على حق حين تركت بيروت».

ـ هل كان الحصار قاسياً؟ سألتها.

ـ هناك ما هو أقسى من الحصار. قالت وعلّقتُ على كلامها:

ـ صحيح، فذلك الصمت العربي هو أقسى من الحصار.

ـ ربما، لكنني أتكلم عن صمت آخر، صمت في الحيز الخاص.

صمت آخر لم تفصح عنه، لكنني حدست به ولم أرغب في أن أستوضحها بشأنه لأنه،كما يبدو، هو مؤلم بالنسبة لها.

41

بدأ حصار بيروت وأنا وحدي في البيت وكنت كلي أمل أن يتفرغ لي هادي بعد أن أرسل عائلته إلى فرنسا وبعد أن غادرتْ كل من ليال وحسنية العاصمة. كنت كلي أمل بأنه لن يجد إلا حضني ليحتمي فيه وبه من كل الخارج. هيأت نفسي لمسامحته واحتضانه وحبه كما لم أحبه يوماً، هيئت نفسي لأن نتحدى الموت معاً. كنت أحلم أنه يأتيني بالخبز والماء والغاز و... التي أصبحت كلها نادرة. حلمت أننا نختبئ معاً في الملجأ، أن أختبئ وأتوغّل في صدره وأن يعانقني ويغمرني بذراعيه أمام كل المختبئين من دون حرج أو حياء. كل ذلك تبخر بعد بداية الحصار بوقت قصير وكل ما كنت أحلم به تحول إلى غيري مع محافظة على الحد الأدنى تجاهي. كان يسأل عني ويأتيني ببعض السلع المفقودة، لكنه كان يفعل ذلك كمن يقوم بواجب أخلاقي وليس عن حب.

عشت الحصار وحدي وتمنيت لو بقي وديع معي لأن وجوده كان خفف عني الكثير. في وحدتي تلك لم أجد سوى عبلة التي كانت تخفف عني، واتصالات ليال شبه اليومية التي كانت تدل عن صدق اهتمامها بي. أحببت ليال عن بعد وأنست لها ووطدت نفسي أن أصادقها عن حق إذا نجوت من ذلك القصف الذي هدم مباني عديدة في بيروت وكل واحد منا كان ينتظر دور بنايته.

في خضم ذلك الوضع علمت أن هادي على علاقة بإحدى المناضلات وأنه يمضي الوقت إلى جانبها. لم يعرف، ذلك الغبي، أنني بقيت في بيروت من أجله، من أجل أن أجدّد علاقتي به. لقد أبعدت ناسي كي يخلو لي الجو معه ولو تحت الخطر. سفر سهام، لم أندم عليه لأنني مصرّة أن تتابع دراستها في الخارج، أما وديع، فقد ندمت جداً على إبعاده. هو أيضاً سأمتّن علاقتي به وسأحبه من جديد نكاية بذلك المغرور المتفلت من كل قيد أو اعتبار، ذلك السافل الذي يغرم كيفما كان وأينما كان.

اسمها نجوى، والكل يعرفها. هل كان يعرفها قبل هذا الحصار؟ يقال إنها من خارج الحزب، فكيف تعرف إليها وأحبها بهذه السرعة؟ لا أستغرب سلوكه فقد سبق أن انتقل من ليال إلى حسنية بسرعة، لكنه كان يعرف حسنية جيداً من قبل. أما نجوى فكيف ظهرت وأين؟ هل أسأله عنها؟ هل أذل نفسي وأستجديه؟ لو كنتُ واثقة من النتيجة لفعلت لكنني أعرفه جيداً فهو يصبح كالأعمى حين يغرم؛ صورته وهو يهرول وراء ليال أمام الجميع وأمامي لا تفارق ذهني. لكن سأحاول نسيان تلك الصورة لأن ليال خذلته ولم تستجب لهرولته وراءها. يستأهل، ذلك المغرور الذي يعتقد أنه قادر على إغواء من يشاء من النساء. وحدها ليال رفضته، لكن

ذلك لا يلغي أنها كانت أول من تركني من أجلها. غير أنها لم تُبهر به كما فعل غيرها من حسنية إلى... والآن نجوى. وإن لم تبهر به فهذا دليل على شخصيتها القوية وثقتها بنفسها، ولهذا السبب يمكنها أن تكون صديقة وفية. هل أتمكن من مسامحتها ومعاملتها كصديقة؟ هل سأتمكن من مبادلتها الوفاء؟ سأحاول ومحاولتي ليست بريئة، سأبحث عن السر الذي جذب هادي إليها. هل اختلافها، في الشكل، عني؟ هل اختلاف شخصيتها عن شخصيتي؟ سأكتشف كل ذلك وأنا مصرة على مصادقتها، شيء ما في داخلي يدفعني إلى ذلك من دون أن أفهمه جيداً.

ليتني رافقت وديع إلى الشوف، لكنت تجنبت كل العناء الذي مررت به، لكنت أقنعت نفسي أن بعدي عنه هو الذي رماه في أحضان سواي. لكن أنْ أصرّ على البقاء في بيروت رغم كل الخطر وأن أكافأ بهذه الطريقة فهو أمر، حقاً، لا يحتمل. لن أكذب على ذاتي، لقد بقيت في بيروت من أجله وليس من أجل النضال، لكن تجاهله لي دفعني إلى المكابرة وإقناع نفسي وإقناع الآخرين أنني لم أغادر بيروت لأنني مؤمنة بالقضية النضالية وهذا ما سأحاول الاستمرار على تكراره أمام الجميع وحتى الافتخار به ولو من دون اقتناع. لن أتراجع عن موقفي النضالي وخاصة أمام ليال التي لم تتردد لحظة في حسم أمرها والخروج من بيروت قبل وقوع الخطر. في داخلي أجد أنها كانت على حق في سلوكها، لكني لن أعترف لها بذلك، ولن أسمح لها أن تشمت بي. لكنها ليست غبية وستفعل إن علمت بعلاقة هادي الجديدة بنجوى وستعلم.

كنت غارقة في تحليلاتي هذه حين رنّ جرس الهاتف وسمعت صوتها، وأتاها جوابي: «أنا بانتظارك».

42

التقيت أمينة وكان اللقاء بيننا حاراً جداً إذ استقبلتني كما لم تفعل سابقاً، قبلتني وسحبتني من يدي إلى الصالون وجلستْ بالقرب مني وهي تكرّر كلمات الترحيب. كانت جلسة ودية للغاية، إذ استمعت منها أخبار المآسي التي عاشها الناس في العاصمة خلال الفترة الماضية، لكنها كانت معتزة بدحر العدو عن بيروت وإرغامه على الخروج منها بعد أن تجرأ ودخلها: «كانت المقاومة رائعة وأجبرت إسرائيل على التراجع والانسحاب لأنها شعرت أنها في جو معادٍ لها بكل معنى الكلمة. لم تصمد أمام مقاومة الأبطال لها. لكنها، للأسف، لم تنسحب من لبنان كله».

ـ حقاً إن مقاومة بيروت للاحتلال هي مفخرة العرب الذين، لا أدري إن كانوا بحاجة إلى هذه المفخرة، بعد أن قام بعضهم بصلح منفرد مع العدو. أجبتها.

ـ لكن الحصار كان قاسياً جداً، قالت بمرارة.

ـ ها قد انتهى وصمدتم وهذا هو المهم. قلت مواسية.

ـ صحيح انتهى لكن... قالت ذلك ولم تتابع.

ـ لكن ماذا؟ سألتها مستفسرة.

ـ لكن هناك أشياء كثيرة انتهت. قالت وهي تهز برأسها صعوداً وهبوطاً.

ـ نعم لقد انتهت المقاومة الفلسطينية في لبنان. أتى تعليقي البريء.

ـ أنا مع المقاومة داخل الأرض المحتلة، قالت، ولا أقصد انتهاء المقاومة الفلسطينية بل موضوعاً آخر.

ـ ما هو؟ وهل لي أن أعرفه؟

صمتتْ وشردت بفكرها بعيداً عني. انتظرتُ قليلاً وأعدت السؤال وأتى جوابها تنهيدة عميقة تعبر عن حسرة أو خسارة لا تعوض. صمتُّ واحترمتُ وضعها وحاولت تغيير الموضوع، فسألتها عن أخبار سهام في فرنسا. عادت إلي وأجابت: «سهام بخير وتسلم عليك، لقد كلمتها اليوم وأخبرتني أنها سُجلت في الجامعة وتبغي العودة إلى لبنان لتمضية ما تبقى من الصيف قبل بدء الدروس في شهر أيلول».

ـ هذه أخبار جيدة، ومتى تأتي؟

ـ قريباً.

ـ ووديع ما هي أخباره؟

ـ وديع شمت بي حين أخبرته عن معاناتي خلال الحصار وكان تعليقه: وماذا فعلت بصمودك هذا؟ لم تكوني إلا فماً إضافياً في أزمة الخبز والماء وسواهما.

ـ وبما أجبته؟ سألتها ضاحكة على تعليق وديع.

ـ لو فعل الجميع مثلك لفرغت بيروت وتحولت لقمة سائغة للعدو.

هل تحط على عيني وتسمعني، بطريقة غير مباشرة، أنني تخليت عن بيروت؟ وقلت: «هل تظنين أن الذين غادروا كانوا مرتاحين على وضعهم؟ أنا، من ناحيتي كنت أتعذب كثيراً، فأخي كان مع الصامدين وأنت أيضاً وعبلة وهادي و... كلكم أعزاء على قلبي.

ـ ها إنك تذكرين هادي، آه لو تعلمين ماذا فعل بي هادي! هل عادت حسنية إلى بيروت؟

ـ لقد فعلت، قلت بسرعة وأنا أفكر أن أمينة مستاءة من علاقة هادي بحسنية.

ـ هي أيضاً ستجد أن هادي تغيّر.

ـ ماذا تقصدين؟ سألتها بحشرية ظاهرة.

هنا أخبرتني عن علاقته الجديدة بنجوى وعن إهماله لها خلال الحصار. كانت تتكلم وفي صوتها حسرة. ولكي أرفع من معنوياتها قلت:

ـ ستين سنة على أمثاله، غيره أفضل منه إن كان لا يعرف معنى الوفاء ولا يحافظ على علاقاته.

ـ كيف حال هاني؟ سألتني متجاهلة ما قلت.

ـ إنه بخير وهو لم يتركني لحظة واحدة.

ـ حافظي عليه وأعود وأكرر لك نصيحتي بالزواج منه لأن لا أمان للرجل.

ـ قراري حاسم في الموضوع، وإن تركني فسأطوي صفحته، كما قلت لك سابقاً، لن أسمح لأي رجل أن يعذبني.

ـ هل أنت، حقاً، مغرمة به؟ كلامك لا يوحي بذلك. سألتني مستغربة ما قلت.

ـ أنا مغرمة به، لكن كرامتي أهم من غرامي. لن أسمح للغرام أن يذلني.

ـ لا أتكلم عن الإذلال، بل عن الحسرة التي يتركها عندك من أحببته، حتى أكثر من نفسك.

ـ وهنا يكمن الخطأ، علينا أن نحب أنفسنا أكثر من أي شيء آخر. أجبتها.

ابتسمت أمينة وقالت: «أحسدك على ما أنت عليه وعمرك ما زال يساعدك على العنتريات أما..». لم تكمل جملتها لكنني فهمت ماذا تقصد وأجبتها: «لو كنت في الستين من عمري لما تغير موقفي».

ـ حين تفنين أروع سنين عمرك في حب أحدهم لا بد أن تشعري بالحسرة حين ينتهي الحب وبخاصة حين ينتهي من جهة واحدة، من

جهة الآخر. كان حباً لا مثيل له.. وأسهبت في إخباري كيف بدأت علاقتها بهادي ومنذ متى وكل ما تخللها من عشق وأنهت كلامها قائلة: لم أكن أظن أن حباً كحبنا سينتهي، لكن، مع العمر، نصبح مطواعين... soumises (قالتها بالفرنسية) ونقبل بما تبقى لنا من فتات هذا الحب وهو الصداقة وهي ما زالت قائمة بيني وبينه، لا أريد أن أفقده نهائياً، وقد اتفقنا على اللقاء مرة واحدة في الأسبوع، لقاء في مكان عام لأن ما بيننا الآن ما عاد بحاجة إلى السرية.

بعد أن استمعت إلى كلامها الذي دام وقتاً طويلاً وهي تروي وتستطرد وتتحسر، وأحياناً تصمت، نظرتُ إلى الساعة في يدي فقالت: «لقد تأخر الوقت وأظن أن هاني ينتظرك، فاستمتعي بما أنت فيه قبل فوات الأوان».

استأذنتها وانصرفت.

43

لماذا بحتُ أمام ليال بما كنت أعتبره سري؟ كنت بحاجة إلى من يسمعني. لكن لماذا هي؟ هي التي تركني من أجلها؟ هل تسرعت؟ لكنني أشعر بالراحة الآن بعد أن أفرغت كل ما كان حبيساً في صدري منذ سنوات. هل ستحافظ عليه؟ حدسي يقول لي إنها موضع ثقة. مارستْ سحراً علي وسحبتْ مني كل ما كنت أخفيه. لكن يجب الاعتراف أنها مستمعة جيدة وتشارك الراوي كل تأثراته مما يدفعه إلى الاستفاضة في الكلام. ما هذه الخفة التي أشعر بها الآن بعد انصرافها! بوحي لها بمكنونات قلبي أزاح الثقل عن صدري... هناك شعور آخر امتزج مع هذه الخفة وهو شعور بالامتلاك، والامتلاك الحصري؛ أشعر أن ليال أصبحت لي ولي وحدي. لكنها أصبحت أيضاً الشاهد على هزيمتي وهي سببها ولهذا أكرهها. ما هذه الآلية المتناقضة التي وضعت نفسي فيها من دون أن أدري؟ سأحافظ على صداقتها، لكن لن أسمح لها أن

تخرج من تحت جناحي، لن تطير وحدها، بعيداً عني وهي طموحة جداً، لكنها غارقة في علاقتها بهاني مما يسد الأفق أمام تقدمها وتحقيق طموحاتها وسأشجعها على الاستمرار في ما هي عليه، سأساعدها على البقاء في المستنقع، لن أسمح أن ينبت لها جناحان كما تحلم... ما لي ولها؟ ها قد حان وقت إياب وديع، وأنا في حالة تهيج غريب؛ سأجهز له كأساً ونتناول العشاء معاً وبعد..

ما إن أكملت التحضيرات حتى أتى وديع وهو، كعادته، دخل البيت بمزاج مرح وحين رأى ما كنت قد قمت به، أثنى على جهدي وقال: «هكذا تكون الإنسى سيدة البيت».

لم يعجبني كلامه، لكني ماشيت منطقه وقلت: «هيا اخلع حذاءك أيها السيد لأغسل رجليك كما هو واجب الإنسى في بعض المجتمعات الراقية». وهو كرجال كل هذا الشرق لا تعنيهم نجاحات زوجاتهم الفكرية، لا بل يهتمون فقط بما يقدمنه لهم من انصياع لرغباتهم وذكورتهم ولا يعتبرون أن إنتاج الإنسى الأدبي أو الفكري هو من اختصاصاتها. هل الرجل يغار من الإنسى إن أنتجت؟ ربما، وربما اعتبر أنها تضيع وقتها بأمور تافهة كما يحاول وديع الاستخفاف بكل إنتاجي ونجاحاتي في هذا الميدان. لكنني لا أكترث لتعليقاته التي تأتي أحياناً جارحة وأتابع الطريق التي أعتبرها طريقي.

ـ ما هذا اللطف الزائد الذي لم أعهده فيك من قبل؟ هل تخبئين لي «خازوقاً» ما؟ ردّ وديع على طلبي أن أغسل رجليه.

ـ أخبئ لك كل الود والمحبة. ها قد أصبحنا وحدنا من جديد بعد أن غادر الأولاد البيت، كل إلى مستقبله و...

ـ هل تعدينني بشهر عسل جديد؟ قال وهو يقترب مني.

ـ سنشرب كأساً ولتأتِ النتائج كما تأتي. أجبته.

ـ لكن الأمر يستدعي الاسترخاء، سأخلع ثيابي وأرتدي «دشداشتي» ثم آتيك لنجدد ما انقطع بيننا منذ زمن.

دخل وديع غرفته وسألت نفسي: ما هذه الرغبة التي تجتاحني؟ هل هي الانتقام؟ هل أحاول خيانة متعمدة لهادي الذي ما فتئ يخونني منذ فترة؟ هل أثأر منه أم أثأر من ذاتي؟ كنت جاهزة لممارسة الجنس مع أي رجل، ولحسن حظي أن وديع غب الطلب.

ـ هيا أنا جاهز، ماذا تريدين أن نشرب؟ سألني وهو يخرج من غرفة النوم.

ـ النبيذ الأبيض. لقد اشتريت زجاجة ووضعتها في الثلاجة.

ـ أنا سأهتم بالموضوع.

فتح الزجاجة، سكب النبيذ ورفع كأسه وهو يقول: «بصحة زوجتي العزيزة التي عادت إليّ والتي كدت أفقدها».

لم أفهم ما يقصد من قوله هذا، هل هو يلمح إلى علاقتي بهادي والتي تجاهلها كل هذا العمر أم أنه يقصد أمراً آخر؟ لكنني أجبته بسرعة:

ـ اهتماماتي الأدبية والفكرية لن تأخذني منك بعد الآن، سأوفق بينكما بشكل يريحك ويشعرك بالسعادة.

ـ هذا ما كنت أتمناه طوال حياتي معك. أجاب.

تأكدتُ أنه لم يقصد علاقتي بهادي، وهو حتماً لن يصرح عنها حتى ولو قصدها لأن كرامته على المحك، فتجاهلت الأمر مثله وشربنا أنخاب صحتنا وصحة أولادنا وتناولنا العشاء وانتقلنا إلى غرفة النوم مهتاجين، فساعدني على خلع ملابسي كما فعل في ليلة زواجنا وارتمينا على السرير متعانقين وبدأ بمداعبة جسدي و... كنت معه في الفراش وذهني شارد يحوم في هوامات تمحورت كلها على مشاهدة هادي وهو ينظر إليّ أمارس الجنس مع غيره وأنا أتشفى وأزداد هيجاناً ووديع يتلذذ ويردد: «منذ زمن طويل لم أشعر بهذه المتعة». هل انتقمت من هذا الوغد؟ لا أدري.

44

توطدت علاقتي بأمينة وبتنا صديقتين، فبعد البوح الذي قامت به أمامي، شعرتُ بالمسؤولية تجاهها وبحسرة على ما آلت إليه مما عزز تمسكي بصداقتها ومحاولة صونها بكل ما أتمكن. دخلت داخلها وأدخلتها في دواخلي وأصبحنا كصفحتين مفتوحتين نقرأ فيهما معاً ونصحّح ما نراه خطأً. بتنا لا نفترق عن بعضنا حتى تحولنا إلى مادة تعليقات من بعض المعارف إذ كان كل من يرى واحدة منا، يسأل مباشرة عن الثانية.

وبما أنني كنت لا أعرف الكثير من أهل المنطقة الغربية، فقد بادرت أمينة إلى تعريفي على الشلة التي تنظم برامج معها، يسهرون معاً ويلتقون باستمرار، كل مرة في بيت أحد منهم. كانت شلة طيبة وكلها نشاط واستعداد للفرح ولإقامة السهرات العامرة التي يتخللها الطعام والشراب والرقص وقد كانت إحداهن ترقص بشكل رائع

كأن الموسيقى تمر عبر جسدها المتسق.

كنت أصطحب هاني إلى بعض السهرات، لكن دون أن ينسجم كلياً مع الأجواء، كان يشعر أنه ليس مقبولاً كلياً من الجميع بسبب علاقته غير المشروعة بي وقد سمعت بعض التعليقات التي كانت كلها تنتهي بضرورة الزواج لأن المساكنة غير مرغوب بها. كانت عبلة التي رافقتنا في سهرات عديدة هي الوحيدة التي لا ترفض علاقتي بهاني مما أوجد بينهما نوعاً من الود وبخاصة أن عبلة كانت على علاقة مشابهة مع أحد الرجال المرموقين في البلد.

كل تلك اللقاءات مع الآخرين لم تمنعنا من أن يحتفظ كل منا بعمله الخاص إذ كانت أمينة شبه مهووسة بنشاطها النقدي الذي تكرس له الوقت اللازم وأنا كنت أحترم عملها هذا وأحاول ألا أزعجها في فترات الكتابة أو القراءة أو غيرهما من عدة النقد الأدبي الذي هو مجال اختصاصها بامتياز؛ فهي تتابع كل ما يكتب وينشر من روايات وقصص وشعر و... وتعلق عليه سلباً أو إيجاباً وفقاً للمعايير النقدية التي تمتلكها والتي تعلمتها من بعض النقاد العرب والأجانب. ومع ذلك كانت تهتم بنشر كتبها حول النقد وتتقن إخراجها مع دور النشر كي يأتي العمل شبه كامل. كنت أجلّ هذه الجدية عندها وكانت تقرأ علي بعض أعمالها ونناقش معاً بعض القضايا، لكنها لم تكن تثق بحسي النقدي الذي كان أحياناً كثيرة يتعارض مع حسها، إذ كنت ألج الموضوع من باب الفلسفة من دون أن أعير اهتماماً كبيراً للنواحي التي كانت تطرحها. كانت دائماً تحاول أن تظهر خطئي في التحليل وتمارس نوعاً من الأستذة وأحياناً تجادلني في مجال اختصاصي ولا تقتنع إلا بما هي مقتنعة به سلفاً. لكنها كانت تملك جلداً على النقاش يتعبني أحياناً ويدفعني

إلى التسليم بما تقول حتى ولو لم أكن مقتنعة به، وتنتهي جلساتنا بانتقالنا إلى المواضيع الخاصة حيث تتغير الأجواء وتعود الحميمية بيننا من جديد، وتحرضني على الزواج والإنجاب قبل فوات الأوان وأنا أناقشها بلاجدوى الإنجاب لأنني غير مستعدة لتحمل مسؤوليات الأولاد وهي تصر على رأيها إلى أن أنهي الموضوع بالقول: «سأرى».

كانت عبلة تشاركنا أحياناً الجلسات وبعد انصرافها في كل مرة، تعلق أمينة عليها بالقول: «إنها لا تهتم إلا بالأمور الاجتماعية وبأقاويل الناس مع أنها مثقفة وأستاذة في الجامعة».

ـ يمكن أن تكون عبلة على حق فالنقاش الثقافي متعب وهي تبحث عما يريحها، أجيبها وننهي الموضوع لننتقل إلى غيرها من الأصحاب حيث تتم الغربلة أحياناً بتحبب وأحياناً أخرى بخبث. وكنت ألاحظ أنها تحاول أحياناً، إثارة غيرتي بإطرائها المبالغ بإحدى صديقاتي وتحثني على إدخالها في الشلة. وحين كنت أصطحب أحياناً تلك الصديقة، هدى، المتخصصة في علم النفس والتي لديها عيادة تعالج فيها المشكلات النفسية، إلى بيت أمينة، كنت أشعر باهتمامها المفتعل بها وبمحاولتها الثناء على ذوقها وأناقتها هي التي كانت تنتقد أحياناً تأنقي وتراه مبالغاً به. كنت دائماً أتفهم أمينة في سلوكها هذا وأحياناً كثيرة كانت هدى تلفت نظري إلى اهتمام أمينة بها وتقول: «كأنها تريد إثارة غيرتك».

ـ ولماذا أغار؟ سألتها، مرّة، مستغربة.

ـ الأمور معقدة ولا ندري دائماً ما يحركنا وكيف يعمل اللاوعي عند كل منا، ربما كان لديها ميول غير واضحة تجاهك وأنت

تتجاهلين الموضوع وهي تبغي شد انتباهك إليها. أجابتني وهي تبتسم.

ـ أنت دائماً تحاولين سحب الأمور إلى أماكن غامضة وبعيدة و...

ـ إنها مهنتي، ودوري هو أن أكشف المستور وراء السلوك. أجابتني قبل أن أتابع.

ـ لكن أمينة متزوجة وكان لديها عشيق وهي إنسى عادية و...

ـ لا تتابعي، أعرف كل ذلك. وكل ذلك لا يمنع أن يكون لدى الإنسان ميول غير واعية ونحن نلتقطها من بعض التفاصيل الدالة، لدى أمينة شعور متناقض تجاهك؛ فهي فعلاً تحبك وفي الوقت نفسه تكرهك.

وكنت أجيبها دائماً: «سأكتفي بمحبتها وأغض الطرف عن كرهها لأنها ستكتشف، في النهاية، صدق مشاعري ووضوح شخصيتي. فأنا حين أحب شخصاً أصدق معه وحين أكرهه ألغيه من قاموسي». وتجيبني: «كل الناس ليسوا واضحين مع ذاتهم ولا تستطيعين التعميم، ربما كنت أنت من الواضحين مع أنفسهم وخطأك أنك تسقطين وضوحك لنفسك على الآخرين وتطالبينهم بما أنت عليه أو، ربما تعاملت معهم على هذا الأساس، وهنا أقول لك إنك ستحبطين وسيخيب أملك بالكثيرين. وهذا بالذات، ما يدفعني إلى الحذر في كل علاقاتي حيث قليلاً ما وجدت الصدق الذي أجده فيك. وهذا الصدق هو دليل على الثقة بالنفس التي لا يتمتع بها الكثيرون».

ـ ومن تقصدين بالكثيرين؟ أسألها.

ـ إن اللبيب من الإشارة يفهم، كانت تجيبني هدى ضاحكة.

45

أخبرتُ ليال عن حياتي وعن بعض أسراري واحتفظتُ بالكثير لنفسي، بالكثير الذي لن أبوح به لأحد لأنه ملكي الخاص ولا يحق لأحد، مهما كان قريباً، أن يطلع عليه. ربما كتبته يوماً، هكذا أبعده عن الخاص لأجعل منه عملاً أدبياً مميزاً ولأحول معاناتي إلى معاناة إنسانية كلية. هذا هو مشروعي بعد أن أنتهي من كتابة النقد الذي لن أدفن حياتي فيه وحده، فأنا أتوق إلى عمل إبداعي خاص يكون هو موضوع النقد، لقد تعبت من اللهاث وراء النصوص الأدبية ووراء الأدباء، سأصبح واحدة منهم وسأترك لغيري مهمة تناول نصي كما أفعل أنا الآن مع نصوص المبدعين. لكن النصوص التي سأكتبها وأنا أملك كل أدوات النقد ستكون صعبة التناول، ولن يجد فيها النقد من سلبيات تشفي غليله وسيقف عاجزاً أمام نصوص شبه كاملة ولا تشوبها شائبة ولا ثغرة يدخل منها ليتحكم بها كما أفعل أنا الآن مع النصوص التي أنقد. ستكون النموذج

الذي طالما انتظره الأدب العربي المعاصر.

أما هي، ليال فقد أخبرتني عن كل حياتها، كما تدعي، ولم «تبقِ بيننا سراً» كما قالت. شعرت بصدقها وبأن كلامها جدير أن يكتب لأنه يمثل معاناة عامة تطال كل النساء في عالمنا العربي، لكنني لم أشجعها على الكتابة، لا بل سخفت هذا الموضوع ودفعتها إلى الاستمرار في كتابة البحوث والدراسات الفكرية والفلسفية كما كانت تفعل من وقت لآخر وهي دراسات موزعة في مجلات معينة ولا تشكل عملاً موحداً أو توطئة لمشروع كبير ينقلها إلى مصاف الكاتب صاحب أعمال محددة.

على كل حال كنت واثقة من أن ليال لن تكتب تجربتها لأن من يحكي، لا يكتب، لا بل يكتفي بالأثر الذي يتركه كلامه على السامع وهذا يشكل لديه نوعاً من الشعور بأهميته، شعور يلغي الهمة على الكتابة التي هي عمل مضن ونتائجه غير مباشرة كما نتائج الكلام الحي أمام مستمع يتلقى وينفعل.

بالإضافة إلى ذلك، فليال من الأشخاص الذين يهتمون كثيراً بأناقتهم ومنظرهم الخارجي وهو اهتمام يأخذ الكثير من الوقت ويحول الحياة إلى الخارج بينما الكتابة هي النظر في الداخل والاستغناء عن كل قشور الخارج التي تتعلق بها ليال. لكنني لم ألفت انتباهها إلى هذه الناحية، لا بل شجعتها على المتابعة في ما هي عليه وقد جرتني أحياناً إلى سلوكها هذا ورأيت نفسي مرات عديدة أرافقها إلى الأسواق حيث كنا نختار الملابس والأحذية وغيرها من لوازم الاعتناء بالبشرة من كريمات وزيوت وأحمر شفاه و....كنت أحب سلوكها هذا وأحاول المكابرة لأبرز اختلافي عنها، لكنها لم تكن تكترث لاختلافي هذا وتتابع مشترياتها كما تريد من

دون أي حرج. كنت أحسدها على صراحتها مع ذاتها وأتمنى لو أستطيع ممارسة الخفة التي تمارسها لكنني لم أتمكن من ذلك وكانت تلاحظ ارتباكي وقد قالت لي في إحدى المرات:

ـ اخرجي من ذاتك ولو لمرة واحدة ومارسي نفسك كما تشتهين. لقد لاحظتُ سلوكك في السهرات مع الشلة حيث يكون الجميع في حالة ارتياح، لاحظت أنك تقمعين نفسك دائماً وكأنك تخجلين من حقيقتك وهي جميلة جداً كما بتُّ أعرف. عيشي عفويتك ولو للحظات، كل شيء عندك يخضع لمقاييس العقل التافهة. مارسي إنسيتك وتخلي عن هذا القناع القاسي الذي يخبئ روحاً طرية كالوردة.

كلامها هذا ذكرني بما قاله لي، مرة، هادي. هل هذه الجدية هي التي أتعبته وأبعدته عني؟ لا أظن، لأنني، معه كنت على سجيتي أعيش عفويتي، لكنني أعترف أنني كنت معه كثيرة الحذر خوفاً من افتضاح أمري أمام زوجي وأولادي وأمام الناس. وليال لم تصمت بل تابعت:

ـ أنتِ كوّنت لنفسك صورة عُرفتِ بها وهي صورة الناقدة الجدية التي لا تساوم والتي تقوم بعملها على أكمل وجه، وألغيت الإنسان العادي فيك، حتى أنك، أنت ما عدت تتعرفين إليه، لقد تحولت إلى هذه الصورة وأصبحت أسيرتها. حطمي هذه الصورة وعيشي ذاتك الفعلية الطيبة.

أقنعني كلامها لكنني لم أرضخ لمنطقها وأجبتها:

ـ الصورة التي تتكلمين عنها هي أنا بالفعل وإن حطمتها حطمت ذاتي.

ـ لا تكابري، هذه الصورة هي التي كونها الآخرون عنك وقد أعجبت بها لأنها موضعتك في حيِّز كنت تطمحين إليه، ولهذا السبب ما عدت تميزين بين الحقيقي العفوي الطيب وبين المفتعل والمصطنع. أنت تخافين من تحطيم الصورة هذه التي تتلذذين برؤيتها حتى ولو شكلت عندك انفصاماً. عيشي حريتك كما يحلو لك ولتتحطم كل الصور. نحن من يصنع صورته وليس الغير وصورتنا يجب أن تكون مطابقة للأصل وإلا حصل الانفصام الذي تعيشه غالبية الناس من دون أن تجرؤ على فضحه ولا حتى بينها وبين ذاتها. أما أنت، فأنا متأكدة أنك ترين الازدواجية، وعوض أن تبدديها تحاولين ترسيخها حتى أن اختيارك لملابسك يوحي أنك تفعلين المستحيل للمحافظة على هذه الصورة، وحتى تسريحة شعرك و... لا تحاولين كسر الإطار الذي وضعوا صورتك فيه.

ـ لا تتابعي، صحت بها من ألمي، لأنها وضعتني وجهاً لوجه أمام ذاتي.

صمتت وأقفلنا الموضوع.

46

هذا الحوار الذي دار بيني وبين أمينة حفّز في داخلي إعادة قراءة لذاتي إذ طرحت على نفسي السؤال الآتي: هل أطبّق، بالفعل، ما قلته لأمينة؟ سؤال وضعني أمام المرآة لأتحرى عن مدى الصدق فيها، هل أنا أمارس قناعاتي بكل حرية من دون الأخذ بالاعتبار آراء الآخرين؟ هل أنا أصيلة أم أتوهم ذلك عن وعي وعن غير وعي؟ باختصار عدت إلى بيتي مسرعة لأقف أمام ذاتي ولأتفحص مقدار الزيف في شخصيتي، هذا الزيف الذي أسقطه على أمينة من دون أن أراعي مشاعرها حتى دفعتها إلى الصراخ لإسكاتي. هل أتجرأ على فضح ذاتي أم أنهرها كما نهرتني أمينة؟ لا، سأكشف الأنا الفعلي في داخلي ولتأت النتائج كما ينبغي، لن أساوم ولن أهادن، فإما أن أكون حقيقة ذاتي أو لا أكون.

أغلقت نوافذ الخارج وأغمضت عيني لأرى داخلي بوضوح، وهكذا

جلست وجهاً لوجه مع ذاتي ودامت المواجهة لساعات تبين لي خلالها أنني على غير اتساق تام مع ما أنا عليه بالحقيقة وأنني، في كثير من الأمور، في الموقع الذي رفضته عند أمينة، وكان أول ما خطر ببالي علاقتي بالحزب وراجعت كل الأمور التي مررت بها خلال انتسابي إليه وتذكرت كل الحوارات التي كانت تدور بيني وبين عيسى حول نظرته إلى الحزب والتي كانت كلها تصب في صلب قناعاتي من دون أن أملك الجرأة على إعلانها كما يفعل هو. وبعد تحليل معمق وأظنه صادقاً، لكل هذه العلاقة تبين لي أن ما أقوم به ليس، بالفعل ما أريده حقاً وورد على ذهني السؤال التالي: «هل قتلت الأب في حياتي الخاصة لأنصّب على ذاتي أباً في الحياة العامة»؟ وكيف لي أن أقتل الأب في الحياة العامة؟ سأفعل به ما فعلته مع أبي الفعلي، سألغي سيطرته عليّ، لكن كيف؟ من الداخل لن أتمكن من ذلك، وهنا لاحت في خاطري فكرة الاستقالة عساي أسترد حريتي وأخرج من التماهي مع الصورة التي يشكلها الحزب عني، وأعتقد أنها ليست صورتي بكل أبعادها. أعترف أن كل ما أقوم به داخل الحزب ليس إلا هروباً ممتعاً إلى الخارج على حساب الداخل الذي ظهر لي بحالة خدر يشبه الموت؛ هل السفر وتلميع الصورة هو ما أريده؟ وهنا طرحت على نفسي السؤال حول ما أريده فعلاً وأتى الجواب: أن أكون ذاتي بالخاص وبالعام من دون مواربة ولا تجميل. لكن ماذا يعني هذا القول: أن أكون ذاتي وما هي ذاتي وهل، بالفعل، أدرك كنه ذاتي؟

أمام هذا السؤال الكبير شعرت بالتعب وقرّرت تأجيل المحاسبة إلى مناسبة أخرى، ورحت أستعد لفتح نوافذ الخارج من جديد وأول نافذة فتحتها كانت تلك التي توصلني بعيسى الذي أثق أنه يفهم تساؤلاتي ويستطيع مساعدتي في بلورة أسئلتي واقتراح الحلول.

ـ هل نلتقي في الكافيه دي باري؟ سألته عبر الهاتف.

ـ بكل تأكيد، إلى اللقاء، أجابني.

تم اللقاء بيننا ودام أكثر من ساعتين طرحتُ خلالهما كل إشكالاتي وهو يستمع مبتسماً قبل أن يمسك بيدي ويقول:

ـ حالتنا واحدة، لكنني سبقتك إلى اتخاذ القرارات ولهذا السبب تريني أبتسم، لقد تركت الحزب وقرّرت أن أعيش هامشيتي بكل أبعادها، ما عدت مهتماً لكل ما يدور حولي و....

ـ وماذا ستفعل بهذه الهامشية؟ سألته.

ـ سأكون ذاتي بكل وضوح، لا مساومة بعد اليوم. قال بكل جدية.

ـ وهل عرفت ذاتك التي تريد عيشها بالفعل؟

ـ سأتعرف إليها في السياق وإن تمنّعت فسأداري تمنعها وأتعايش معها. أجابني بلامبالاة كلية.

ـ ألهذه الدرجة أنت محبط؟

ـ ليس إحباطاً، بل رغبة جامحة في العودة إلى دفء الداخل بعد أن أنهكني برد الخارج.

ـ والصورة التي تكونت عنك عبر كل مراحل عمرك النضالي؟

ـ سأمسح بها مؤخرتي.

ـ هذا أفضل ما تفعله. قلت، لأن جوابه أتى منسجماً مع تطلعاتي الجديدة.

شددت على يده وافترقنا كل منا يبحث عن هامشيته التي هي ذاته التي تنكر لها طول حياته والتي أهملها كل تلك الفترة من الانجذاب إلى الخارج.

عدت إلى بيتي مرتاحة، فاستجمعت ذاتي محاولة استعراض المجالات التي أستطيع فيها ممارسة هامشيتي. بدأت من عملي في الجامعة، من باب رزقي وتبين لي أنه المكان الأمثل لنقل تجربتي إلى الأجيال الصاعدة، قررت أن أغير أسلوبي في التدريس لأفتح باب النقاشات مع الطلاب كي أتمكن من التفاعل معهم عوض الاكتفاء بتلقينهم ما هم، أحياناً كثيرة، ليسوا بحاجة إليه، ثم أجلت البحث في تفاصيل الموضوع إلى الممارسة الفعلية والبناء عليها.

بعد الجامعة انتقلت إلى مسألة العلاقات مع الآخرين وبالتحديد الأصدقاء. هنا تبين لي أن أصدقائي قليلون وقررت أن أحافظ من بينهم، على الذين أستطيع أن أكون أنا نفسي، من دون أقنعة معه، من دون مساومات، وأتت اللائحة مختصرة، إذ اقتصرت على هدى وعبلة وحسنية، وعلى عيسى وأمينة التي بدأت صداقتي لها تأخذ منحى الحميمية والمصارحة الكاملة، على الأقل من قبلي والتي بدأت أشعر أنني، حين أدخل بيتها، كأنني أدخل بيتي.

حين انتهيت من الموضوعين السابقين خطرت ببالي علاقتي بهاني وماذا سأفعل بها؟ وبسرعة قررت أنها جزء من هامشيتي التي لا دخل لأحد بها. وبناءً عليه اتصلت بعشيقي وأمضيت معه أمتع الأوقات خارج وقع الزمان العادي لأنه ماهر جداً في معرفة متطلبات الأنثى في شخصيتي..

47

جلست وحدي بعد أن غادرت ليال، أستعيد كل ما سمعته منها حول الصورة والأصل وتبين لي أن جزءاً كبيراً مما قالته هو صحيح. لكن صورتي هذه كلفتني أكثر من خمسين سنة لرسمها، فهل من الحكمة أن أمزقها وأبدأ من جديد؟ إن حطمتها كما تطلب مني ليال فماذا يبقى مني؟ أنا ناقدة مرموقة وسأظل هكذا لن يتغير شيء، أما الباقي؟ هذا هو الذي تطالبني ليال بتحطيمه لأظهر على حقيقتي. هل هي أرادت مني أن أعيش ذاتي علناً في علاقتي مع هادي؟ لو فعلتُ لبعثرت عائلتي ولكنت أصبحت وحدي الآن بعد أن تركني ، فماذا كنت قد جنيت سوى الخيبة؟ هي تمارس ذاتها علناً لأنها حرة، لا من رقيب ولا من حسيب. إنها فعلاً غير مسؤولة، لا بل لا تفهم معنى المسؤولية.

في اليوم التالي زارتني ليال وهي متألقة كعادتها.

ـ لقد استقلت من الحزب، قالت وهي تجلس في مكانها المعتاد.

ـ...

ـ وتركت المؤسسة، سأكتفي بتفرغي في الجامعة لأمنح نفسي حرية أن تفعل ما تشاء، تابعت أمام صمتي.

ـ ولماذا كل هذه الاستقالات؟ هل الحزب والمؤسسة كانا يمنعانك من ممارسة حريتك؟ سألتها بدهشة.

ـ قررت أن أعيش هامشيتي. قالت وهي تشدّد على أحرف الكلمة.

ـ يعني؟

ـ يعني أن ألغي من حياتي كل عائق وأن أرفع عن وجهي كل الأقنعة؛ لقد اكتشفت، بعد جلسة مع ذاتي، أنني غير مقتنعة بما أقوم به في الحزب ولا حتى في المؤسسة، فالأخيرة تأخذ مني كل فترة قبل الظهر لأقوم بأعمال بمقدور أي واحد، عاطل من العمل أن يقوم بها. أما بالنسبة للحزب، فقد شعرت أنه يمارس علي نوعاً من أبوة لا أتحملها عدا أنني لست مقتنعة بكل طروحاته والأمر ليس جديداً بل كنت أدركه من قبل دون التجرؤ على البوح به حتى لذاتي.

ـ لكنك كنت كالطفل المدلّل داخل الحزب وقد أوكل إليك مهمات يتمنى كل منا أن توكل إليه.

ـ لكنها كلها تلمّع الصورة على حساب الأصل. أجابت بكل جدية المقتنع بما يقوم به ولا يريد نقاشاً حوله.

ـ وماذا ستفعلين بهذا الأصل الذي تصرين عليه؟ سألتها.

ـ سأنميه وأغذيه وأبعد عنه كل زيف؛ لقد اكتشفت أنه ما زال طرياً ويحتاج إلى الرعاية وهذا ما سأقوم به كي ينضج ويبدع وسيكون إبداعه مشعاً لأنه صادق. لهذا السبب سأمضي كل وقتي في القراءة لأعوض ما فاتني من ثقافة ومعرفة قبل أن أدلي بدلوي ولست مصرة على الإدلاء إن لم أتمكن.

ـ هل أفهم منك أنك ستنكفئين وتنعزلين عن الحياة العامة؟

ـ كما تفهمينها، نعم؛ لكنني سأعيش حريتي وليقبلها من يشاء وليرفضها من يشاء. قالت بلامبالاة كلية.

ـ لكنك تعيشينها الآن.

ـ صحيح، لكنني سأرفع الثقالات عن منكبيها.

بعد هذا الحديث القصير غادرت ليال وعدت إلى ذاتي وتساءلت: ماذا سيبقى من ليال إن انسحبت إلى الداخل ونفذت كل ما قالته؟ إنها نكرة، لا أحد يعرفها سوى بعض المقرّبين، بينما كانت في الحزب وجهاً مميزاً وقد أطلّت من خلاله على الخارج حيث قامت بعلاقات كثيرة، فكيف تتخلّى عن كل ذلك؟ أنا لا أفهمها. إنها، بالفعل مغرورة، هذا ما كنت أود أن أقوله لها لكنني أحجمت كي لا أجرحها. لكن إن كنت صريحة مع ذاتي، أجدني مسرورة بقراراتها هذه، فإن ظهورها في الحزب كان يزعجني، لا بل دمّرني إذ إنها سلخت هادي عني. فلتمكث في جحرها وفي هامشيتها، كما تسميها، لن أتحمل أن يبرز أحد من معارفي، سأظل البارز الأوحد من خلال كتاباتي و...

ما إن تلفظت بكلمة «كتاباتي» حتى لاح في ذهني سؤال استوقفني: هل أكتب، بالفعل، ما أريد كتابته؟ أتمنى لو أستطيع كتابة النص الذي أريد من غير خوف. آه لو أتمكن يوماً ما من مغادرة النقد للتفرغ لكتابة ذاتي! هل سيأتي هذا اليوم؟ هذا، بالفعل، ما تطلبه ليال مني وأرفضه؛ إنني عاجزة عن تحطيم الإطار الذي وضعت نفسي فيه وعرفني الآخرون من خلاله. ليتني أستطيع، لكن...

أتى وديع وأخرجني من تخبطي وخيراً فعل لأنني كنت في مواجهة خاسرة مع ذاتي وقد أنقذني. رحّبت به وانتقلنا إلى أجواء بعيدة كل البعد عما كنت فيه. أفرحني هذا الابتعاد لأنه أراحني.

48

أن ننحاز إلى هامشيتنا فهذا دليل على أن المتن بات يشكل سؤالاً أو أنه تحول إلى سؤال. بالفعل حين نظرت إلى الصفحة التي أكتب وجدت أنها تكتبني أكثر مما أنا أكتبها فتحولتْ إلى مجموعة من الأسئلة كان أولها: ما هو دوري في هذه الحرب الطاحنة التي تلت تحرير بيروت من الإسرائيلي؟ ما هو دوري في هذه الحرب القذرة التي تدور رحاها في الطرقات والأزقة وبين الأبنية أو حتى بين طوابق البناية الواحدة؟ تبين لي أنني شاهد عاجز لا حول له ولا طول، والأنكى من ذلك هو أنه كان عليّ الانحياز إلى طرف فقط لأنه من جهة معينة ومحاولة تبرير كل ما يقوم به والذي لم يختلف عما يقوم به من كنا نسميهم أخصاماً. في حالة العجز هذا تتساوى المتناقضات التي هي ليست تناقضات إلا في التسمية فقط، وحين تتساوى المتناقضات تسقط في ذاتك وتسأل عن الجدوى، ويتبين لك أن الجدوى الوحيدة هي أن تلوذ بهامشيتك وأن تنميها لأنها

تصبح، في نظرك هي المتن، إذ تحتل كل المساحة. الهامش يصبح أناك الفعلية وحيز حريتك التي إن تخليت عنها تخليت عن ذاتك، وأنا نرجسية إلى حد كبير مما دفعني إلى التمسك بهذه الهامشية، هامشيتي، لكي أبقى وأستمر حرة.

أول عمل قمت به هو البحث عن مسكن آمن، أكثر أماناً من الشقة التي أسكنها، بحيث يكون، في الوقت نفسه، ملجأ في حالات القصف الشديد الذي لا يوفر أحداً، وبخاصة أن القتال قد بدأ ينتقل إلى الداخل بين فصائل الطرف الواحد، حيث إن المعارك باتت تحصل بين الأبنية وحتى بين الشقق في البناية الواحدة. خرجت إسرائيل من بيروت وعوض أن يظل المقاومون عنها، موحدين، تحولوا إلى أعداء يتخاصمون ويتحاربون كأن كل فصيل منهم يود أن يبسط سيطرته على الآخرين، وهكذا تحولت بيروت إلى جحيم لا يحتمل.

حالفني الحظ فاستأجرت منزلاً بالشروط التي أبغي، وهو يقع في الحي الذي تسكنه أمينة وهدى. منزل في بناية ضخمة ومحاطة من كل الجهات، منزل، عرفت من أخي أنه طالما لجأ إليه مع كل قادة المقاومة أثناء حصار بيروت من قبل الإسرائيليين. حالفني الحظ ونقلت سكني إليه واستقررت فيه مغلقة كل النوافذ عن الخارج لأتمكن من بسط الهامش على كل مساحة الصفحة وقد أصبح غذائي الوحيد هو الكتب التي أكثرت من شرائها لأشبع نهمي إلى الاطلاع وتخزين المعارف ولتكوين ثقافة مقبولة، على الأقل مني أنا.

لكن ما هو نوع الكتب التي أكثرت من اقتنائها؟ كنت، في مرحلة الدراسة الثانوية وحتى الجامعية لا أعير اهتماماً للأدب، وهو أمر يعود إلى تربيتي في البيت الوالدي حيث كان التركيز على المهم

مثل الرياضيات والعلوم وما إلى ذلك مما يعد مهماً، مع العلم أنني كنت أميل إلى قراءة الأدب وأستمتع به وأحب الموسيقى والرسم وكل الفنون، لكني كنت أحرم نفسي من ذلك وأكابر لأمارس ما يُراد مني وليس ما أريد في الحقيقة. وفي هذه المرحلة التي قرّرت فيها أن أعيش هامشيتي، يعني ذاتي الفعلية، انتقمت من كل تربيتي وركّزت اهتماماتي على ما أحب فعلاً فشرعت بالرسم الذي كنت قد بدأته في مرحلة سابقة وأهملته. شرعت به مع أنني ما كنت أعرف إلا القليل من مبادئه التي تعلمت بعضها في باريس أثناء تحضير أطروحة الدكتوراه. وغصت في كل ما فاتني من قراءة الأدب واستمتعت بقراءة الشعر والرواية بشكل أساسي وقامت جولتي هذه لتشمل قراءة كل ما توفر لدي من الأدب الروسي والأوروبي والأميركي بشقيه الشمالي والجنوبي. قررت أن أبتعد عن كل ما يعوق نمو داخلي الأصلي واكتفيت بما يعطيه الأمان لكي ينمو ويكبر بمكوناته الأساسية، تلك المكونات التي ساهمتُ في إلغائها طوال المدة السابقة، منغمسة في التلهي بالقشور والبريق الخارجي. سأستعيد ذاتي وأجعلها تبدع إن تمكنت من ذلك.

لكن هذه القرارات لم تمنعني من المشاركة في بعض الندوات الفكرية حيث كنت أدلي بآرائي غير آبهة بالنقد وبما سيقال عني، همي الوحيد هو عدم المساومة في ما أعتقد أنه الصحيح، وإحدى هذه الندوات كانت لإحياء ذكرى أمين الريحاني التي أقيمت في قاعة من قاعات الجامعة الأميركية. شاركت بهذه الندوة التي كانت أمينة، أيضاً، مشاركة فيها. ألقيت محاضرتي التي لم تحظَ برضى الكثيرين من الحضور. وأتى دور أمينة التي حين بدأت بقراءة مداخلتها رأيت هادي يدخل القاعة ليجلس بين المستمعين. أفرحني مجيئه لسماع أمينة وتمنّيت لو يعودان إلى بعضهما لكي تخرج أمينة

من تلك المرارة التي هي فيها.

حين انتهت الندوة هنأ هادي أمينة على ما كتبت واعتذر مني لأنه لم يستطع الوصول باكراً لسماعي:

ـ لكن سأقرأ ما كتبتِ، قال، هل لديك ارتباطات الآن؟

ـ لا، أنا ذاهبة إلى بيتي إلى صومعتي. أجبته.

ضحك وقال: «سأتبعك وأقرأ ما كتبت عن الريحاني، لن أتأخر». امتعضت أمينة من كلامه لكنها لم تعلق واكتفت بالقول: «مداخلة ليال تتحمل النقاش». أما هادي فقد اكتفى بالقول لها بصوت منخفض وهو يستودعها: «إلى اللقاء غداً». كنتُ على علم بهذا اللقاء الأسبوعي بينهما فابتسمتُ وتركتهما.

لم يتأخر، بالفعل، إذ إنه أتى لزيارتي بعد أقل من نصف ساعة، أتى برفقة نزار، أحد الأصدقاء الذي يهتم بالفن وبخاصة الرسم فاقتسما العمل؛ أخذ هادي الأوراق وباشر بالقراءة وجال نزار على اللوحات التي كنت قد أنجزتها في تلك المرحلة وهو يعلق ويعطيني بعض الإرشادات إلى أن انتهى هادي من القراءة ودار بيننا نقاش لأكثر من ساعة وكانت آراؤنا مختلفة جداً حول بعض القضايا مع ملاحظتي أنه قد تغير قليلاً وأنه بدأ يطرح الأسئلة على ذاته وكل كتاباته السابقة. وما عزز ملاحظتي هذه هو أنه شجعني وطلب مني بلورة بعض الأفكار التي وجدها جديرة بالتوسع حتى ولو كانت مناقضة لقناعاته السابقة. لكننا تمكنا من شرب القهوة قبل أن يستأذنا ويغادرا.

في صبيحة اليوم الثاني قتل هادي في أحد شوارع العاصمة. صعقت

بالخبر ولعنت الحالة التي آلت إليها بيروت حيث بات المرء معرضاً في كل لحظة داخل بيته أو خارجه. كنا كل تلك الفترة كالفئران نختبئ من حرب الشوارع التي روعت كل الناس، حرب بدأت تأخذ المنحى المذهبي البغيض والذي لا يدافع عن قضية بل يعمم القتل والذبح فقط لفرض سيطرة موهومة ومن دون أهداف سوى التسلط على الأحياء وسكانها، تسلط زرع الرعب في نفوس الناس العاديين الذين لا حول لهم ولا طول سوى انتظار الأسوأ الذي بات على تصاعد مستمر.

لم أصدق الخبر حين سمعته، لكن حين تأكدت منه، لم يخطر ببالي إلا أمينة، فاتصلت بكل الصديقات والأصدقاء وجمعتهم كي نذهب إلى مواساتها في بيتها. كان ذلك بمثابة اعتراف منا أمامها بأنه كان لها، ولها وحدها على الرغم من كل علاقاته اللاحقة. كان اعترافاً منا، ومني بالخصوص، أنها هي الأساس وأن كل الباقيات هن نوع من التقاسيم العابرة وهي اللحن، هي الشجرة وكلنا فروع لا تلبث أن تزول. شعرتُ أنني ملزمة بذلك لأنها صديقتي الحميمة التي أحرص على تكريمها ولو كان ذلك في مناسبة حزينة كتلك التي نحن فيها. قرّرت ونفذت.

49

غادرني هادي على أمل اللقاء في الغد، غادرني ليقوم بفعل مجاملة مع ليال التي تغيّب عن الاستماع إلى مداخلتها. عدت إلى بيتي مرتاحة لأن محاضرتي لقيت استحسان الأكثرية من الحضور، وقد أفصحوا عن رأيهم فيها بينما كان النقد منصباً على ما أدلت به ليال. شعرت بتفوقي عليها، فهي بفجاجتها المستجدة لم تعرف كيف تراعي الظروف؛ كنا بصدد تكريم أحد كتابنا الكبار الراحلين، فعوض أن تتماشى مع روحية المناسبة قالت رأيها في فلسفته بكل وقاحة. كنت قد حاولت أن أثنيها عن رأيها قبل موعد الندوة عندما أطلعتني على مضمونها من قبل، لكنها أصرّت على آرائها بحجة أنها ما عادت ترغب بالمسايرة ولا الكذب كما تدعي، حتى ولو أتى ذلك في صالح مذمتها من الجميع.

عدت إلى البيت وتناولت العشاء مع وديع وأنا أفكر بهادي الذي

غفوت تلك الليلة وأنا أعانقه بينما كنت في أحضان زوجي الذي كان يقوم بما يقوم به وكأنه يكافئني على محاضرتي. مضت تلك الليلة، لكن ليتها لم تمر، ليت الزمان توقف عندها، ليت الصباح لم يأتِ، ليتها كانت آخر الدنيا، مع العلم أنني استفقت وكلي نشاط وقد ازددت حيوية أكثر حين غادر وديع إلى عمله وبقيت وحدي أحضر نفسي للقاء. ارتديت أجمل ملابسي وزينت نفسي كي أبدو بأبهى صورة يخالجني أمل، ولو ضعيفاً جداً، بأن أستعيده، بأن أعاود قصتي معه أنا التي كنت أحلم بأنها قصة لن تنتهي، قصة شبيهة بقصة سارتر وسيمون دي بوفوار. لكن ويا للأسف أوقفها، أوقفها بشكل سخيف ليهرول وراء الوافدات الجديدات على عالم الفكر والثقافة وحتى وراء التافهات اللواتي لا علاقة لهن بالثقافة كما عرفت عن نجوى حبيبته خلال حصار بيروت.

انتهيت من تهيئة نفسي وتركت البيت لأتوجه نحو المقهى الذي نلتقي فيه. وصلت ولم أجده هو الذي كان دائماً يسبقني. انقبض قلبي، فهو حريص كل الحرص على مواعيده. لكن هدّأت من روعي وانتظرت. انتظرت أكثر من نصف ساعة ولم يأتِ فلملمت أغراضي وعدت إلى البيت الذي ما إن دخلته حتى رن جرس الهاتف:

ـ العوض بسلامتك، قال عيسى.

ـ.... ماذا جرى؟ من مات؟

ـ قتل هادي. قال وصوته يرتجف.

وقعتْ سماعة الهاتف من يدي وكدت أغيب عن الوعي، وما هي إلا دقائق حتى أتى وديع، قبل موعده بكثير ليؤكد لي الخبر. لم

أستطع تمالك أعصابي وبدأت أصيح وأبكي وأنا ألطم وجهي يراودني شعور بالذنب أنه كان يأتي لملاقاتي. وما هو إلا وقت قصير حتى قرع الباب ودخلت ليال ترافقها شلة من الأصدقاء، جاؤوا لمواساتي. قدّرت مجيئهم بهذا الشكل وبكيت على أكتاف البعض منهم وبخاصة عل كتف عيسى الذي كان صديقاً حميماً لهادي. أما ليال فقد جلست بالقرب مني وهي تمسك بيدي وتمسد على شعري وتقبلني وتضمني إليها من وقت لآخر. لمست صدق مشاعرها واجتاحني أحساس بالرضا، إذ إن الجميع يعترف أن هادي كان لي ولي وحدي. لقد استعدته، ويا للأسف، بعد فوات الأوان، استعدته طيفاً لا حقيقة.

ـ علينا الانتقال إلى بيته، قالت عبلة.

ـ سنفعل، أجبتُها لكن... أين هو الآن؟

ـ في براد الجامعة الأميركية، أجابني عيسى.

ـ رافقني إلى هناك، قلتُ له.

حاول الجميع ثنيي عن رؤية جثة هادي ما عدا ليال التي طلبت من عيسى أن يرافقني إلى حيث أريد.

دخلتُ البراد ورأيته جامداً فانهمرت بالبكاء وأنا أقبّل وجهه، فرفعني عنه عيسى وأبعدني عن المكان ولم أنتبه إلى ذاتي إلا وأنا أعانق زوجة هادي وأعزيها. كانت هادئة وتبكي بصمت وكانت ليال دائماً بالقرب مني، تحاول مداراتي، وأجمل ما صدر عنها تعليقها حين رأت الجميع يواسي زوجة هادي إذ قالت لي همساً: «يعزون الشخص غير المناسب، كلهم يخطئون في العنوان، حتى من منهم

يعرف الحقيقة يساير ويجامل». أحببت تعليقها هذا وقدرته، لكن الواقع الاجتماعي هو غير الواقع الحقيقي. أما الوقت فلم يكن للتحليل، كان حزني عظيماً وعظيماً جداً.

حضرنا مراسم الدفن، وحين انصرف الجميع جثوت على قبره وقبلت التراب الذي يضمه ثم رميت وردة حمراء فوقه وعدت إلى بيتي إلى ذاتي، إلى وحدتي، إلى جرحي وألمي، عدت لأظل معه طوال عمري.

50

أقيم لهادي مأتم مهيب حضره كل أركان الحزب وغالبية أعضائه الذين توافدوا إلى بيروت من كل المناطق اللبنانية. حملوا التابوت على الراحات وهتفوا للمفكر الكبير الذي رحل شهيد أفكاره وتطلعاته التقدمية ونظرياته التي لم يسبقه إليها أحد في العالم العربي. اعتلى المنصة كثيرون لرثائه والكل عدّد مزايا الراحل الغالي، وأتت في الختام كلمة العائلة التي قرأها أبو فادي، شقيق هادي والتي أبكت الجميع مع التأكيد على شد عزيمتهم ومتابعة النضال.

عدت إلى بيتي بعد المأتم وأنا أحاول استرجاع كل ذكرياتي مع هذا المناضل العنيد الذي أفنى حياته في خدمة الحزب. استعرضت كل الفترة السابقة وصولاً إلى يوم استشهاده وشعرت أنني، بما قمت به تجاه أمينة هو أنني حاولت رد الأمانة إلى صاحبتها، وهذا ما أشعرني بالراحة على الرغم من الحزن، الذي يتملكني، على افتقاد هادي

ولست أدري لماذا خالجني شعور بأنه انتحر ولم يقتل؛ ربما لأنني، ومن خلال نقاشنا في الليلة السابقة، لمست أنه أصبح خارج كل مقولاته التي ناضل طوال عمره، من أجلها، وكأنه يود الخروج من الصورة التي طبعت وجوده في كل المراحل السابقة. كان التجاذب بين حقيقته وصورته بيناً. ربما عجز عن الرجوع إلى الأصل فأنهى حياته طوعاً ومن دون مقاومة.

عبّرت عن رأيي هذا أمام أمينة لكنها لم تقتنع به ودافعت عن صورة هادي التي هي، برأيها، حقيقته. لم أناقشها في الأمر وأصبحتُ شبه ملازمة لها، إذ كنت أزورها كل يوم ونجلس معاً لساعات أفسحت في المجال لتكريس الصداقة بيننا. عرضت أمامها كل مكنونات نفسي وأعتقد أنها فعلت مثلي وأصبحنا نقرأ بعضنا بوضوح.

ـ لم يبقَ لي سوى عملي، قالت لي مرة، سأكرس كل حياتي له.

ـ وما هو عملك الذي يستأهل أن تكرسي كل حياتك له؟ سألتها مفترضة أنها ستخبرني عن عمل جديد.

ـ الثقافة والنقد.

ـ لماذا لا تحاولين الكتابة الحرة؟ لماذا تفنين حياتك في الركض وراء نصوص الآخرين؟ لماذا لا تكتبين نصك أنت وتتركين الآخرين يلهثون وراءه؟ سألتها بلهجة محببة.

ـ النقد عمل نبيل وعليه تقع مسؤولية التصويب. أجابتني ببعض التردد مما دفعني إلى القول:

ـ أحترم النقد لكنه يبقى أدنى من الإبداع.

ـ لكن هو الذي يبرزه ويكرسه.

ـ يبرز ويكرس إبداع الآخرين فقط ويلغي الذات. أجبتها لأحثها على الكتابة الإبداعية. لكنها أجابت بكل عناد:

ـ النقد هو الحكَم الذي يهابه كل من يدعي الإبداع، هو السيف المصلط فوق رقاب كل من يكتب، وكلهم يستجدون رضاه.

ـ من يستجدي رضاه هو التافه الذي لا يثق بنفسه والذي يحاول إنقاذ نصه من الخارج وليس من الداخل، فالنص المبدع حقاً لا يأبه بما يقوله النقد ويفرض نفسه بقوته الذاتية وليس بما يقوله النقد عنه.

ـ لست على حق تماماً لأنني ألمس مدى تأثر الكتَّاب ونتاجهم بما يقوله النقد ولهذا السبب كلهم يسايرون النقّاد ويسعدون بالكتابة عنهم.

ـ رأيي هو أن النقد لاحق للكتابة وليس العكس، فمن الكتّاب من يساير قواعد النقد القائمة ليستميل رضا النقّاد، ومنهم من يكتب بشكل حر وهم المبدعون حقاً؛ من يكتب غير آبه بقواعد النقد يأتي نصه حراً يربك النقد الذي يلهث وراءه لالتقاط قواعده المستجدة. يعني أن هناك كتابة تخضع للنقد وكتابة تُخضع النقد لها.

ـ وهذه هي أهمية النقد، إذ إنه يتجدد دائماً، إنه المجال الذي ليس له حدود وهو الرفيق الدائم لكل المستجدات على الساحة الفكرية والأدبية. أجابتني مستمرة في دفاعها عمّا تعتبره عرينها.

ـ أتفهم دفاعك عن النقد الذي أفنيت حياتك في اكتسابه وممارسته وتطويره، وها أنت الآن ناقدة معروفة ومميزة، لكن سؤالي هو الآتي:

هل أنت، بالفعل، راضية تماماً عن نفسك؟

ـ ولماذا هذا السؤال؟ ألا تلاحظين أنني أتمتع بعملي وأقوم به بكل نشاط ورغبة؟ سألتني باستغراب.

ـ صحيح، لكن لستُ أدري لماذا يراودني شعور بأنك غير مقتنعة كلياً بما تقومين به. قلت لأدفعها إلى الاعتراف بمكنونات نفسها.

ـ شعورك ربما كان صائباً، لكن ما تلاحظينه يعود إلى انشغالي بأن أكون عادلة في أحكامي كي لا أظلم أحداً من الكتاب وهو، بالفعل، انهمام يلازمني في لحظة القراءة ولحظة الكتابة مع العلم أن الكاتب يرغب في أن يُكتب عنه حتى ولو أتت الكتابة سلبية. ولهذا السبب من أريد تحطيمه، لا أكتب عنه لا سلباً ولا إيجاباً، أتجاهله فقط.

ـ تقصدين أن عدم الكتابة في النقد هو أيضاً كتابة.

ـ تماماً. أجابتني بكل وضوح المقتنع.

ـ وهل مارست ذلك مع بعض الكتاب؟ سألتها.

ضحكت وقالت: «مع البعض فقط».

ـ وهل تجاهلك لهم أدى إلى النتيجة التي تبتغينها؟

ـ أحياناً، نعم.

ـ ولماذا تمارسين هذا النوع من النقد أحياناً؟ أهو موقف شخصي أم أن النص لا يستأهل الكتابة عنه؟

ـ لا يوجد في النقد مواقف شخصية، أجابت بتفاخر الواثق من نفسه.

ـ وكيف تختارين من تكتبين عنهم إذاً؟

ـ النص يفرض نفسه عليّ.

ـ يعني أنك تختارين النصوص التي تجدين فيها تطبيقاً لقواعد النقد التي تمتلكينها، والنص الذي يخرج عليها لا يفرض نفسه عليك، وهذا أمر طبيعي، إذ إنك تشعرين بالعجز أمامه. كيف تقاربين النصوص التي هي، بنظرك، غير عادية؟

ـ أعترف بأن مثل هذه النصوص تربكني، وهنا يكون التدخل الشخصي للناقد، إذ إنه يختار منها نصوص الأصحاب و...

ـ يعني هنا تدخل المصلحة والمسايرات وتبييض الوجه كما يقال. أجبتها كي أسخّف النقد في نظرها.

ـ ربما، والأمر ليس بهذه البساطة، فعوامل كثيرة تدخل في عملية اختيار النصوص وبخاصة النصوص المربكة كما أسميها.

ـ أنا لست ضد أن يختار الناقد ما يشاء من النصوص لأنه، بالنهاية إنسان وله علاقاته ومشاعره وأفضلياته وأهدافه و... صورته التي يتمسك بها.

ـ تعودين دائماً إلى مقولة الصورة والأصل وكأنك لا تملكين مقولة سواها، قالت بانفعال.

أدركتُ أنني أصبت عندها مقتلاً فصمتُّ وانتهى الحوار بيننا.

51

تستفزني أحياناً ليال بنقاشاتها وآرائها، لكنها طيبة وصريحة ومخلصة، وعلي أن أعاملها كصديقة على الرغم من كل آرائها المخالفة لآرائي، فنحن بالنهاية شخصان مختلفان جمعتنا ظروف معينة، لكن يا لها من ظروف! كادت أن تسرق مني حبيبي، أقول كادت وهي قد فعلت وتلك الصورة التي هو فيها يهرول وراءها لن تفارق ذهني حتى بعد وفاته. ماذا أقول؟ أصحيح أنه لم يعد موجوداً؟ لا أصدق، سيظل موجوداً والآن أكثر من قبل. الآن وقد غاب كجسد سيظل طيفه يظللني وسأستمر في الغرف من دفئه ألذي أعرفه جيداً. الآن وقد عاد إليّ مع تغييب كل المحرمات التي تنتمي إلى وجوده الفعلي سأحتفظ به، سأضعه أيقونة في هذا البيت.

أخرجتُ إحدى صوره من ملفي الخاص واشتريتُ إطاراً جميلاً وضعتها فيه وزينت بها المكتبة وصار هكذا واحداً من أفراد العائلة

وشعرت أنني، بهذا العمل قد تحرّرت من كل عقد الذنب التي كانت تلاحقني وهو حي. وضعت صورته على أحد رفوف المكتبة وأنا متأكدة أن وديع لن يعارض، لأن هادي هو رمز من رموز الحزب. وحين خطر ببالي ذلك، تبين لي أن الجسد هو حامل المحرمات، وحين يغيب تتبخر كلها. لم أتجرأ يوماً على إعلان علاقتي به طالما كان على قيد الحياة، طالما كان جسداً ينبض، أما الآن وقد تحول إلى صورة في إطار وإلى رمز فما عدت أخاف من إعلانه حبيباً لي، لقد أُلغيت مخاطره عليّ وعلى سمعتي وعلى عائلتي، تحول إلى مجرد ابتسامة على ثغر في إطار خشبي. لقد تحرّرت من ملاحقته يقفز من إنسى إلى أخرى. هل موته أراحني إذ أعاده إليّ لأشكله على هواي وأفعل به ما أشاء؟

وضعت الصورة على أحد رفوف المكتبة في الصالون كي يراها كل من يزورني، وهي أول ما استرعى انتباه ليال حين زارتني في ذلك اليوم.

ـ صورة جميلة لهادي، قالت، ثم صمتت وأخذت مكانها المعتاد وهي تنظر إلى الصورة وعلى وجهها سؤال ما لبثت أن تفوهت به:

ـ ما هو رأي وديع في الموضوع؟

ـ لقد رآها ولم يعلق بكلمة واحدة. أجبتها.

ـ وهل تظنين سكوته علامة رضا؟ ألحت بالسؤال؟

ـ ما عدت مهتمة للموضوع، لقد رحل هادي ولم يبقَ لي سوى هذه الصورة ولن أحرم نفسي من التمتع بها على هواي حتى ولو غضب الآخرون.

ـ أهنئك على قرارك، وهذا دليل على أنك باشرت بممارسة ذاتك لكن...

ـ لا تكملي، أعرف، تقصدين بعد فوات الأوان.

ـ لم أقصد ذلك بالضبط، بل قصدت أنه أصبح الآن ملك الجميع والكل يستطيع أن يضع صورته عنده وأن يحمّلها ما يشاء.

ـ وهل ستضعين صورته في بيتك؟ سألتها باستهزاء.

ـ لا، لقد كان، بالنسبة إليّ صديقاً عزيزاً وليس حبيباً. أجابتني بكل برودة.

ـ وهذا هو الفرق بيننا.

ـ أعرف ولهذا السبب أهنئك على جرأتِك.

ـ ليتني مارستُ هذه الجرأة وهو حي لكانت حياتي انقلبت كلياً. قلتُ بأسى.

ـ هل أنت نادمة؟ سألتْ.

ـ ليس تماماً لأن ما قمتُ به هو ما كان علي القيام به ضمن الشروط التي كنت فيها.

ـ وهل تغيّرت الشروط كي تعلني الآن علاقتك به؟

ـ ليال، لقد مات وأخذ معه كل الشروط المعوقة، قلت مبدية حسرتي الكبيرة..

ـ كان، بالفعل ظريفاً ومميزاً وكلّياً وبخاصة في حالات العشق.

لكنه كان ممزقاً بين الحقيقة والواقع. أتى تعليق ليال.

ـ ماذا تقصدين؟ سألتها من دون تردد.

ـ أقصد أنه حين يكون عاشقاً يعيش الحالة حتى الثمالة وتتجلى عنده بنظم الشعر، وهذا ما فعله حين كان يعشقني ومن ثم حين عشق حسنية، وحين عشق نجوى و... لكن حين أراد نشر ديوانه أهدى كل تلك القصائد إلى زوجته.

آلمني كلامها وانتفضت قائلة: «لو كان عشقه حقيقياً لما أهدى القصائد إلى زوجته».

ـ تعنين أن زوجته هي عشقه الحقيقي؟ سألت بلؤم.

ـ لا، بالتأكيد، ولو كان جريئاً بما فيه الكفاية لكان أهدى شعره إلى حبه الحقيقي.

ـ إلى أمينة. ولو فعل ذلك لما كنت انتقدته. أجابتني وهي تشد على يدي.

أحببتُ جوابها وقلت: «أنا متأكدة أنه كان يريد ذلك لكنه لم يفعل كي لا يحرجني. لكن أخبريني، وقد أصبحنا صديقتين، إلى أي مدى ذهبت علاقتكما؟».

هنا استفاضت ليال بإخباري كيف كان يزورها ومتى وكيف كان يلحُّ عليها بمبادلته العشق وكيف كانت تتمنع، وأنهت كلامها بالقول: «لو شعرت بالرغبة تجاهه لكنت مارست معه الحب، لكنني لم أشعر بتلك الرغبة، باختصار لم أحبه، فقط كنت أستمتع برفقته ونقاشاته وظرفه و..».

ـ وكم دامت تلك العلاقة كي يدرك أنك لا تبادلينه الحب؟ سألتُ بحشرية.

ـ أقل من شهر انتقل بعده إلى حسنية.

ـ وهل تعتقدين أن حسنية بادلته العشق؟

ـ لا أدري ولم أسألها.

لم أشبع حشريتي من أجوبة ليال وشعرت أنها تملك من الأجوبة أكثر مما باحت به، لكنني سأظل أحفر في شخصيتها كي أتوصل إلى كل الحقيقة، وبخاصة إلى معرفة ما هو السر فيها الذي جذبه إليها ودفعه إلى إهمالي. ستظل لغزاً وسأظل أحفر فيه وبقدر ما تتأصل صداقتنا ينكشف السر أكثر.

52

خرجت من عند أمينة يتملكني شعور غريب؛ أحسست أنها تتعامل معي كأنني مجموعة وثائق تركها هادي وتحاول البحث فيها عن خبر يؤكد خيانته لها مع التمني ألا تجده. طرحتْ كل الأسئلة الممكنة، لكن إجاباتي أتت كلها عامة لا تشفي غليلها ولو أنها تلبي رغبتها. كانت تطرح أسئلتها من باب الصداقة التي تعزّزت بيننا ومن ثقتها أنني أقول الحقيقة ولا أراوغ. هي تعلم ذلك، لكن ماذا نفعل بالشك الذي إن دخل في أي موضوع حوّله إلى لغز لا تفكّ أسراره كل الحلول الممكنة ولا تروي ظمأه كل الإجابات النافية. ماذا عليّ أن أفعل كي لا تعاملني أمينة كسارقة لحبيبها وقد لاحظتُ أنها تعترف بي شكلاً وترفضني مضموناً، تعترف أنني جميلة، لكنها ترفض أن أكون مثقفة أو ذكية، وهذا ما يظهر في كل نقاشاتنا، إذ كانت كل آرائي شبه مرفوضة من قبلها وعبارة «نعم ولكن» لا تفارق ردودها على كل طروحاتي. تراها دائماً

ناقصة أو خاطئة. كانت، بذلك تريد أن أفهم أن هادي قد أغرم بشكلي فقط وليس بشخصيتي.

فليكن ما تريد إن كان الأمر يرضيها ويخفف من حقدها. هذا القرار خفّض درجة التوتر عندها ومع الوقت أخذ موضوع هادي يتراجع إلى أن اختفى وأصبحنا نتناقش حول أمورنا الخاصة مع إطلالات على القضايا العامة التي كانت تنعكس على الخاص بشكل بيّن. اطّلعت منها على نواحٍ عديدة من حياتها الخاصة مع زوجها وأولادها وأصحابها وأطلعتُها على كل حياتي الخاصة وكل علاقاتي بوالديّ وأخوتي وعشيقي و... أصبحنا لا نفترق، حتى أن الآخرين باتوا يعلقون على علاقتنا، منهم تحبباً، ومنهم خبثاً حتى أن البعض اتهمنا بالسحاق. كنا نضحك معاً ونرمي من وراء ظهرينا كل التعليقات المغرضة.

ـ ما هي أخبار سهام؟ سألتها مرة في إحدى جلساتنا.

ـ إنها جيدة، لكنني اشتقت إليها وأود زيارتها لأقف على أحوالها عن قرب.

ـ سافري إليها، نحن على أبواب عطلة الربيع، استفيدي منها.

ـ رأيك صائب، سأزورها خلال هذه العطلة.

سافرت أمينة إلى باريس، لكنها لم تعد بعد انتهاء العطلة وبعثت برسالة إلى الجامعة تطلب فيها إجازة من دون راتب. حين قال لي ذلك وديع انشغل بالي وحاولت معرفة الأسباب وأتاني الجواب عبر رسالة منها تقول فيها إن سهام بحاجة إليها. شجعتها على البقاء في باريس وانقطعنا عن التواصل إلى أن عادت، في أوائل الصيف برفقة

سهام. احتفلنا بقدومهما وعادت علاقتنا إلى سابق عهدها من الود والحميمية شاركتنا بهما سهام التي زارتني مرة في البيت وأخبرتني عن سبب بقاء أمها في باريس وهو أمر يتعلق بإصرار أمينة على الوقوف على كل ما تقوم به سهام. أخبرتني ذلك وأوضحت أكثر وباحت لي بأمور تتعلق بشخصيتها وميلها نحو شخص لم توافق عليه أمها، وعبرت عن رغبتها في البقاء في لبنان وإتمام دراستها في إحدى جامعاته على عكس ما تريده أمها، فدافعتُ عن موقف أمينة من دون أن أطلق أحكاماً على سلوك سهام التي أعتبر أنها حرة في خياراتها ولا يحق لأحد التدخل بينها وبين أمها. لكن أمينة لم تخبرني شيئاً عن سبب بقائها إلى جانب سهام في باريس، وأنا من جهتي احترمت صمتها ولم أسألها عنه، وبخاصة بعد أن علمت من سهام السبب الحقيقي. لكن ذلك طرح عندي تساؤلات عن صدق علاقة أمينة بي وهل ما زالت تعتبرني غريبة لا يجوز لي الدخول في خبايا حياتها، مع العلم أنني أخبرها بكل خباياي وكل أفكاري وأحاسيسي وهمومي التي لم أبح بها لأحد سواها. هل هي لا تثق بي؟ لست أدري، لكن مع ذلك، احترمت موقفها واعتبرت أن صمتها دليل تحفظ أو ربما دليل على أن الأمر إن لم يُحكَ يصبح لاغياً أو غير موجود. ربما كانت تود إنكار الموضوع حتى أمام نفسها.

لكن أمينة أصبحت غير مرتاحة لصداقتي مع سهام التي استطاعت إقناع أمها بمتابعة دراستها في لبنان، وقد ظهر ذلك من محاولات إبعادها حين نكون معاً، وسهام، بذكائها الحاد كانت تدرك ذلك وتساير رغبات والدتها، فتتركنا وتذهب إلى أصدقائها، لكنها كانت تعود بسرعة لتجالسنا مبدية رغبة بإبقائي عندهم. وأحياناً كثيرة كنت ألبي رغبتها وأبيت عندهم وهي أحياناً كانت تزورني وتبيت

عندي وبخاصة حين نقلتُ سكني إلى مكان بعيد عن بيروت. لكن حادثة عابرة حصلت لنا مرة أشعرتني بمدى خوف أمينة على ابنتها سهام وعلى عدم ثقتها بها وهو عدم ثقة بغير محله، إذ إن سهام ناضجة وذكية ولكنها تحاول دائماً أن تساير والدتها في كل ما تطلبه منها.

كنا مرة، أنا وأمينة وسهام بضيافة إحدى صديقات أمينة في المغرب، وهذه الصديقة هي كاتبة عراقية. بيت تلك الكاتبة كان في الرباط وهو مؤلف من غرفتي نوم ودار. حين انتهت السهرة وحان وقت النوم قالت الكاتبة: «كل اثنتين منا ترقدان في غرفة». فما كان من أمينة إلا أن سارعت إلى القول متوجهة إلى صديقتها: «أنام مع سهام وأنت تدبرين أمرك مع ليال».

ـ كما تريدين، أجابت الصديقة، وتركتنا لكي تجهز الغرف.

اقتربت مني أمينة وأسرّت لي بالتالي: «يقال إن لدى صديقتي ميولاً مثلية، أنا لست متأكدة من ذلك، ولهذا السبب أبعدت سهام عن غرفتها».

ـ وترمينني أنا في المخاطر، أجبتها مازحة.

ـ أنت لا تجسر على مقاربتك، وإن فعلت فلديك من القوة لردعها، أو لقبولها، كما ترغبين، أما سهام فما زالت صغيرة ولا تفهم هذه الأمور ولا أريد أن أعرضها لتجربة لا تعرف معناها.

كانت سهام تسترق السمع من بعيد، نظرت إليّ وابتسمت واكتفيت بالصمت ملبية رغبة أمينة.

53

غابت ليال أياماً عديدة واقتصرت لقاءاتنا على الاتصالات الهاتفية. غادرت العاصمة وتوجهت إلى الشرقية حيث يسكن أهلها، وبعد أسبوع عادت لتقول لي إنها تفكر في نقل سكنها إلى جونيه، تلك المدينة التي ترعرعت فيها وتعلمت في إحدى مدارسها والتي تعرفها جيداً.

ـ وهل تتركين العاصمة وهي مقر عملك ونضالك وكل تطلعاتك؟ هل تتركين الأصحاب لتنعزلي في مدينة شبه ميتة من حيث النشاط الثقافي؟

ـ لقد انتهى الأمر، عثرت على شقة صغيرة سيساعدني والدي وصديقي في شرائها. سأفعل وأنتقل إليها عما قريب.

ـ ولماذا هذا القرار المفاجئ؟ سألتها.

ـ القرار ليس مفاجئاً، فأنا منذ مدة أفكر فيه ووجدت أنه الخيار الأسلم بالنسبة لي.

ـ وما يزعجك هنا؟ أنت من نسيج هذه المنطقة ولا أحد يميزك عنا.

ـ لو اقتصر الأمر على أمثالك لما فكرت لحظة بترك المنطقة. أجابتني.

ـ وهل من يضايقك في منطقتنا؟ سألتها.

ـ لا أقصد شخصاً معيناً، بل أقصد الجو العام، أشعر أنه يرفضني. واستشهاد هادي في هذه الظروف أرعبني وقد قرّرت الانتقال إلى المنطقة الشرقية بعد ذلك الحادث الذي خض كل كياني لأنني لم أفقه له مبرراً سوى الحقد الأعمى الذي لن يوفر أحداً.

ـ هذا صحيح لكنك تضخمين الأمور لأنهم لم يتعرضوا لإنسى حتى الآن. أنت تتوهمين أموراً غير واقعية لتبرري قرارك الالتحاق بأهلك. هل مللت النضال؟

ـ سأكون صريحة، كعادتي معك: أنت مسلمة وتعيشين في منطقة ذات طابع إسلامي ولا تشعرين بما أشعر به، أنت كالسمكة في الماء في هذا المحيط، لكن أنا أشعر أنني غير مرغوب بي، حتى أن أجواء بعض الأساتذة في الجامعة توحي بذلك و...

ـ لا تتابعي، وأنت أيضاً غير مرغوب بك في المحيط الذي تلجئين إليه. أجبتها بسرعة.

ـ أعرف ذلك، لكن الرفض لي هو على مستويين مختلفين؛ أنا هنا مقبولة سياسياً من البعض ومرفوضة دينياً، بينما أنا مقبولة دينياً في المحيط الذي سأنتقل إليه ومرفوضة سياسياً.

ـ إذاً ستبقى حالتك على ما هي عليه الآن حتى ولو بدّلت مكان سكنك. قلت لها كي أقنعها بعدم مغادرة بيروت.

ـ مع تمييز جوهري وهو أن الخلاف السياسي يُحلّ أو يداوى بالحوار بينما الخلاف الديني يحل أو يداوى بالقتل. أجابتني.

ـ غير صحيح، فالخلاف السياسي أشرس من الخلاف الديني، والشاهد هو أن عدد الشهداء المسلمين في منطقتنا والذين سقطوا على أيدي أبناء دينهم هم كثر، وأنت بفعلتك هذه تشجعين الفرز الطائفي المقيت.

ـ كلامك صحيح، أجابتني، لكنني بخياري هذا قررت الخروج من نضال كنت أظنه هادفاً وقد تبين أنه مجاني ومن دون هدف، ما عدت أفهم لماذا تتواصل الحرب وما هي أهدافها سوى القتل والتدمير والسلب و... كل الأفعال الساقطة التي لا تليق بأدنى درجات الإنسانية.

ـ يعني أنك تستقيلين.

ـ بالضبط، لقد استقلت من النضال العقيم لأتوجه نحو النضال المجدي. أجابتني بكل هدوء الواثق من نفسه.

ـ وما هو هذا النضال المستجد؟ سألت مستفسرة.

ـ سأدخل صومعتي وأمضي وقتي بالرسم والقراءة إلى أن تنتهي الحرب.

ـ هذا إن تُرك لك المجال لكي تحققي ما ترغبين به. قلت لها كي ألجم رغبتها في الانتقال إلى جونيه.

لم أنجح في ثني ليال عن تنفيذ قرارها، وبعد أقل من شهر انتقلت إلى المنطقة الشرقية وبتنا نتواصل بواسطة الهاتف حيث كانت تطلعني على قراءاتها وقد تنوعت مع تركيز على الرواية بشكل خاص. كنت أشجعها على المتابعة وأناقش معها بعض النصوص. حفظ الله هذا الهاتف الذي أبقى صداقتنا على ما هي عليه بالرغم من بعد المسافة بيننا التي إذا ما قطعها أحد منا حُتّم عليه المبيت عند الآخر، مما قرب في ما بيننا أكثر فأكثر، إذ إن للمبيت حميمية خاصة.

لكن الوضع لم يستمر كما كان، إذ اندلعت الحرب بين أقطاب الدين الواحد ودارت في المنطقة الشرقية معارك قاسية انقطع خلالها اتصالي بليال التي فاجأتني بعد مضي فترة طويلة، باتصال من بلدتها في البقاع:

ـ لم يبقَ لنا سوى الضيعة، قالت، وإن كان من موت في هذه الحرب فسأموت في ضيعتي التي أحب والتي اكتسبتْ الآن معزة خاصة، سأموت بين أهلي.

ـ كيف تمضين وقتك في الضيعة؟ سألتها.

ـ أعادتني الضيعة إلى طفولتي، إلى جذوري، إلى ما أحب فعلاً، لقد قشطتُ عني كل القشور المتيبسة لأعود إلى البراءة الأولى، إلى وضوح الرؤية، إلى سمائنا المليئة بالنجوم وإلى نسمات هوائنا المنعشة، آه يا أمينة لو تأتين إلى ربوعنا لتتمتعي معي بما أنا فيه.

كلامها هذا طمأنني أنا التي انشغل بالها فعلاً على ليال بعد انقطاع الاتصال بيننا. إنها بالفعل صديقة ولن أتخلى عن صداقتها حتى ولو بعدت المسافات بيننا.

54

يبدو أن انتقالي من المنطقة الغربية إلى المنطقة الشرقية أتى في أوانه، إذ سمح لي بقضاء بعض الوقت مع والدي قبل أن يتوفى. في آخر أيامه هجرت الشقة التي اشتريتها، وعشت مع أمي وأبي الذي أصبح في آخر أيامه، إذ تسارع المرض الذي أصابه والذي لم نتمكن من معالجته بسبب عجز الطب أمام حالته. أتيناه بممرض يلازمه ليلاً ونهاراً، لكنه ما لبث أن فارقنا تاركاً والدتي وحدها. دفناه في الضيعة على الرغم من سوء الأحوال وعدم سلامة الطرقات المؤدية إليها، وارايناه في الثرى في مقبرة العائلة وعدنا. لكنه لم يفارقني، إذ كنت أحلم به كل ليلة. هل يأتيني في الحلم لأنني لم أرتو من وجوده الفعلي وهو على قيد الحياة؟

تركناه وحده في الضيعة وعدنا إلى بيوتنا، لكن الحالة الأمنية لم تسمح لي بمتابعة اهتماماتي، إذ إنها تصاعدت وذكرتني بقول أمينة

حين أجابتني مرة بأن الحرب بين أبناء الدين الواحد تكون أشرس من الحروب بين الأديان المختلفة. بالفعل كانت حرب جعجع وعون لا تحتمل ولم توفر الحجر ولا البشر. معارك ضارية كانت تدور بينهما وعلى محاور متعددة، مما دفعني إلى التفكير في اللجوء إلى الضيعة، لكن الأمر لم يحسم إلا ذلك اليوم الذي سقطت فيه قذيفة بالقرب من شركة الكهرباء في جونيه وسمعنا التحذيرات التي أطلقت في حينه من أن محطة الكهرباء، إذا وصلها الحريق فستنفجر وتدمر كل ما حولها في إطار دائرة تتعدى عشرة كيلومترات. حين سمعت ذلك الإنذار الذي تكرر لمرات عدة، وبيتي لا يبعد أكثر من كيلومترين اثنين عن المحطة، اتخذت قراري، وبسرعة جمعت بعض الأغراض والملابس وصعدت مع والدتي إلى السيارة وقدتها باتجاه الجبل حيث وصلنا إلى عيون السيمان ومنها نزلنا نحو البقاع وتوجهنا إلى الضيعة لنمضي فيها بضعة أيام علّ الأحوال تتحسّن. لكن هذه الأيام التي كنت أحسبها معدودة تخطت السنة ولم نعد إلى منازلنا إلا حين أنهت الدولة التمرد، تمرد عون، وبدأت بتطبيق اتفاقية الطائف التي أنهت الحرب.

أنستني الضيعة كل المدن التي لم أعد أذكر منها سوى الأصدقاء الذين وإن أبعدتني المسافات عنهم، لن أنساهم، وأمينة، صديقتي الحميمة كنت أتصل بها كل يوم لأطلعها على أحوالي وأطمئن على أحوالها، وكم تأثرت بمجيء زوجها وديع إلى ضيعتنا لمواساتي بوفاة والدي. ثمنت جداً زيارته تلك التي دلت على مدى الصداقة بيننا، وبخاصة أن الطرقات لم تكن آمنة والسير عليها مخاطرة. لكن أمام هذه الواقعة تشجعت ورافقته في طريق عودته حيث التقيت أمينة التي كانت قد رحلت إلى الجنوب، أمضيت يومين معهما ومع سهام التي فرحت جداً بي قبل أن أعود إلى قواعدي بالقرب من

أمي التي أصبحت شديدة التعلق بي، حتى أنها باتت لا تستطيع العيش من دوني؛ عادت طفلة صغيرة تمسك بسروال أمها التي هي أنا، حولتني إلى أمها واستمتعت بدور الابنة واستمرت فيه.

في الضيعة شعرت أنني أعيش هامشيتي، أعيش حريتي كما أرغب. وهذا الشعور كشف لي أنني كنت لا أزال أحافظ على بعض الأقنعة التي تراكمت على حقيقتي من خلال عيشي في المدينة. سقطت الأقنعة واحداً بعد الآخر، ولفحتني شمس الوضوح وبدأت أرى الأمور على عينيتها الفعلية، أو على الأقل هكذا تراءى لي. عدت إلى ذاتي وتابعت قراءاتي التي بينت لي سرقات بعض كتّابنا من مفكرين وروائيين وشعراء وغيرهم. لكن تلك القراءات ولّدت لدي شعوراً غريباً، إذ بدأت أشعر بالحمل وكأنها رجل يُخصبني، حمل أخذ بالنمو إلى أن بلغ مرحلة الولادة حين عدت إلى بيتي في جونيه الذي ما إن استقررت فيه حتى شعرت بالمخاض وبدأت الكتابة. هل الضيعة هي التي أخصبتني أم قراءاتي هي التي فعلت؟ لا أدري، ربما اشتركا معاً في مضاجعتي والمولود الجديد سيرشدنا إلى أثر كلٍّ منهما.

55

سكتت المدافع وعمّ الهدوء العاصمة وكل أنحاء الوطن، وبدأت الحياة تدبّ من جديد في الشوارع والبيوت، والأهم من كل ذلك أن ليال قد عادت إلى بيتها واستعدنا لقاءاتنا التي انقطعت لأكثر من سنة. عادت ليال من الضيعة وأول عمل قامت به، بعد أن ركزت وضع والدتها، هو أنها قامت بزيارتي حيث كان اللقاء بيننا حاراً جداً؛ كنت، بالفعل مشتاقة إليها وإلى جلساتها. عادت وكلها نشاط وحيوية.

ـ لقد جوهرتْك الضيعة، قلت لها.

ـ لا، بل غيرتني، لقد أعادتني إلى ذاتي وفتحت أمامي آفاقاً جديدة لم أكن أنتبه إليها من قبل. بكلمة واحدة، لقد ولدت من جديد مخلوقاً مصمماً على عيش حريته وذاته بكل أبعادهما من دون مسايرة ولا مساومات.

ـ أذكر أنك كنت قد أتخذت هذا القرار سابقاً. قلت لها.

ـ كنت قد اتخذته، لكنني لم أنفذه كما ينبغي. أجابتني.

ـ وماذا ستفعلين الآن؟

ـ سأكتب. أجابت بكل حزم.

ـ جيد، لكن هذا أيضاً كنت تقومين به من قبل.

ـ صحيح، لكن الآن سأكتب الرواية وقد باشرت فعلاً بالكتابة. لقد تجمع لدي العديد من التجارب وهي جديرة بنقلها إلى الناس لأنها تطال العام والخاص معاً.

لم أستطع إخفاء ابتسامة لاحت على وجهي. دهمني الاستخفاف بكلامها. كنت متأكدة أنها ستفشل. إذا اعتقدتْ أن كتابة الرواية هو أمر سهل، فهي مخطئة ومغرورة، لكني لن أحبطها مسبقاً، فلتكتشف عجزها بنفسها.

لاحظت ليال الابتسامة على وجهي وحدست بكل ما يجول في خاطري، قالت: «كل شيء في أوانه». وتابعت: «أن فشلتُ، لا سمح الله في كتابة الرواية التي أختزن في ذهني كل عناصرها، فلن أحبط وسأتقبل ذاتي في فشلها كما في نجاحها. إن قلت لك إنني سأعيش ذاتي بكل أبعادها، فهذا لا يعني، بالضرورة، أن هذه الأبعاد ستكون مهمة بالمقاييس السائدة، المهم هو مقاييسي أنا، لا أنظر مسبقاً إلى النتائج، الفعل هو الأساس بالنسبة لي ولتأتِ نتائجه كما تأتي.

غادرت ليال وشعرت أنني كمن يتحرر من كابوس. كلامها

وضعني وجهاً لوجه مع ذاتي، مع أنه لم يكن جديداً، لقد سمعته منها في السابق، لكن هذه المرة النبرة مختلفة؛ في السابق كانت نبرتها متحدية وسلبية، أما الآن فهي هادئة وهادفة، فهل ستحقق غير ما حققته في الماضي؟ ففي الماضي لم تنجز شيئاً مهماً، كل ما فعلته هو أنها كتبت بعض الدراسات في مجال اختصاصها، وهذه الدراسات لم تجلب لها سوى النقد بسبب طريقتها وأفكارها التي كانت، دوماً، خارج المألوف والمتعارف عليه.

أذكر دراستها عن هادي، تلك الدراسة التي أتت خارج السياق العام للندوة، والتي جلبت لها النقد والتعليقات السلبية؛ أقيمت تلك الندوة في بلدة بعقلين الشوفية في الذكرى السنوية لاستشهاد هادي، وقد دعي إليها مفكرون من لبنان والدول العربية وطلب من ليال، بصفتها قارئة لكل مؤلفات هادي، أن تشارك في تلك الندوة. أتت كل المداخلات، اللبنانية والعربية، في توجه واحد ولم يشذّ عنه سوى مداخلة ليال التي ركزت على الانتقاد عوض الاكتفاء بالعرض كما فعل الآخرون. كان نقدها نافذاً وأحياناً لاذعاً، مما استدعى تعليقات عديدة، وكانت أهمها تلك التي عبر عنها أحد المفكرين العرب الكبار وهو الطيب تيزيني حين قال أمام شلة من الأصدقاء الكتّاب: «تدل مداخلة الدكتورة ليال على أنها كانت مغرمة بهادي وهو لم يكن مغرماً بها».

هذا التعليق، غير الصحيح أثلج قلبي ولم أعلق عليه سوى بابتسامة، يفهم منها الجميع أنه صحيح. شعرت حينها أن الطيب يثأر لي من تلك المتعجرفة التي تتباهى بأن هادي عشقها ورفضته.

حين أخبرتُ ليال بتعليق الطيب تيزيني أتى جوابها حاسماً، إذ قالت: «آسف أن يكون الطيب بهذا السخف». وحين حاولت

مناقشتها في الموضوع قالت: «لو طُلب مني الكلام عن شخصية هادي لكنت أظهرت كل جوانبها الجميلة، لكن الندوة هي ندوة فكرية وتعرفين أنني لا أساير في هذا المجال، وقد عبرت عن رأيي بغض النظر عن صداقتي لهادي، لقد فندت النصوص بكل حرية ضمير واقتناع، ومن لا يعجبه طرحي فليناقشني وليكتب ضده».

لم تسألني، يومها لماذا لم أصحح للطيب تيزيني رأيه، أنا التي تعرف كل ما حصل، لم تعاتبني، بل اكتفت بالرّد عليه. لكنها لو فعلت فبماذا كنت سأجيبها؟ تعالت عن التحقيق معي وأنا بدوري لازمت الصمت. لكني علمت من عبلة، في ما بعد، أنها نقلت إلى ليال تعليق الطيب تيزيني وكان جواب ليال: «هل أمينة كانت موجودة حين أدلى بتلك السخافات التي لا تليق بمفكر يطرح نفسه مفكراً على المستوى العربي كله؟»، وحين أجابتْها عبلة بالإيجاب اكتفت ليال بهز رأسها. لكن عبلة تابعت قائلة لليال: «كنت سأصحح له رأيه ولم أتمكن لأن الجو لم يسمح بذلك». وردّت ليال وهي تضحك: «كنت أتوقع التصحيح من شخص آخر وهو العليم بخفايا الأمور، لكن الموضوع لا يعنيني، إذ إنه يدل على مستوى المعلق فقط وعلى الذكورة المهيمنة في مجتمعاتنا».

56

عادت الجامعة إلى سابق عهدها، ففتحت أبوابها بعد إقفال قسري دام لأكثر من سنة، ودبت فيها الحياة من جديد كما دبت في كل أنحاء الوطن الذي خرج من جراحه ليرمم ما فعلته الحرب من تدمير وتشريد وموت و.... عدنا إلى حياتنا السابقة والتقى الزملاء والأصحاب وباشرنا العمل الذي كنا بشوق إلى مباشرته بعد أن هدّت الحرب حيلنا وكادت ترمينا في اليأس.

عدت إلى عملي في الجامعة، لكن سوسة الكتابة كانت قد بدأت تنخر كياني، فقسّمت وقتي بين التحضير للدروس والاهتمام بوالدتي التي تقمصت دور الطفلة، طفلتي، والاهتمام بترسيخ صداقتي لأمينة، وبين الكتابة التي كرّست لها فترة الليل وأحياناً الصباح الباكر. بدأت الرواية من نهاية الحرب كي أعود، عبر حركة دائرية إلى استعراضها بكل ويلاتها عبر قصة حب بين إنسى ورجل،

قصة انتهت بالفراق بسبب خيانة الرجل لحبيبته التي، وعبر مخيلتها، استعادته لتتذكر معه كل الماضي قبل أن تتركه يعود من حيث أتى، إلى البلد الذي اختاره للإقامة هرباً من الحرب.

لم أنتبه، في حينه، لماذا كتبت الرواية بلسان الرجل، لقد أتى الأمر عفوياً وكأنه طبيعي جداً. حتى أن الموضوع لم يطرح عندي تساؤلاً، كتبتُ بعفويتي وصدقي المعتادين. لم أنتبه إلى ذلك إلا لاحقاً حين بدأت أتلمس ضرورة أن يكون للإنسى قول مختلف. كنت في حينه أعتبر أن القول هو واحد وهو القول الذكوري المهيمن، لم أدرك أنني كنت مستلبة وأقول قولاً غير قولي مع أن الرواية كانت تعبر عن فكري ومخيلتي وآرائي، لكنها رُويت على لسان رجل، وهذا دليل على أنني كنت لا أزال أعتبر أن لا كيان خاصاً بالإنسى التي كنت أسميها «امرأة» كما هو متعارف عليه. لم أكتشف علاقة التسمية بالفاعلية والكيانية إلا لاحقاً.

في هذه المرحلة عادت أمينة إلى سابق عهدها في العمل في الجامعة وفي الكتابة التي كانت تعتبرها أهم أفعالها؛ لقد تحرّرت من ملاحقتها لهادي لكي تتفرغ للإنتاج الفكري وبالتحديد النقدي منه. كنت أحترم عملها ولا أزورها إلا حين ترغب في ذلك، لكنها كانت سموحة واستمرت علاقتنا على أحسن وجه، لا بل توطدت أكثر، وبسبب بُعد سكني عن بيروت اعتدت على المبيت عندها أحياناً كثيرة، وبخاصة حين يبدأ التدريس في الجامعة في ساعة مبكرة صباحاً. كنا نتناول العشاء معاً ويؤنسنا وديع بظرفه المعتاد وتشاركنا سهام المزاح والجدية التي كنا نعود إليها في آخر السهرة ليشرع كلٌّ منا في الكلام عن مسار عمله وكتاباته.

كنت ألاحظ، خلال تلك الجلسات أن أمينة لا تسألني كثيراً عن

الرواية التي أكتب، كأنها تتعمد تجاهل الموضوع، وكنت، بدوري أخفي عنها ماذا أكتب لأفاجئها، في النهاية، بالعمل مكتملاً. استمرت في التعامل معي كأنني خارج فقط متقصدة تجاهلي حين يكون الأمر جدياً أو يطال الفكر والثقافة والكتابة. لمست ذلك مرّات عديدة حين نتلاقى في جلسات مع آخرين. ففي تلك الجلسات كانت أمينة تتوجّه إلى الآخرين، وحين كنت أتدخل تحاول إهمال الأمر كأنها هي السيدة في هذا المجال وأنا لست سوى تابع لها. كان الوضع يغيظني، لكن لطف أمينة في جلساتنا الخاصة كان ينسيني غيظي وأقبل بمتابعة العلاقة معها، تلك العلاقة التي تغلغلت في كل تفاصيل حياتنا الخاصة. في الحميمي كانت أمينة منفتحة، لكن في العام كنت أشعر أنها تريد إلغائي. تريدني دائماً تحت جناحيها ممارسة نوعاً من الأمومة علي حتى ولو أن فارق السن بيننا لم يكن كبيراً، ومتمترسة وراء نوعٍ من الأستذة التي تزعجني. هل كان ذلك يعود إلى إدراكها لذلكَ التواطؤ العفوي بيني وبين سهام ابنتها حين يكون الموضوع المطروح أمراً عاماً وأمام الآخرين؟

لم أتوقف مطولاً عند كل هذه الملاحظات والأحاسيس لأنني كنت واثقة من أنني سأطير بجناحيَّ اللذين أخذا بالتكون وينموان مع نمو الرواية التي ما إن انتهيت من كتابتها حتى دعوت أمينة إلى تمضية ليلة عندي. قبلت الدعوة، وكان الأمر عادياً جداً بيننا. أتيت بها إلى بيتي وأمضينا سهرة حميمة قبل أن أطلب منها قراءة المخطوطة.

ـ هل أنهيت الرواية؟ سألت بدهشة.

ـ البارحة انتهيت من كتابتها وأطلب منك أن تقرئيها قبل نشرها.

ـ بكل تأكيد، أجابتني وأخذت المخطوطة من يدي وبدأت القراءة،

فتركتها وأويت إلى فراشي، بعد أن أعددت لها المبيت المريح. في الصباح استيقظت لأجد أمينة تقرأ.

ـ لقد سهرت إلى ساعة متقدمة كي أنجز القراءة قبل عودتي إلى البيت، قالت، ولم يبق سوى القليل.

ـ هل تذكرتِ ما فعلته معي حين سلمتك مرة مخطوطة ذلك المقال الذي وجدت أوراقه مبعثرة في موقف السيارات، تحت المطر؟ سألتها وتابعت: تستطيعين أخذ المخطوطة معك إلى البيت، لدي صورة عنها، أما الآن فلنذهب لتناول القهوة في مقهى (الكاستيل).

وافقت على اقتراحي من دون أن تجيبني عن سؤالي. لكنها وهي في السيارة تابعت القراءة، وحين جلسنا في المقهى استمرت تقلب صفحات الرواية، وحين طلبت منها أن تتوقف، أجابتني بأنها شارفت على النهاية.

دخل أحدهم المقهى وكان من معارفي، تبادلنا السلام وجلستُ معه تاركة أمينة للمهمة التي ترغب في إنجازها. كنت مسرورة لأن أمينة مأخوذة بالقراءة، وهذا دليل على أن الرواية تشد القارئ، فكيف إذا كان ناقداً؟

بعد أقل من ساعة، أكملت أمينة القراءة، فطوت الأوراق وأعادت المخطوطة إليّ وهي تقول، ومن دون أن أسألها رأيها: «إنها رواية غير عادية».

سررت بقولها هذا وأنهينا الجلسة، ثم أعدتها إلى بيتها وأنا كلي رغبة في أن تكلمني عن روايتي، مولودي الجديد، لكنها تجاهلت الموضوع، وأنا بدوري لذت بالصمت تلبية لكبريائي. كنت أود

سؤالها عن ملاحظات لديها، عن تعليقات، عن مآخذ، عن بعض النواحي الفنية التي لم أكن واثقة منها تماماً في بنية الرواية. لكن سكوتها لجم رغبتي. وبعد أقل من شهر صدرت الرواية التي حصدت نقاشات كثيرة بين آراء مختلفة تمتد من المديح الصارخ إلى النقد اللاذع وحتى إلى السباب والشتائم أحياناً، كل ذلك ترافق مع صمت أمينة الذي لم أفهمه ولم أسألها عنه.

57

لست أدري لماذا انتابني شعور بالغضب حين كنت أقرأ مخطوطة الرواية التي فاجأتني بها ليال تلك الليلة، بدأت القراءة وكلي أمل أن يكون المضمون سخيفاً كي أثني ليال عن نشرها. لكن ما إن باشرت القراءة حتى شعرت أنني مشدودة إلى المتابعة، فوجئت بجرأة الكاتبة التي لم تتورع عن التوسع في نقل تجربتها كما كانت في الواقع. أن يحكي المرء تجربته أمام صديق فهو أمر عادي، أما أن تُكتب هذه التجربة الجريئة لتنشر وتصبح بين أيادي العديدين من القراء، فهذا شيء آخر. أن يبوح الإنسان بمكنوناته الحميمة جداً لصديقه هو من باب تمتين الصداقة والتخفيف عن النفس، أما أن يكتب ويبوح بهذه الحميمية أمام جمهور لا يعرفه فهذا عمل لا يقوم به إلا من كان واثقاً فعلاً من ذاته بشكل أنه ما عاد يهتم لما يقوله الآخرون. صحيح أن ليال كانت تتبجح بأنها ستكون ذاتها غير آبهة بآراء الآخر، أياً يكن هذا الآخر، أما أن تنقل القول إلى

الفعل فهذا ما فاجأني في كتابتها.

أعترف أني حين كنت أقرأ الرواية وهي مخطوطة حاولت فعل ذلك بعين الصديقة وليس الناقدة، لكنها استفزتني وأيقظت في داخلي مشاعر متناقضة ما لبثت أن استكانت وتابعت القراءة بشبه تجرد، وحين انتهيت منها، خرج الكلام مني من دون استئذان وكان يعبّر بصدق عن انطباعي الأولي حول هذه الرواية: «إنها رواية غير عادية». قلت لليال. لكن بعد ذلك شعرت بالعجز عن الكلام وقد أنقذتني ليال في ذلك إذ إنها اكتفت بالتعليق المقتضب الذي سمعته مني ولم تطرح علي أي سؤال آخر.

حين نُشرت الرواية أتت التعليقات متناقضة تشبه انطباعي عنها، لكن المقالات السلبية كانت أكثر من الإيجابية. كانت ليال تطلع عليها ولا تبالي بالسلبية منها، لا بل تفرح بها حيث تقول: «لو أن الرواية لم الرواية هؤلاء النقاد لما كتبوا عنها، حتى ولو أتت كتاباتهم سلبية».

من ناحيتي ترددت كثيراً في الكتابة عن رواية صديقتي الأولى آملة أن تكون الأخيرة فيقفل الموضوع من تلقاء ذاته. تردّدت، ثم حسمت أمري بعدم الكتابة، مما أثار فضول بعض الأصدقاء وتساءلوا حول صمتي، وكنت أجيبهم بإنّ التريث في إبداء الرأي حول الكتابة الأولى هو من باب الحرص على الكاتب وعلى الناقد في الوقت نفسه.

ـ وهل كنت ستكتبين نقداً سلبياً في الرواية حتى تمنعت؟ سألني، مرة، أحد الأصدقاء.

ـ في الحقيقة لست أدري، فليال صديقتي ولا أريد جرح مشاعرها

ولا أريد أن أخسرها كصديقة.

ـ وهذا يعني أن رأيك هو سلبي في ما كتبت. أتى تعليقه.

ـ لا جواب، لكنني أنتظر العمل الثاني، إن كان هناك من عمل ثانٍ، وحينها أبدي رأيي.

الكل سألني عن سبب تمنعي عن الكتابة عن رواية ليال إلا هي، فقد تجاهلت الموضوع كلياً ولم تسألني يوماً عنه. لكنها ثابرت على الاتصال بي وزيارتي، كما في السابق. وهكذا تابعنا علاقتنا في جو تواطؤ خفي قائم على الصمت من جهتينا.

لكن ما قلب كل المقاييس ووضعني في حالة من الغضب والثورة هو ما حدث معي صبيحة ذلك اليوم حين تصفحت المقالات الثقافية في جريدة السفير. للحظة لم أصدق عيني حين قرأت في صدر الصفحة تلك، العنوان التالي: «ملاحظات نافلة حول رواية ليال..»، مذيلة بتوقيع الكاتب الكبير حنا مينه. قرأت المقالة بانتباه شديد وفوجئت بما قاله حول الرواية وقد أتى في أحد مقاطعها: «... إن كتاب ليال... هو سيرة جديدة في أسلوبه، وفي سرد حواره، وفي هذا الفكر الواضح، الذي يجانب الإسقاط والوعظ والافتعال، فهو يقول ما يريده بالدلالة وليس بالصراخ، والحدث فيه ينمو مع نمو السياق، في وحدة متكاملة، أو تسعى إلى التكامل، دون حشد للأحداث الجانبية، التي تلوي عنق الخط الرئيسي، في تفرعها إلى خط أو خطوط جانبية، تشوه العمل، وتفقده وحدة الصيرورة التي انسجامها شرط في الرواية وفي القصة و...».

وما استفزني أكثر هو تطاول المقالة على النقاد إذ شعرت أنه يتوجه إلي مباشرة في قوله: «إنني لست ناقداً أدبياً، إنما قارئ متذوق....

غير أنني آخذ على النقاد في لبنان وسورية والوطن العربي كله قصورهم في مضمار السبق، الذي يتبارى في شوطه الإبداع مع النقد الإبداعي والمسافة الطويلة التي صارت بينهما».

أصابتني مقالة حنا مينه في الصميم، وهي قد تقفل كل أبواب النقد السلبي حول رواية ليال، لم يتجرأ أحد بعد ذلك أن يسب ويشتم ما كتبته ليال كما فعل بعض النقاد أو المتطاولين على النقد، لقد أقفلت هذه المقالة النقاش، أقفلته لصالح ليال التي حتماً ستثأر من كل من انتقد كتابتها. وشعرت أنني غير قادرة على الصمت، فاتصلت بأحد الأصدقاء الذي هو صديق أيضاً لحنا وصببت كل غضبي، على حنا وما كتبه منهية كلامي بالتساؤل: «هل جُنَّ حنا مينه؟».

58

في إحدى مناسبات الحزب الذي ما زلت صديقة له، دُعي كل من محمود أمين العالم، من مصر، وحنا مينه، من سورية، للمشاركة بكلمات يلقيانها حول موضوع المناسبة. حضرت الاحتفال وقرّرت دعوة محمود أمين العالم الذي هو صديقي، إلى العشاء في بيتي تكريماً له. حين فعلتُ نصحني بعض الرفاق القدامى بدعوة حنا مينه لأنه مشارك في الاحتفال، ففعلت وتوجهت إلى حنا مينه الذي نظر إلي نظرة استفهام كأنه يتساءل من أكون. هنا تدخل أحد هؤلاء الرفاق وقال له: «ليال هي من أصدقاء الحزب». فرحب حنا بالفكرة وشكرني.

جمعت عدداً كبيراً من الأصدقاء، في تلك السهرة، التي شارك فيها كلٌّ من أمينة وعبلة وهدى وعيسى وحسنية و... وكانت سهرة ممتعة حيث شرب الجميع أنخاب بعضهم وتباروا في الرقص الذي

أبدعت فيه هدى، كعادتها. وفي لحظة معينة وجدت نفسي، وأنا أدخن سيجارة، على شرفة بيتي، بالقرب من حنا مينه الذي كان هو أيضاً يدخن. نظر إلي حنا وسألني: «هل تكتبين؟».

ـ كنت أكتب البحث والدراسة ومؤخراً كتبت الرواية وقد صدرت منذ فترة قصيرة.

ـ أود قراءتها. قال لي بتحبب.

ـ بكل سرور سأهديك نسخة منها. أسرعت إلى الإجابة.

ـ أدعوك إلى الغداء غداً في مطعم نصر، على الروشة، وتهديني الرواية.

قبلت دعوته وقدمت له الكتاب مع إهداء لطيف. كان حنا صامتاً، في تلك الجلسة وهو يستمع إلي أتكلم في كل المواضيع التي خطرت على بالي. وعند انتهاء الغداء استودعني ورحلنا كل منا في اتجاه، هو إلى الفندق حيث يقيم وأنا إلى بيتي. وبعد يومين غادر حنا العاصمة عائداً إلى دمشق.

بعد أكثر من شهر علمت أن حنا مينه في بيروت مجدداً لأنه اتصل بي وأعلمني أين يقيم وأعطاني رقم الهاتف، وفي اليوم التالي قرأت مقالته عن كتابي في جريدة السفير. فرحت جداً بها واتصلت بحنا أشكره، فدعاني إلى شرب القهوة معه. وحين زرته بادر إلى القول: «إنها المرة الأولى، في حياتي، التي أكتب فيها عن رواية». أفرحني كلامه وشكرته مجدداً، فتابع: «هذه المقالة ستغيظ الكثيرين».

ـ لماذا؟ سألته بسذاجة.

هز برأسه وقال: «أولاد القحبة، أعرفهم جيداً».

انتهت زيارتي له فتركته وتوجهت مباشرة إلى أمينة وأنا أحمل الجريدة. كان لقاؤها لي بارداً، على غير عادة. أربكني الأمر وخطر ببالي أنها تواجه مشكلة معينة، فسألتها وأتى جوابها مقتضباً: «لا شيء». فحاولت تغيير الموضوع ورفعت الجريدة وأنا أسألها: «هل قرأت مقالة حنا مينه؟».

ـ مقالة سخيفة، نعم قرأتها.

لم أعلم أن سبب برودتها هو ذلك المقال بالذات إلا حين انفجرت كالبارود وهي تهشّم بحنا وكتابته. لم أعد أعلم كيف علي أن أتصرف لأهدئ من ثورتها التي لم أفهم لها سبباً. تجمدت مكاني وأنا أستمع إليها، وحين صمتت سألتها بكل هدوء: «ولماذا كل هذا الكره لحنا».

ـ ما الذي دفعه إلى الكتابة في الموضوع هو الذي لم يكتب يوماً عن رواية؟ قالت بنبرة عالية.

ـ وما المانع من أن يكتب حتى ولو أنه لم يفعل ذلك من قبل؟

ـ هو روائي كبير فليكتفِ بذلك ويترك النقد لنا. قالت بالنبرة إياها.

ـ هو لم يكتب نقداً، بل أبدى رأيه فقط! قلت لها بكل بساطة.

ـ وهل أنت مقتنعة حقاً بما كتبه عنك؟ سألت ونبرة صوتها بقيت على حالها.

ـ هذا هو رأيه بعد أن قرأ الرواية.

ـ وكيف وصلته هذه الرواية؟

ـ لقد أخبرتك كيف، هل نسيتِ؟

ـ حتماً هناك أمور أخرى هي التي دفعت حنا إلى الكتابة. علقت وهي تهز برأسها كأنها متأكدة مما تقول.

ـ ماذا تقصدين؟ سألتها بتعجب.

ـ ما أسمعه حول الموضوع، وهو أن حنا مغرم بك.

ـ وما المانع من ذلك؟ وهل كونه مغرماً يغير في الأمر شيئاً؟ أجبتها بكل برودة؟

ـ طبعاً يغير. لماذا لم يكتب عن غيرك؟

ـ ربما لأن روايتي هي الوحيدة التي أشعرته برغبة الكتابة.

ـ لا تكوني ساذجة ومغرورة، ما كتبتِه لا يخرج عن العادي.

لم أذكّرها بأنها، هي بذاتها، قد سبق لها وقالت: «إنها رواية غير عادية». لذت بالصمت لأنني لا أريد أن أفقد صداقتها. لم أسألها لماذا لم تعترض على الذين شتموني في نقدهم للرواية. لذت بالصمت وهي تابعت نقدها وهيجانها. وحين استكانت استودعتها وانصرفت لأدعو حنا إلى الغداء. قبل حنا دعوتي، لكنه قلبها وأصبح هو الداعي.

59

لماذا أثارت غضبي مقالة حنا؟ هل لأنه قال فيها ما كان علي قوله ورفضت؟ هل لأنه كتب الحقيقة التي تمنعت عن ذكرها؟ وهل علي أن أكتب عن كل رواية تصدر؟ بالتأكيد لا، فالناقد حر في اختياراته. في الواقع، استفزتني رواية ليال لكنني لا أستطيع الحكم على كاتب من خلال عمل واحد. هذا ما أجبت به سهام التي، وبعد أن قرأت مقالة حنا سألتني لماذا لم أكتب عن ليال. لكن جوابي لم يقنعها وقالت:

ـ ليس المطلوب الكتابة عن الكاتب، بل عن العمل، وعمل ليال يستأهل الكتابة عنه حتى ولو كان العمل الأول.

ـ ليال صديقتي والكتابة عن عملها ستُفسر بألف اتجاه.

ـ إن أتى النقد حيادياً فسيسكت الجميع. سارعت سهام إلى القول.

ـ لقد فات الأوان الآن، سأكتب عن عملها الثاني إن استطاعت أن تكتب بعد.

ـ لقد أخبرتني أنها بصدد التحضير لكتابة رواية جديدة.

ـ سنرى، قلت لأختصر الكلام مع سهام وأعود إلى ذاتي.

فهمت سهام قصدي فتركتني ودخلت غرفتها وعدت إلى تساؤلاتي حول حقيقة علاقتي بليال وهل هي، بالفعل، صداقة؟ أعلم جيداً أن الصداقة تقوم على حب الآخر وقبوله كما هو، فهل أحب ليال وأقبلها كما هي؟ أشعر أنها تحبني وتقبلني كما أنا على الرغم من كل غموضي، فما هي حقيقة مشاعري تجاهها؟ إنها متناقضة، فأنا أحب ليال لكنني أرفضها كما هي، أحبها كما أريدها أن تكون. وكيف أريدها أن تكون؟ أريدها أن تكون تلك الإنسى الفارغة التي تهتم بخارجها فقط، أريدها صورة فقط من دون مضمون كي أستمر في التحكم بها. هل هذا هو ثأري منها لأنها تمكنت من سرقة حبيبي؟ ألم تمحي، بعد، كل تلك الفترة التي تفصلنا عن مقتل هادي حقدي عليها؟ يبدو أنني ما زلت حاقدة عليها. لكن لماذا أحافظ على صداقتها؟ هل لأنها تذكرني به ولو سلباً. ماذا كان سيقول لي لو بقي حياً وقد بدأت ليال الكتابة. حتماً لكان شمت بي وبتعليقاتي على ليال ووصفها بأنها لعوب. هل شماتة هادي المفترضة هي التي تجعلني أرفض أن تتمكن ليال من إثبات ذاتها في ميدان الإبداع؟ هل لأنني واثقة من أنها كانت ستسرقه من جديد لو كان حياً هو الذي كان مولعاً ومشجعاً لكل عمل إبداعي يقوم به أي شخص مهما كان؟ لن أسترسل أكثر، كل ما أعرفه، في الوقت الحاضر، هو أنني أحب ليال وأكرهها في الوقت نفسه، أحب أن تبقى تحت جناحي كي أشكلها على مزاجي وأكره

أن ينبت لها جناحان لتحلّق بهما وحدها وتخرج من كنفي.

غابت ليال لأيام فشعرت بالندم لأنني، بالفعل قسوت عليها، فاتصلت بها وعاتبتها عتاب المحب الذي يتفقد أعزاءه. كانت ودودة وطيبة وزارتني من جديد واستؤنفت علاقتنا كأن شيئاً لم يكن. لكن ما لبثت أن أثارت غضبي من جديد إذ أتتني يوماً لتقول لي: «اسمعي ما كتبه الأستاذ مطاع صفدي عن روايتي».

ـ أين نشر مقالته؟ لم أقرأها.

ـ لقد بعث لي برسالة، قالت ذلك وسحبت من محفظتها ورقة، وتابعت: يقول الأستاذ مطاع ما يلي: «عشت ساعات كثيرة مع بطلتك، تلك هي أول رواية عربية أقرأها منذ سنوات. وحتى لو لم أعرف الكاتبة لكانت صفحاتها الأولى أغرتني بالمتابعة. أعتقد أنك ساهمت في انتعاش ما أسميه بالرواية المثقفة بعد غياب طويل وحسناً فعلت. فقد كان كتابك الأول شهادة مزدوجة للفكر والفن معاً، وللحياة بصورة أخص. مهما كانت واقعية الحدث، فالنص الروائي أوقع فيه فوضاه الثائرة الحلوة. لم تصفي ما عشت بقدر ما أغريت القارئ العربي، واللبناني خاصة، باستعادة شهادته السرية على حياته بالذات التي أضاعها في عنف العبث المفروض كشرط لواقع المهمشين، ضحايا ضياعهم الخاص، قبل أن يكونوا طعاماً لحروب أهلية عكست معارك التكون الضائع لدى الجيل. أحببت كتابتك وشدني عنفوانك وأفرح بلقائك روائية أصيلة متمكنة من المعاناة والرصد والتعبير».

طوت الورقة وسألتني رأيي. لم أكن مرتاحة لما سمعته ولم يخطر ببالي إلا طرح السؤال حول علاقتها بالكاتب.

ـ أعرفه معرفة عابرة على الصعيد الشخصي لكنني أعرف كتاباته جيداً. أجابتني.

ـ وكيف وصله كتابك؟

ـ لقد التقيتُ به، مرة في باريس، في الفترة التي كنت أكتب فيها روايتي وقلت له ذلك فطلب مني أن أرسلها له حين تنجز وهذا ما قمت به.

ـ وأنت كيف تقيّمين ما كتبه لك؟ سألتها.

ـ أرى فيه تشجيعاً على المتابعة، وأنتِ؟

إنه رأي، لكن لا علاقة لمطاع بالأدب. لقد أبدى رأيه كمفكر والرواية ليست بحثاً فكرياً.

ـ لكن لا تنسي أن الأستاذ مطاع بدأ روائياً. أجابتني.

استغربتُ كلامها، لكنني تظاهرت بالمعرفة وقلت: «لكنه انتقل بسرعة إلى كتابة المقالات والدراسات الفكرية».

ـ لا تهمني كتاباته الفكرية الآن، أنا أسألك عن رأيك في ما كتبه حول روايتي.

ـ كما عبرتِ عنه، كلام مشجع، قلت باختصار كي أغير الموضوع، وتابعت: عادة نضع كل ما لدينا في العمل الأول، والمحك الحقيقي هو العمل الثاني، وأظن أن مطاع هو من هذا الرأي لأنه لم ينشر ما كتبه لك كما فعل حنا مينه، وهذا يعني أن مطاع يعرف حدوده، فهو ليس بناقد أدبي، ولهذا السبب اكتفى بكتابة رسالة

لأنه يعلم جيداً أن الكلام غير المنشور لا قيمة له.

ـ لا أهتم لما يُنشر، وأعتبر أن الأستاذ مطاع لا يجامل كما تحاولين الإيحاء لأنه ليس مضطراً لذلك وهو بالكاد يعرفني. أما العمل الثاني الذي تعتبرينه المحك فلقد بدأته، وسيكون عند حسن ظنك. وإن قصرت في زياراتي لك فلأنني منهمكة في الكتابة.

اعتذرتْ وانصرفت وبقيتُ وحدي أحلّل وأفكر، وقد خطر على بالي أن ليال، المغرورة أصلاً، سيزداد غرورها بعد أن أتاه إطراء من أديب كبير ومن مفكر كبير علّ ذلك الغرور يعمي بصيرتها ويتجلى ذلك العمى في عملها الآتي كي يتسنّى لي أن أكتب بكل موضوعية.

60

خرجتُ من عند أمينة وأنا مربكة، إذ لم أعد أفهم مواقفها ولماذا هي عدوانية معي وتحاول تسخيف كل ما يُكتب عن روايتي. أنا لم أسئ إليها ولم أتردد في صداقتي لها، لماذا كل هذه السلبية؟ تساءلت أمام صديقتي هدى التي أثق بآرائها وتحليلاتها، هي المتخصصة بعلم النفس والتي أعرف أنها تحبني كما أنا أحبها.

ـ ألم تعلمي حتى الآن لماذا أمينة تكرهك؟ أجابتني، وتابعت: كنت أظنك ذكية وتقدّرين الأمور كما هي عليه بالفعل.

ـ هل تقصدين قصة هادي؟ ألم تنتهِ بعد؟ سألتها.

ـ ولن تنتهي، فهي المحرك الأساسي لكل سلوك أمينة تجاهك.

ـ لكنها صديقتي وهي مصرة على هذه الصداقة.

ـ طبعاً فهي تريدك دائماً تحت نظرها، هي تبحث فيك عن السر

الذي جذب هادي إليك، وكلما اكتشفت شيئاً إيجابياً زاد كرهها لك، وهي لا تتردد في قول رأيها علناً أمام بعض الأصدقاء، كما علمت، ورأيها هذا تهكمي وساخر. قالت هدى.

هل أفهم من كلامها أنها تغار من صداقتي لأمينة؟ هدى ليست من هذا النوع الذي يغار من أحد، ثقتها بنفسها عالية جداً ولا تعير اهتماماً لما يدور حولها من سلبيات. هل أبوح لها بما أفكر به؟ لن أخفي عليها شيئاً.

ـ هل تزعجك صداقتي لأمينة؟

ـ لا تكوني ساذجة، وهل أنت تغارين من صداقتي لعبلة مثلاً؟ سألت.

ـ لا، فلكل صداقة نكهتها الخاصة، ويمكنك أن تكوني صديقة من تشائين، فهذا لا يغير من طبيعة علاقتي بك. قلت لها.

ـ إذاً لماذا تطرحين السؤال؟

ـ لأنني أجدك أحياناً مجحفة بحق أمينة وبصداقتها لي.

ـ إن أردت الحق، أنا لا أفهم صداقتك لها، هل هي من باب الاعتذار اللاواعي من قبلك لأنك، ومن حيث لا تدرين، حرمتها من الاستمرار في علاقتها بهادي؟

هذا السؤال وضعني مباشرة أمام ذاتي الحميمة وقلت لنفسي إنني، ربما، ساهمت، من خلال سلوكي مع هادي، ومن استقبالاتي له، بإبعاده عنها، ربما دفعته إلى التوهم أنني سأكون له في يوم من الأيام.

ـ بماذا تفكرين؟ سألتني هدى.

ـ أفكر بما قلته لي. لكن هادي مات منذ زمن وانتهت كل تلك الأمور التي، ربما، كانت صحيحة في حينه.

ـ هذه الأمور لا تموت حتى ولو مات مسببها فهي تظل تعمل في لاوعينا وتحدد سلوكاتنا.

ـ إذاً تودين القول أن صداقتي لأمينة ليست واضحة ولا سليمة، من قبلها ومن قبلي.

ـ من قبلها هي واضحة، لكنها ليست واضحة من قبلك أنت. أنت تكفرين عن ذنب لم تقترفيه بوعيك وهي تستغل هذا التكفير لتتحكم بك وتضعك تحت سيطرتها.

ـ لكني لست تحت سيطرتها وأنا أفعل ما أشاء من دون أن أستأذنها. قلت مستنكرة تحليلها.

ـ لكنك لم تنشري روايتك إلا بعد أن قرأتها أمينة، كما أخبرتني.

ـ طلبتُ منها قراءتها بصفتها ناقدة لأقف على رأيها من هذه الناحية.

ـ وهذا ما أقوله بالتحديد، لم تتجرئي على النشر إلا بعد موافقتها وها هي الآن تشهّر بما كتبت. أجابتني مبتسمة، لتبين لي أنها على حق في تحليلها للوضع.

ـ لماذا لا تحبينها؟ أتى سؤالي لها بشكل مباغت.

ـ أنا لا أحبها ولا أكرهها، فهي، بالنسبة لي شخص عادي، أما أنت فلماذا تصرين على صداقتها؟

ـ لأنها، على الرغم من بعض مواقفها السلبية، تختزن في داخلها إنساناً طيباً ومحباً.

ـ لن أشوش أفكارك، فأنت ناضجة وتتحملين مسؤولية أفعالك وأنا هنا لأكون إلى جانبك لأن صداقتي لك هي عميقة وغير ملتبسة.

تركت هدى وعدت إلى بيتي وأنا مصممة على طيّ الموضوع ومتابعة عملي كما أريد قائلة لذاتي: «أنا مستعدة لكل الاحتمالات، فإن كانت صداقة أمينة لي أصيلة بالفعل، فستصمد على الرغم من كل التحليلات، وإن كانت غير ذلك فلتسقط غير مأسوف عليها، ولن تكون المرة الوحيدة التي يخيب فيها أملي، سأستمر كما أنا وليقبلني من يشاء وليرفضني من يشاء. سأكون دائماً أنا ذاتي من دون مساومات ولا تنازلات». استقويت بهذا الكلام وعدت إلى متابعة الكتابة مع تصميم على الإفادة من كل ما قيل وكتب من سلبيات حول روايتي الأولى كي أتلافاها في تجربتي الجديدة. نظمت وقتي وباشرت العمل.

61

بعد فترة من الزمن، بعد أن ابتعدنا عن مشاحنات الكتابة وتقييمنا لها، ارتاح الجو بيني بين ليال وعادت علاقتنا إلى سابق عهدها من الود مع احترام كل منا لأوقات الأخرى وعملها. استمرت ليال بزيارتي كلما أتت إلى بيروت وأصبحت أنظم وقت عملي وفقاً لتوقيت زياراتها، وهي كانت تقدر ذلك ولا تسمح لنفسها برؤيتي إلا بعد أن تتصل بي وتسألني. اكتشفتْ أنني غدوت متسامحة معها، ربما للتعويض عما سبق، وقد لاحظتْ ذلك وتقربت مني أكثر ولم تعد تفتح موضوع الكتابة أبداً. كنت أسألها أحياناً عن عملها الجديد وكانت تجيبني باقتضاب: «الأمور تسير كما أريد». من دون أن تفصح عن طبيعة ما تنجز.

طيلة تلك الفترة لم تأت على ذكر هاني إطلاقاً ولم يعد يرافقها، أحياناً كما في السابق. لم أتوقف عند الموضوع في البداية، لكن

حين دعوتها، مرة، لتناول العشاء معنا وطلبت منها أن تصطحب هاني معها، ابتسمت وقالت:

ـ هاني «بَحّ».

ـ هل هو خارج البلاد؟ سألتها.

ـ لا بل خارج حياتي. أجابتني يكل هدوء.

فاجأني جوابها، هي التي كانت مغرمة به ولا تستطيع التخلي عنه على الرغم من عدم اقتناعها الكلي بالعلاقة. وأمام تعبير وجهي المتسائل تابعت:

ـ لقد انتهينا، لا بل انتهى ما كان بيننا فافترقنا.

ـ وكيف انتهت تلك العلاقة التي كنت غارقة فيها كلياً؟

ـ لكل أمر نهاية ولعلاقات العشق، أيضاً، نهاية. لقد انتهى هاني حين ما عاد يعني لي شيئاً.

ـ وهو؟ هل انتهيت أنتِ بالنسبة له؟ سألتها متذكرة حالتي السابقة مع هادي.

ـ أعتقد ذلك، فالعشق يتطلب اثنين، وحين يخرج أحد منه يصبح أعرج، ويتلاشى تلقائياً.

ـ وتتكلمين عنه كأنه لم يكن. أبهذه السهولة يموت العشق؟ وإن كانت له هذه النهاية، فهذا دليل على أنه لم يكن شغفاً أصيلاً.

ـ صفيه كما تشائين، أما بالنسبة لي فقد كان حقيقياً، ومع ذلك

شارف حدّه الأخير.

ـ وأنتِ ما هو وضعك الآن؟ سألتها.

ـ أكتب وأرسم ولا أشعر بالفراغ أبداً. أجابت بكل ارتياح.

ـ وهل تجدّدين التجربة بعد؟

ـ لِمَ لا، فإن أحببتُ مجدّداً فسأعيش الحب في كل أبعاده.

ـ أنا لا أفهم ذلك. أجبتها بشكل تساؤل.

ـ كيف لا تفهمينه؟ ألم تتزوجي بوديع عن حب؟

ـ بلى، لقد أحببته.

ـ وهل استمررت في حبه؟ ألم ينته حبك له؟

ـ ....

ـ لا تصمتي، أنا أعرف أنه انقضى وإلا ما كنت قد أغرمت بهادي. وهنا كل الفارق بين العلاقة الحرة والزواج؛ ففي العلاقة الحرة حين يذوي الحب تتهرّأ العلاقة. أما في الزواج فحين ينتهي الحب تبدأ الخيانة حين يكون المرء عاجزاً عن التغيير. كنت تحبين هادي وتمثلين في السرير مع وديع.

ـ ليس الزواج هو المانع من التغيير، بل الأولاد، وأنت تستسهلين الانفصال لأنه لا يوجد من يتأثر به. أتى جوابي حاسماً.

ـ أنا لا أتكلم عن ذلك بل عن العلاقة بحد ذاتها.

ـ إنك تبسطين الأمور، فلكل علاقة توابع تتأثر بها. قلت مصرة على موقفي.

ـ أعتقد أن الاختلاف الأساسي يقوم على طبيعة الاختيار؛ قالت ليال وتابعت: فمنهم من يختار الطريق المتبعة من الأكثرية وهي الزواج ويخضع لكل حيثياته ولو على حسابه وحساب شخصيته وانسجامه مع ذاته، ومنهم من يختار العلاقة الحرة حيث الأمور أوضح وتوابعها ليست مأساوية على الصعيد الشخصي ولا على الآخرين. وأنا اخترت العلاقة الحرة لأنني لا أحب القيود.

ـ وإن أثمرت العلاقة طفلاً فماذا تفعلين به؟ سألتها كي أضعها أمام مسؤولية لا تعرف معناها الحقيقي.

ـ لن أتركها تثمر طفلاً لأن الطفل يربطنا بالآخر مدى الحياة حتى ولو تم الانفصال، وأنا لا أحب الارتباط بأحد مدى الحياة. وهناك سبب آخر يدفعني إلى تجنب الإنجاب وهو أن الولد، في مجتمعاتنا يحمل اسم أبيه، وأنا أرفض ألاّ يحمل الطفل اسمي، كما تعرفين.

ـ وهكذا تضحين بنفسك من أجل أفكار ومبادئ لا مجال لتطبيقها في الواقع. ولو فعل الجميع مثلك لانتهت البشرية.

ـ غير مأسوف عليها. على كل حال، أعرف أن آرائي هذه لن تعمم، على الأقل، في المستقبل المنظور، لكن هذا لن يمنعني من أن أعيشها لأنها قناعتي حتى ولو لم أجد لها صدى قوياً في الواقع. الحرية عندي هي أثمن من الحياة، وفي ممارستي لها لم أتجنَّ على أحد.

ـ تتجنين من دون أن تدري وقد بدأت بعض النساء يفكرن مثلك

ويرفضن الزواج بشكله التقليدي. ألا تلاحظين موجة الطلاق بين النساء المثقفات؟ سألتها.

ـ خبر يفرحني، وأنا لا أسميه تجنياً، بل تأثيراً. وهؤلاء النساء اللواتي يطلقن، لا يفعلن ذلك إلا لأنهن يردن العيش بحرية ومن دون أقنعة بالية، يردن تحقيق ذواتهن من دون قيود، وأنا أحيي شجاعتهن لأن البعض منهن لديهن أولاد.

ـ أنت إذاً، تشجعين الطلاق، ولو أتى على حساب الأولاد. قلت مستغربة.

ـ أنا لا أشجعه، بل ألاحظ، فقط تكاثره، وهو دليل على أن العلاقات، كأي كائن آخر، لها خاتمتها. وكل ما حصل الآن من تغيير هو أن النساء، وحتى الرجال، استبدلوا الخيانة المتسترة بالزواج، بإنهاء العلاقة والعيش الحر.

ـ تتجاهلين، دائماً الأولاد، ألا تعلمين ماذا يحصل لهم في الطلاق؟ قلت مشددة على الموضوع نفسه، موضوع الأولاد.

ـ أعلم تأثير الطلاق على الأولاد وهو تأثير متغير بحسب عمر الطفل، لكن من الأفضل للطفل أن يعيش جواً من الصدق بين والدين منفصلين بدل أن يعيش جو الغش والكذب بين والدين يمثلان المشاركة، والطفل يحدس بصدق العلاقة أو كذبها أكثر من الكبار ويتأثر بالكذب سلباً.

ـ لن أقنعك ولن تقنعيني، فلننهِ الموضوع. ومن حسن حظي أن سهام ليست هنا لتسمع آراءك هذه.

ـ سهام تعرف آرائي، لقد تحدثنا بالموضوع مرات عديدة وهي توافقني في الكثير منها. قالت وكأنها تحط على عيني.

ـ لكنها تود الزواج والإنجاب و...

ـ أنا قلت إنها توافقني الرأي وليس الفعل، وإن أرادت الزواج والإنجاب فهي حرة، المهم أن يعيش كل فرد قناعاته ورغباته، حتى ولو أتى ذلك مخالفاً لقناعاتي، فأنا مع الحرية أولاً وأخيراً. قالت بلهجة جادة وجافة.

ـ وهل تكتبين في هذا الإطار موضوعك الجديد؟ سألتها كي أحثها على الكلام عن عملها الذي يأخذ كل وقتها.

ـ ستطلعين عليه حين ينشر. والآن أستودعك لأعود إليه.

62

عدت إلى عملي وانكببت عليه كي أنجزه بسرعة، وعملي هذا كان ينقسم إلى قسمين: الرسم والكتابة. وزّعت أوقاتي بشكل متوازٍ بين النشاطين، وقد ساعدني في ذلك أنني كنت في إجازة السنة السابعة في الجامعة، مما مكنني من التفرغ لما كنت بصدده. قبل أن تنتهي تلك السنة شارفت على نهاية الرواية، وقد تجمع لدي أكثر من ثمانين لوحة لم ترسم كلها في تلك الفترة، بل في فترات سابقة أيضاً. استعرضت اللوحات وكنت راضية عن عملي فيها، لكن حين أعدت قراءة الرواية شعرت أنها لا تفي بما كنت أتوق إليه فعلاً. احترت في أمري، هل أسلمها للنشر في شكلها الحالي الذي لم أكن راضية عنه كلياً أم أتريث وأعيد العمل من جديد؟ فكرة إعادة العمل أشعرتني بالإحباط، لكنني سرعان ما استرددت نشاطي بعد أن استشرت حنا مينه الذي أصبح صديقي وتوطدت علاقتنا عبر المراسلة وبعض الزيارات لكلينا بين بيروت ودمشق. استشرت

حنا في الموضوع ونصحني بأن أعيد النظر في الموضوع، حتى ولو تأخر إصدار الرواية لأن القارئ، ينتظر، عادة، العمل الثاني لكي يبني رأيه في الكاتب.

اتخذت قراري بإعادة الكتابة ونفذته، لكن في أجواء بعيدة عن أجوائي العادية؛ سافرت إلى باريس، استأجرت شقة صغيرة ومكثت فيها شهراً كاملاً لم أخرج خلاله منها إلا لشراء ما أحتاج إليه من مأكل ومشرب. لم أزر المتاحف والمعارض ولا دور السينما ولا حتى المكتبات والمقاهي والحدائق والـ.... كنت أود أن أقوم بكل ذلك كي أكتشف ما هو جديد باريس الذي تفاجئني به كلما زرتها. حرمت نفسي من تلك المتعة وانكببت على عملي في إعادة كتابة الرواية من جديد، ممنية النفس بانني سأقوم بكل ما أصبو إليه حين أنتهي منها.

بعد أن انتهيت من العمل، أعدت قراءة الرواية التي حازت على رضاي، بخاصة أني اتبعت فيها أسلوباً لم أجده في كل قراءاتي السابقة. أنهيت العمل وكنت متعبة جداً فقررت العودة إلى لبنان واعدة نفسي بزيارة مختلفة إلى باريس. عدت إلى بيتي وأول عمل قمت به، هو البحث عن دار النشر التي كانت تنشر روايات أحد أصدقائي. رحب بي أصحاب الدار وسلمتهم الرواية. بعد يومين اتصل بي المسؤول عن النشر في تلك الدار وأبدى إعجابه بالرواية ووعدني بأنه سيقيم لها حفل توقيع كبير.

صدرت الرواية وقدّمتُ النسخة الأولى إلى أمينة مع إهداء لطيف ومعبر عن صداقتي لها. استلمت أمينة الرواية وعلقت على العنوان الذي استثار حشريتها وسألتني:

ـ هل تكتبين عن الجسد في هذه الرواية؟

ـ أكتب عن منطق الجسد وآليته الخاصة. أجبتها.

ـ وهل يستأهل هذا المنطق رواية كاملة؟ سألتني مستنكرة.

ـ ستحكمين بعد القراءة. أجبتها باختصار.

تركت الرواية مع أمينة وانصرفت إلى إعداد حفل التوقيع مع دار النشر التي اقترح أصحابها، بعد أن شاهدوا عملي في الرسم، أن يكون التوقيع مرافقاً بمعرض للوحاتي. وافقت على العرض الذي أتى وفقاً لرغبتي وباشرنا العمل.

أتى التوقيع، الذي لم تحضره أمينة، موفقاً جداً إذ كان الحشد كبيراً وقد دغدغ كبريائي عريف الحفلة، وهو أستاذ في الجامعة ومتخصص بالأدب العربي، إذ قال في كلمته: «بعد هذه الرواية سيقال ما قبل ليال... وما بعد ليال..». أطربني هذا القول وعزّز موقفي عدد النسخ التي وقعتها في تلك الليلة وقد وصلت إلى حدود الست مئة. وفي الأيام اللاحقة بيع عدد لا بأس به من اللوحات.

لا أذكر لماذا تغيبت أمينة عن التوقيع، هل كانت خارج البلد؟ ما عدت أذكر، لكنني أذكر أنني أخبرتها، لاحقاً، بكل التفاصيل وأبدت اهتماماً بما أقول ولم يستوقفها إلا عدد النسخ التي وقّعت، إذ علقت بالقول: «هل من المعقول أن توقعي هذا العدد خلال ساعتين؟» وحين أجبتها أن الحفلة امتدت من الخامسة حتى العاشرة ليلاً، قالت: «هكذا يصبح الأمر ممكناً». وعاجلتها بالسؤال: «هل قرأت الرواية؟»، وتابعت سؤالي بإخبارها عما قاله عريف الحفلة،

فابتسمت ابتسامة ملتبسة وأجابتني:

ـ لم يتسنَّ لي أن أقرأها بعد، لكن سأقرأها بأقرب وقت وسوف....، ترددت قليلاً ثم تابعت: لن أعدك بشيء الآن، دعيني أقرأها أولاً.

فهمت من قولها أنها تريد الكتابة عن الرواية هذه المرة فأجبتها: «اقرئيها وأطلعيني على رأيك فيها».

ـ سأفعل حتماً، أتى جوابها وهي تبتسم ابتسامة محببة ومشجعة.

في تلك الليلة، وبعد أن عدت إلى بيتي، أويت إلى فراشي باكراً ولم أستفق إلا على رنين الهاتف الذي أرعبني، إذ كان الوقت حوالى الثانية بعد منتصف الليل. رفعت سماعة الهاتف بالقرب من سريري وقلت بلهفة: «ألو من؟».

ـ أنا سهام، لا تخافي، لقد انتهيت الآن من قراءة روايتك، وقد هزتني جداً ولم أستطع النوم قبل أن أعبر لك عن إعجابي بها، إنها، بالفعل، رائعة، وتنخع الوجدان نخعاً وتهزُّ الكيان عميقاً، أهنئك على هذه الشجاعة التي تتمتعين بها والتي يفتقر إليها الكاتب العربي الذي يلجأ إلى التستّر في الأمور الحرجة فتأتي كتابته من دون لون ولا طعم.

مضت طويلاً في الإشادة بالرواية حتى أنهت كلامها قائلة: «حين أراك عن قرب سأتابع كلامي، أما الآن فتصبحين على خير».

أقفلت الخط ولم أستطع النوم لأن كل مشاعري قد استفاقت، فنهضت من سريري، خرجت إلى الشرفة لأدخن سيجارة وأنا

أستعيد كل ما سمعته من سهام التي كانت قد أصبحت في مرحلة الدراسات العليا في الأدب الفرنسي وهي بصدد كتابة أطروحتها لنيل الدكتوراه، أستعيد كلامها وأشعر بنشوة لا تضاهيها أية نشوة أخرى، ولا حتى نشوة الجنس.

63

كنت قد بدأت قراءة رواية ليال حين سألتني عنها، لكنني تريثت في إبداء الرأي قبل أن أنتهي من قراءتها كي يأتي التقييم متكاملاً. أعترف بأنني قاربت الرواية وفي نيتي أن أكتب عنها، قرّرت هذه المرة ألا أكون سلبية وأن أعبر عما يتكون لدي، بعد قراءتها، بشكل موضوعي، وهكذا أكون قد حافظت على موقعي كناقدة متميزة، وفي الوقت نفسه أكون قد قمت بواجب الصداقة تجاه ليال. كنت أتوقع رواية عادية، إذ اعتقدت أن ليال قد أعطت كل ما عندها في الرواية الأولى. كنت أتوقع أن تكون الرواية الجديدة نوعاً من التكرار. هل كنت أتوقع ذلك بالفعل؟ أم كنت أرغب فيه؟ في أعماقي كنت أرفض العمل، لكني أسكتُّ رغبتي الدفينة هذه، أبعدتها عني وحاولت مقاربة الرواية بكل جدية كأنها لكاتب لا أعرفه ولا تربطني به أية صداقة، وهذا هو عمل النقد الحقيقي.

بدأت عملي كناقد متحرر من كل الروابط إلا ضوابط العلم والمعرفة. لكن ما إن قرأت صفحات قليلة حتى شدني النص ولفتت انتباهي بشكل واضح تقنية السرد التي خرجت عن المألوف وكل ما اعتدت عليه في كتابة الرواية. لقد لجأت ليال، في عملها هذا، إلى تقنية جديدة، ذلك أن الأصوات تتبادل فعل القول. ابتدأ النص بصوتين ثم أصبح ثلاثة أصوات تتناوب على السرد بمهارة عالية بحيث تتداخل تلك الأصوات لتشكل وحدة متجانسة غير مسبوقة. هذا في الشكل، أما المضمون فقد أوقف شعر بدني، كما يقال؛ من أين لليال كل هذه الجرأة في معالجة أمور الجسد ومكنوناته؟ من أين أتتها هذه الشجاعة لتكتب عن جسدها كأنها تكتب عن موضوع خارجي؟ أدهشتني الرواية، وتابعت قراءتها بكل شوق علني أكتشف هبوطاً في المستوى الذي انطلقت منه، لكنني لم أحظَ بأي من إشاراته، واستمرت الرواية على الوتيرة إياها التي انطلقت منها. لماذا لا أملك هذه الشجاعة التي تتمتع بها ليال أنا التي لدي الكثير لأقوله للقارئ العربي؟ ليال على حق في استماتتها في المحافظة على حريتها، فالكتابة إما أن تكون حرة أو لا تكون وعملها هذا يجسد الحرية في أبعد معانيها. لقد حطمت، في هذه الرواية أحد أهم المحرمات في مجتمعنا. صحيح أن البعض قد سبقها إلى ذلك في جزيئات صغيرة من كتاباته، لكنها هي أفردت رواية بكاملها عن الجسد وآلية تحركه. أما الموضوع فهو قصة علاقتها بهاني، كيف بدأت من تلاقي الجسدين وكيف تطورت، على الرغم من كل التناقضات بين البطلين، تطور قائم على الرغبة التي تحرك الجسد. إنها، باختصار رحلة الجسد التي لم يجرؤ أحد بعد على مقاربتها.

هل أعبّر لليال عن حقيقة ما خرجت به بعد القراءة ؟ حتماً ستسألني، بعد فترة، عن رأيي، فماذا سأقول لها؟ هل أجرؤ على

قول رأيي فيها من دون كذب؟ الجرأة في الإفصاح عن رأيي في كتابتها قد تضاهي جرأتها في كتابة ما كتبت، وأنا لا أملك هذا المستوى من الجرأة. إن عبرت بصدق عن رأيي، فهذا اعتراف بأنها قد خرجت كلياً من قبضتي، ولن أفعل. لكن نشر الرواية سيساهم في اشتهار الكاتبة، وهذا الاشتهار يعني أنها ستخرج من تحت سطوتي أنا التي جعلتها أسيرة دائرتي حتى الآن، مستغلة سهولة انقيادها العفوي. لن أفسح لها في المجال لتطير بجناحيها، سيشمت بي هادي في قبره، فكم كنت أنعتها أمامه بأنها nana لا تصلح لشيء إلا إغواء الرجال. هل حدس هادي بإمكاناتها ولهذا السبب أغرم بها؟

تضاربت الأفكار في رأسي واحترت في أمري، وحين اطلعت على رأي سهام في رواية ليال، ازداد ارتباكي وما عدت أعرف ماذا علي أن أفعل. قررت أن أتجاوز حقدي وأن أكتب عن الرواية وجلست أمام مكتبي محاولة رصف الكلمات، لكنها لم تأتِ وتيبس القلم في يدي. لقد شلت أصابعي وجف ذهني. حاولت مرات عديدة، لكنني لم أفلح، فرميت القلم واستسلمت لما تمليه علي مشاعري كأن ثمة غضباً غامضاً يستبد بي؛ لن أكتب عنها، سألوذ بالصمت كما فعلت مع روايتها الأولى.

مر الوقت وتابعت ليال زياراتها لنا بشكل عادي، لكنها كانت كل مرة تأتيني بما كتب عن روايتها في الصحف والمجلات وتخبرني عن بعض المقابلات التي أجريت معها. كنت أستمع إليها وأتساءل: هل تحطّ على عيني لأنني لم أكتب بعد عنها؟ لكنها لم تسألني يوماً عن ذلك، حتى أنها لم تعد تسألني إن قرأت روايتها أم لا، اكتفت بترداد ما قالته سهام لها وقد أغاظني جداً، إذ لم تخبرني سهام عن

تلك المكالمة الليلية مع ليال.

ما هذه الكبرياء التي تتمتع بها ليال؟ لكنها كبرياء أفادتني، إذ أنقذتني من (واجب) إبداء الرأي والكتابة التي كانت ستربكني في صياغة التعبير المناسب عنها. ماذا كنت سأقول لها لو سألتني؟ هل كنت سأتجرأ على الإفصاح عن الحقيقة؟ بالتأكيد لا؛ كنت سأراوغ وأتهرب من إعطائها رأياً واضحاً. لعلها حدست بارتباكي، لعلها أدركت أنني عاجزة عن قول رأيي بكل صراحة فوفرت علي هذا الموقف وتجاهلت الموضوع كلياً وأنا استفدت من تجاهلها هذا ومر الوقت من دون أن أحرج. مر الوقت وهدأ الضجيج حول تلك الرواية وعادت ليال إلى حجمها الطبيعي واستعدتها من جديد. لكن سرعان ما استثارت غيظي مجدداً، إذ إنها فاجأتني يوماً بأنها تكتب رواية جديدة وهي تقول: «هذه المرة الأمر مختلف تماماً، سأكتب في السياسة».

كلامها أثار حسدي مجدداً لنشاطها وانكبابها على الكتابة، لكنه، وفي الوقت نفسه، أراحني إذ إنها هذه المرة ستخرج عن النمط السابق الذي استفزني وأخرس القلم في يدي. ربما أتت الكتابة في السياسة لتفسح في المجال أمام النقد الموضوعي.

64

زرت مرة أمينة، وكان يوماً من أيام الصيف الحارة، استقبلتني بالترحاب وقدمت لي المشروب البارد الذي احتسيناه ونحن نمسح العرق عن وجهينا وسهام تتجوّل في أنحاء البيت حولنا وهي مرتدية الشورت وتتأفف من شدة الحر فتوجهت إليها قائلة: «ما رأيك لو ذهبنا إلى البحر للسباحة؟». ركضت نحوي سهام، اقتربت مني وقبلتني وهي تقول: «فكرة ممتازة». أما أمينة فقد اعترضت لأنها لم تكن قد أعدّت ما يلزم للبحر.

ـ أذهب، هذه المرة أنا وسهام، وفي المرة الثانية، حين تكونين قد هيأت نفسك، نذهب جميعاً. قلت لها.

ـ عين الصواب، أجابت سهام التي سألتني إن كانت أغراض البحر معي.

ـ طيلة فصل الصيف لا تخرج عدّة البحر هذه من سيارتي. أجبتها.

فرحت سهام بكلامي ومن دون أن تنتظر تعليقات والدتها دخلت غرفتها، جهزت حقيبة البحر وتوجهنا نحو المسبح العسكري.

حين وصلنا وارتدينا لباس البحر سارعت سهام إلى السباحة بينما تمدّدت أنا على كرسي في الشمس. بعد أكثر من نصف ساعة عادت سهام وهي تعبر عن امتنانها لي. تمدّدت بالقرب مني ودهنت جسدها بالزيت واسترخت مستسلمة لأشعة الشمس الحارقة. بعد دقائق من الصمت بيننا توجهت إلي لتقول: «الشمس لا تحتمل، هل ننتقل إلى المقهى لتناول البيرة الباردة»؟ المقهى لم يكن بعيداً، إذ كان علينا أن نخطو خطوتين للوصول إليه.

ـ هيا بنا، قلت ذلك وناديت النادل وطلبت البيرة التي أتت باردة كما تريدها سهام التي ما إن رشفت منها القليل حتى تنهدت وعبرت عن سرورها. ثم توجهت إلي وقالت: «حسناً فعلت باقتراحك المجيء إلى البحر، فأنا، منذ فترة أود الكلام معك بغياب أمي، الأمر الذي لم يتوافر لي حتى الآن».

ـ هات ما عندك، ما الموضوع؟ كنت أتوقع أن تخبرني عن مشكلة تتعرض لها، عن حب جديد مثلاً، عن علاقة ما أو... لم يخطر ببالي ما فاجأتني به إذ افتتحت كلامها بالسؤال التالي:

ـ هل أنت غاضبة من سكوت أمي عن كتاباتك بينما تكتب عن كل الناس؟

ـ للحقيقة، لا، أنا لست غاضبة، وللناقد الحرية في أن يختار ما

يشاء من المنشورات كي يكتب عنها وأمينة هي ناقدة متمرسة وتعرف تماماً صوابية اختياراتها.

ـ ليال، لا تراوغي، أعرف وأشعر أنك غير ممتنة من أمي على موقفها هذا، وأنا سأكون صريحة معك. أجابتني سهام وقد حدست بحقيقة ما أشعر به تجاه تجاهل أمينة لكتاباتي.

ـ قبل أن تتابعي سأوضح لك حقيقة مشاعري، أنا لست مستاءة من صمتها، بل مستاءة من تعليقاتها الشفهية التي تقوم بها أمام بعض الأصدقاء وقد وصلني الكثير منها وهي، في مجملها، محاولة الحطّ من قيمة أعمالي وإظهارها كأنها غير ذات أهمية.

ـ لماذا لا تصارحينها في الموضوع وأنتما صديقتان؟ سألتني سهام.

ـ صارحتها مرة وأجابتني إن «فلان»، وأنت تعرفينه، قال: ما هذا الذي تكتبه ليال وماذا تبغي من ورائه؟ الأفضل لها ألا تكتب. وهذا الفلان تعتبره أمك مهماً جداً. وشعرت كأنها تتبنى موقفه، كأنها تقصدت أن تروي لي أقواله عوض أن تصرح عن رأيها هي.

ـ لا، هذا لا يعني أنها تتبنى موقفه. أنا أعرف جيداً أنها معجبة جداً بما تكتبين لكنها تشعر أنك تقومين بالدور الذي كانت تتمنى أن تقوم به هي، لكنها لا تملك شجاعتك، ربما لأن ظروفها مختلفة عن ظروفك. أعرف والدتي جيداً فهي لم تكتب عن رواياتك لأنها حاقدة على نفسها وعلى عجزها عن تكسير القيود التي ترى أنك أنت قد حطمتها.

ـ هناك آخرون حطموا بعض القيود وتكتب عنهم. قلت لها.

ـ الأمر يختلف، فأمينة ترى فيك الكاتب الذي سرق كلماتها المدفونة في عمق أعماقها ولا تجسر حتى على مواجهتها. لقد وضعتها كتاباتك مباشرة أمام ذاتها الحقيقية التي لا تجرؤ على إظهارها. أجابتني سهام بكل وضوح.

ـ أكون في ذلك قد ساعدتها إذاً على إخراج أفكارها الدفينة وهذا أمر يجب أن يفرحها.

ـ هي استمتعت جداً بقراءتها لنصوصك، لكن أن تعبر عن هذه المتعة كتابة، فهذا يعني أنها ستخرج عن صورتها المعروفة عند الجميع، هذه الصورة التي عملت طوال حياتها على إخراجها بأبهى حلة وهي متمسكة بها حتى على حساب حقيقتها التي هي مختلفة.

استوقفني تحليل سهام هذا الذي أظهر لي عمق هذه الصبية التي ترى الأمور كما هي من دون لف ولا دوران. لقد وضعتني في حالة من التسامح حيال أمينة، وقررت ألا أسألها إطلاقاً عن رأيها في روايتي الجديدة، فإن كانت تفضل الصمت بسبب الإزعاج الذي تشعر به في حال الإفصاح فسأوفر عليها هذه المعاناة وقد اكتفيت بما سمعته من ابنتها سهام. سأستمر في صداقتي لها وربما ستزداد صداقتي لها بسبب هذا الوضوح في الرؤية الذي ساهمت فيه سهام.

وهكذا داومت على زيارة أمينة كالعادة، لكني تقصدت عدم طرح موضوع رواياتي إطلاقاً، وبخاصة غيبت تماماً سؤالي لها عن عدم كتابتها عن نصوصي وهي، بدورها تجاهلت الأمر كلياً، واستمرت صداقتنا خارج هذا الإطار الضيق، لأن أموراً كثيرة كانت تجمع بيننا.

كنت أشعر أنها مرتاحة لصمتي عن الموضوع، هل كانت تدرك سبب صمتي كما أدرك سبب صمتها؟ المهم هو أن الأمور تابعت مسارها العادي في جو من التواطؤ غير المعلن، تواطؤ بيني وبين أمينة وتواطؤ آخر جميل جداً بيني وبين سهام التي أعجبتُ بصدقها وعدم خوفها من أن تكون واضحة مع ذاتها أولاً ومعي تالياً.

65

استوقفني سلوك ليال الذي استمر هو هو، سلوك ودود ومحب. لم ألحظ أي تبدل في لهفتها علي كأنها لم تتأثر بصمتي. هل هي تدرك السبب الحقيقي لعجزي عن التعبير عن رأيي في كتاباتها؟ ومن أين لها أن تدركه؟ لكنها تتصرف كأنها تستوعبني وتستوعب عجزي، كي لا أقول ضعفي. بدأت أشعر بالدونية أمام كبريائها هذه؛ كم هي واثقة من نفسها! كل ما لاحظته، في تلك الفترة هو أنها أصبحت تهتم بسهام أكثر من السابق وتعرض عليها بعض المشاريع الترفيهية، كالذهاب إلى البحر أو الدعوة إلى تناول الغداء في أحد المطاعم أو...كأن تواطؤاً خفياً يجمع بينهما وأنا خارجه. أزعجني الأمر، لكنني لم أعبر عن انزعاجي، بل حاولت مرافقتهما في كل مشاريعهما وقد رحبتا بي كل ترحيب مما خفف الشك عندي حول سبب تقاربهما.

مشاركتي لهما شجعت ليال على القيام بخطوة أخرى إذ بدأت تشركني أيضاً في علاقاتها وفي صداقاتها، وهكذا توطدت علاقتي بعيسى وبهدى بشكل خاص، إذ كانت ليال تصطحبهما لزيارتي من وقت لآخر، فكانت تدور بيننا نقاشات مهمة ومثمرة تغوص في مجالات علم النفس والفلسفة والأدب والفن و... فنخرج من واقعنا السياسي المتردي لنحلق في آفاق الفكر والثقافة. كنت أفرح بتلك اللقاءات وأشعر أنني في مملكتي الحقيقية، وكانت، في مجملها، تنتهي بأن تقول ليال: «هيا بنا ننهي الجلسة في... أو عندي في البيت حيث نشرب كأساً ونكمل السهرة». هل كانت تندم على اصطحابهما إلى منزلي؟ ربما، لكن لماذا؟

ـ ألا تعلمين لماذا؟ سألتني سهام مرة.

ـ اشرحي لي إن كنت تعلمين. قلت لها مستفسرة.

ـ ألا تلاحظين سلوكك معها في تلك الجلسات؟

ـ سلوكي؟ إنه عادي جداً. أجبتها مستغربة.

ـ لا يا سيدتي، سلوكك معها هو تجاهلها كلياً كأنها غير موجودة، إذ إنك توجهين الكلام دائماً إلى الآخرين، وإن حاولَتِ التدخل تتابعين كأنك لم تسمعيها. ثم إطراؤك اللافت لهدى أليس مبالغاً فيه؟

ـ لكن هدى سيدة جميلة وطيبة وأنيقة ومرحة وما أقوله لها ليس مبالغة.

ـ لكنها ليست أفضل من ليال بأي شيء، ومع ذلك لم أسمعك يوماً تطرين ليال، لا بل تحاولين دائماً أن تبدئي بالنقد معها كأنك تكرهينها.

ـ لو كنت أكرهها لما استمرت صداقتنا. أنا أحب ليال، لكن هذا لا يمنعني من قول الحقيقة فيها ولها بالذات.

ـ ولماذا تتجاهلينها في جلساتكما مع الآخرين؟ وهل تعتقدين أن سلوكك هذا يخفى عليها؟ هل تودين القول إنها صورة فقط ليس لها دور في العالم الذي تعتبرينه حكراً لك؟ ألا تفهمين أنك تؤذينها بتصرفك هذا؟ وأنا لا أفهم لماذا تستمر في صداقتها لك، وهل أنت صديقة لها فعلاً؟

ـ اهتمي بأمورك ولا تتدخلي في ما لا يعنيك. قلت لها لأقفل الموضوع.

ـ سأصمت، لكن ذلك لن يغير من قناعاتي. أجابتني قبل أن تدخل غرفتها.

انصرفت سهام إلى أعمالها الخاصة وتركتني أمام ملاحظاتها الصحيحة التي لم تكن إلا وصفاً للواقع كما هو. بالفعل، إنني أتقصد تحجيم ليال أمام الآخرين وما أقوم به هو تصرف واعٍ، لكن هل هو إلى هذه الدرجة صارخ كي تلاحظه سهام وتعترضٍ عليه؟ هل يلاحظه الآخرون؟ وكيف يفسرونه؟ لا يهمني رأيهم، المهم أنني أنجح في مخططي وتلوذ ليال بالصمت كأنها عاجزة عن المشاركة، وهذا ما يشعرني بالثأر منها لأنني ما دمت لا أنسى ولن أنسى ما فعلته بي. لن أسامحها على خراب كل ما بنيت مع هادي لسنين طويلة، لن أغفر لها أنها جميلة وتستطيع استمالة أي رجل. لكن باستطاعتي أن أحولها إلى هذه الصورة البرانية فقط وجعلها تختزل كل كيانها. فإن كانت تملك البراني فأنا أملك الجواني وهو الأهم. لكنها في محاولاتها الكتابية تثبت نفسها في المجال الذي أحاول

إبعادها عنه، ولهذا السبب لن أجعلها تنجح في هذا المجال وسأحاول المستحيل لتحطيم صورتها، لن أكون محايدة فقط، بل سأشوه كل إنجازاتها وأحولها إلى تفاهات. لن تصمد أمامي، حقدي عليها أكبر من قدرتها على الصمود. وهذا ما يدفعني إلى مصادقتها وإلى المحافظة على هذه الصداقة لأنني أجعلها دائماً قريبة مني، وهذا يمكنني من التحكم بها كما أشاء. لن أبعدها عني وسأسايرها قدر المستطاع كي تبقى تدور في كنفي وسأستمر في تقزيمها إلى أن تيأس وتنصاع لما أرغب أن تكون، وبخاصة أن هذه الصورة الخارجية ستكون فريسة للزمن الذي سيقوى عليها ويزيلها. الوقت لمصلحتي إذ إنه كفيل في إلغاء ما يميز ليال الآن وإذ يلغيه يحولها إلى فراغ، بينما أنعم أنا بإنجازاتي. أنا من سيكون وهي إلى زوال، لكن مهمتي ليست سهلة وبخاصة إن استمرت ليال في ملء الفراغ الذي أتمناه لها بكتابات يبدو أنها مصممة عليها. وتصميمها سيزيد من تصميمي المقابل على محاربتها وسأنجح لأنني ناقدة معروفة والكل يسمع ويقبل رأيي. سلاحي أقوى من سلاحها، سأهدم كل ما تبنيه، لكن سأحتفظ بصداقتها التي هي، خارج إثبات الذات من قبلها، رائعة إذ إن ليال صادقة ومخلصة ومعطاءة ويمكن الاستفادة منها في أمور كثيرة.

هذه المصارحة مع ذاتي وضعتني أمام تساؤل كبير عن معنى الصداقة، لكنني شعرت بالتعب ولم أتابع تحليلاتي، فإن تابعتها رمتني في حضيض الشعور بالذنب وأنا لا أبغي ذلك إطلاقاً لأن حقدي كبير وكبير جداً. ليال صديقتي وستظل صديقتي وأعرف كيف أحافظ على هذه الصداقة ما دمت أعرف طيبة ليال التي سأستغلها حتى النهاية.

66

خرجت مرة من بيت أمينة وكنت برفقة عيسى وهدى. خرجنا لمتابعة الجلسة في أحد المقاهي. وما إن أصبحنا خارج الباب حتى تنهد عيسى وقال: «مسكينة أمينة كم هي متعِبة وكم هي متمسكة بجديتها وآرائها التي تنفر المستمع أحياناً».

ـ المشكلة أنها تريد فرض آرائها ولا تقتنع بما يقوله الآخر. أجابت هدى. وأضافت: الأنكى من كل ذلك أنها تجادلك في كل الاختصاصات كأنها عليمة عصرها وتعرف كل الأمور.

ـ وهذا دليل عقد متراكمة عندها، أنا لا أراها إلا «كبكوب» من العقد، أجاب عيسى، ولهذا السبب لا أعتب عليها، مع إقراري بأنها متعِبة.

وصلنا إلى المقهى وطلبنا البيرة، فما كان من هدى إلا أن نظرت

إلي وقالت: أنا لا أفهم صمتك أمامها، لقد لاحظت أنها تتجاهلك، لكن لماذا تطاوعينها؟

ـ حسناً فعلت ليال، أجاب عيسى، أنا أعرف الآلية التي تحرك سلوك ليال تجاه أمينة.

ـ وما هي هذه الآلية؟ أنا لا أفهمها إلا أنها نوع من المازوشية عند ليال التي تشعر بالقمع وتقبل به.

ـ ربما كان تحليلك صحيحاً، وقبل أن تجيبك ليال، دعيني أبدي وجهة نظري؛ أعتقد أن ليال تشفق على أمينة التي ليس لها ميدان لإثبات ذاتها سوى هذا الميدان، فتتركها تجول وتصول فيه وتصمت هي لتفسح لها في المجال لأن تكون.

ـ لكن ذلك يتم على حساب ليال. قالت هدى مستغربة تحليل عيسى.

ـ ما قاله عيسى صحيح في مجمله، أجبتها قبل أن أضيف: إنني أصاب أحياناً بالإرهاق من نقاشاتي معها حين نكون وحدنا، مع العلم أننا نتفق في أمور عديدة وبخاصة تلك التي تطال الحياة ومتطلباتها وصعوباتها. أمينة، في جلساتنا الخاصة هي غيرها في الجلسات مع الآخرين.

ـ وهذا تماماً ما أقصده، قالت هدى، لماذا تصر على عدم إشراكك في الحوار، ولماذا أنت تطيعينها؟ ثم ألم تلاحظي كم تغنت ومجدت برواية (...) ولم تأت على ذكر رواياتك إطلاقاً، مع أن رواياتك أفضل ألف مرة من تلك التي نالت إعجاب أمينة.

ـ إنه الثأر، يا حبيبتي، أجاب عيسى، وتابع: ليال سيدة جميلة، على عكس أمينة، ثم إنها ابنة بيت معروف وموقع اجتماعي مهم، وهي مع ذلك دخلت عرين الكتابة التي كانت أمينة تعتقد أن ليال عاجزة عن اختراقه. ففي الشق الأول تدرك أمينة أنها لا تستطيع أن تغير المعادلة، إذ الكل يعترف بجمال ليال ووضعها الاجتماعي، يبقى حيز واحد تستطيع أن تثأر فيه، وهو مجال الكتابة وهذا ما تقوم به، وما سلوكها مع ليال أمام الآخرين إلا للقول إن ليال هي فقط هذه الصورة البرانية التي لا قيمة لها.

ـ أفهم كل هذا التحليل، لكنني لا أفهم قبول ليال به، وكيف تستمر صداقة على هذه الأسس؟ سألته هدى مصرة على موقفها.

ـ أظن أن أمينة متمسكة بهذه الصداقة أكثر من ليال. قال عيسى.

ـ كيف؟ وهي، في العمق تكرهها. سألت هدى.

ـ سأشرح لك الأمر؛ علاقة هادي بليال لن تنساها أمينة أبداً ولن تسامح ليال عليها و...

ـ وهذا دافع إضافي لعدم فهمي هذه الصداقة.

ـ لا تتسرعي، أجابها عيسى، إن تمسك أمينة بصداقة ليال هو نوع من الإثبات للآخرين أن ما سمعتموه عن علاقة هادي بليال ليس صحيحاً وإلا فما كنت صادقتها. وهي تصر على استمرار الصداقة كي يترسخ في أذهان الآخرين أن هادي كان لها ولها وحدها.

ـ يعني أنها تتصرف كما تصرف جحا حين أطلق الكذبة ثم صدقها. أجابته هدى مازحة.

ـ تماماً، مع إضافة أنها تريد أن تحتفظ بليال لتكتشف السر الذي جذب هادي إليها. هي تحب ليال وتكرهها في الوقت نفسه وهذا الكره تمارسه في محاولاتها تحقير ليال وتغييبها عن النقاشات الجادة التي تعتبر أنها سيدتها.

ـ أنا معك في كل هذا التحليل، أجابت هدى، لكن هذا لا يلغي تساؤلي عن موقف ليال القابل بذلك. ما الذي يرغمك على قبول هذا السلوك من قبل أمينة؟ سألت متوجهة إلي.

ـ لقد استمعت إلى كل تحليلاتكم وأقنعني جزء كبير منها، لكن موقفي هو موقف إنساني وهو مرتكز على كل ما قاله عيسى؛ أشعر أن مجال انوجاد أمينة الوحيد هو وجودها على الساحة الأدبية ولهذا السبب أتركها تمارس هذا الوجود حتى ولو أتى، ظرفياً، على حسابي.

ـ وترضين بإلغاء ذاتك من أجلها وهي تحاول إلغاءك فعلاً؟ سألت هدى.

ـ أنا أملك الحقيقة وهي تملك الوهم؛ تعتقد أنها في سلوكها هذا تلغيني وأنا لست بحاجة لتقييمها كي أكون، أنا واثقة من نفسي ومن حضوري وهي تتصرف كالنعامة التي تعتقد أنها إن وضعت رأسها في التراب تلغي العالم من حولها، ومع ذلك فالعالم قائم دائماً et pourtant il existe إن اعترفت به أو لم تعترف. أنا مرتاحة وهي مأزومة وهذا ما يزيد عطفي عليها ومتابعة صداقتي لها حتى ولو كان سلوكها معي مؤذياً أحياناً. لقد أدخلتني في الكثير من أسرارها كما أدخلتها في الكثير من أسراري، وهذا وحده كفيل بأن تستمر الصداقة على الرغم من بعض السلبيات النابعة من

الأنانية التي لا يخلو منها أي واحد منا.

ـ لكنك أكثر من أنانية، أنت نرجسية إلى درجة عالية فكيف تتقبلين خدش نرجسيتك هذه. سألت هدى.

ـ أنا لا أشعر بخدشٍ لنرجسيتي التي هي عالية كما تقولين، وما تسمينه طواعية لرغبةٍ أمينة ليست سوى ممارستي لنرجسيتي بالفعل. أشعر أنني أعطي لمن هو بحاجة للأخذ وهو شعور يعزز النرجسية ولا يضعفها.

ـ دعونا من أمينة وعقدها، أين سنكمل السهرة؟ سأل عيسى.

ـ أنا أعود إلى زوجي وابنتي، أما أنتما فأكملاها معاً.

ـ هل توافق السيدة النرجسية؟ سأل عيسى وهو ينظر إلي.

ـ وهل تملك القدرة على رفض دعوة أهم رجل في هذه المدينة؟ أتى جوابي مرفقاً بابتسامة معبرة دفعت هدى إلى الإدلاء بتعليق سريع قبل أن تتركنا.

رحلت هدى، وضع عيسى ذراعه على كتفي وسرنا نحو حانة في شارع الحمرا. تسامرنا والكؤوس بين أيدينا حتى ساعة متقدمة من الليل قبل أن نفترق ويعود كل منا إلى بيته.

67

توطدت العلاقة بين حنا وليال، وقامت مراسلات بينهما كنت أطلع على البعض منها، كانت تدل على صداقة ودودة بينهما تصل إلى حد الحب في نظري، وقد عزز ظني أن ليال أصبحت تزور حنا في دمشق ويأتي هو لزيارتها في لبنان. لم أكن ضد هذه العلاقة وليال لم تفصح عنها بكل وضوح وتركتها في إطار العلاقة الفكرية الثقافية حتى ولو أن سلوكها كان يقول العكس.

عادت مرة من الشام لتقول لي إنها زارت حنا وقد قدمها إلى وزيرة الثقافة بعد أن كان قد أوصل إليها روايتي ليال.

ـ كانت زيارة لطيفة وقد شكرتني الوزيرة على تقديمي كتبي لها، قالت لي ليال، وقد وعدتني بقراءتهما بكل سرور.

بعد فترة من الزمن زارت إحدى صديقات سهام لبنان وأقامت

عندنا في البيت. وفي أحد الأيام أبدت رغبة في زيارة سورية وتدمر تحديداً. لم يخطر ببالي سوى ليال لهذه المهمة، وحين التقيت بها طلبت منها أن ترتب الرحلة. رحبت بالفكرة واتصلت بحنا الذي رحب بدوره بنا وقد قال لليال: «كرمال عين تكرم مرج عيون».

وصلنا إلى دمشق واستقبلنا حنا واستضافنا في أحد الفنادق تلك الليلة ودعانا إلى العشاء وبذل جهده كي تكون إقامتنا مريحة. في اليوم التالي دعانا لزيارته في مكتبه في وزارة الثقافة حيث استقبلنا على أحسن وجه وقدم لنا الشاي و... بعد قليل طلب من ليال أن تكلمه على انفراد ثم غاب لبضع دقائق وعاد ليقول لنا: «لقد طلبتُ من الوزيرة أن تستقبلكم في مكتبها». فرحتُ بالفكرة ودخلنا جميعاً مكتب الوزيرة التي تركت مكانها وراء مكتبها وجلست معنا. كان استقبالها لنا جيداً وقد تحدثنا بأمور عديدة قبل أن نستودعها بناءً على إشارة من حنا. عدنا إلى مكتبه وأتى تعليق سهام كالتالي: «كان استقبالها لنا جيداً جداً». وأجبتها، كي أحط على عين ليال: «لا تنسي أن بينكم ناقدة مهمة ومعروفة». لم تعلق ليال على جوابي هذا وانتقلنا إلى التحضير لرحلة تدمر التي اهتم بها حنا نفسه، إذ أتى بسيارتين استقل واحدة منهما وديع وليال وحنا وركبت أنا وسهام وصديقتها الفرنسية السيارة الثانية. قاد السيارة الأولى ابن حنا بينما قاد الثانية سائق أتى به حنا لست أدري من أين.

كانت طريق تدمر طويلة وصلنا بعدها إلى الفندق متعبين وقد كان حنا قد حجز غرفاً عديدة؛ واحدة لليال وثانية لي ولوديع وثالثة له ورابعة لسهام وصديقتها وأخيراً خامسة للسائق. استغربت هذا الكرم وعبرت عنه أمام ليال، لكن تعبيري هذا أتى على شكل سؤال: «ألا تعتقدين أن كل هذا الاستقبال هو على حساب وزارة الثقافة؟».

ضحكت ليال وقالت: «من نكون كي تهتم بنا وزارة الثقافة؟ هذا كله من كرم حنا الذي حين يكون مسروراً لا يعود يحسب أي حساب». حاولت ألا أفهم ماذا تقصد وسألتها: «ألهذه الدرجة هو مسرور بنا؟».

ضحكت مجدداً وقالت: «اسأليه».

طبعاً لم أسأله لأنني أعرف جوابه هو الذي وصله عن لساني كل ما قلت عنه حين كتب عن رواية ليال الأولى. حتماً هو يقوم بكل ذلك كرمى لعيونها، لكن لا بأس في غض النظر والإفادة، لقد بيضتُ وجه سهام أمام صديقتها الفرنسية حتى ولو كان ذلك على حساب غيري. والمهم أنها هي لا تدري على حساب من، فلتظن أنني أنا ووديع من نقوم بكل ذلك. لكن كيف لي أن أدعها تفكر هكذا وحنا هو الذي كان يدعونا إلى الغداء والعشاء في كل يوم مع إصراره أحياناً على إفهامنا أن ليال تمون على كل شيء وباستطاعتها أن تدعو ضيعة بكاملها.

مكثنا ليومين في تدمر حيث زرنا القلعة والمتحف وكل المواقع الأثرية على الرغم من شدة الحر الذي يسود في نهارات تلك المنطقة. وفي ليل اليوم الثالث أصيبت صديقة سهام بوعكة صحية، ربما بسبب إسرافها في الأكل مما ليست معتادة عليه. وعكتها تلك عجلت في عودتنا إلى الشام ومنها إلى بيروت. رجعنا وحدنا وبقيت ليال في الشام لبضعة أيام.

في طريق العودة إلى بيروت كان تعليق لسهام لم يعجبني كثيراً، إذ قالت: «الفضل يعود لليال بهذه الرحلة الجميلة وعلينا تشكرها». لم أجبها لكنها تابعت: «حتى استقبال الوزيرة لنا كان بسبب ليال».

استفزني كلامها وأجبتها: «من أين لك أن تعلمي؟ من أخبرك ذلك؟».

ـ لأن حنا قال للوزيرة إن ليال تود زيارتها مع بعض الأصدقاء، وقد رحبت بها وبمن يرافقها.

ـ هل ليال أخبرتك بذلك؟

ـ لا، بل سمعته من حنا وهو يحدث ليال.

ـ لكن الوزيرة رحبت بي وأظهرت أنها تعرفني من خلال كتاباتي. أجبتها مستنكرة قولها.

ـ لكن تعليقها لحنا كان على ليال وليس عليك إذ قالت له: «هل يعقل أن هذه «الكتكوتة» تكتب مثل هذه الكتابة؟».

ـ ومن أين علمت بكل ذلك؟

ـ من ليال. أجابتني.

ـ مغرورة ليال. أتى تعليقي المقتضب.

ـ لكنها لا تكذب. قالت سهام بشكل قاطع.

استأت من سهام جداً، فأسكتها مبدية عدم رغبتي بسماع مثل هذه التفاهات التي لا تقدم ولا تؤخر في حقيقة الأمور وقلت لها: «إن استقبلتني الوزيرة أو لم تستقبلني فأنا ناقدة مهمة ومعروفة في العالم العربي وليال ليست سوى كاتبة مغمورة لا أحد يعرفها حتى الآن».

ـ لكنها في بداية الطريق وستصبح معروفة في ما بعد.

«لن أدعها تصل». قلت لذاتي وتابعت بصوت مرتفع: «اهتمي أنت بأمورك وبأصدقائك الذين هم في مثل سنك واتركي الكبار يدبرون أمورهم».

صمتت وتركتني أستعيد كل ما سمعته منها، استعادة أيقظت في داخلي كل الحقد الذي أحاول إخفاءه وأحياناً إلغاءه، لكن دائماً يحدث ما يوقظه من جديد.

68

عدت من دمشق بعد أن أمضيت في ربوعها يومين مع حنا، عدت لأستأنف حياتي العادية بين الجامعة والأصحاب والكتابة، وأول عمل قمت به هو زيارة أمينة لتقييم الرحلة التي قمنا بها معاً. وصلت إلى بيتها واستقبلتني سهام بالترحاب وبالشكر، إذ إن الرحلة إلى تدمر فاقت توقعاتها. أما أمينة فكانت صامتة وشاردة كأنها ليست معنا. بعد قليل توجهت إلي بالكلام وسألتني:

ـ هل أرسلت رواياتك لبعض من يهتم بالموضوع في العالم العربي كما يفعل كل الكتاب؟

ـ لا أعرف أحداً منهم، وحتى لو عرفتهم لن ألجأ إلى هذا الأسلوب الرخيص لتسويق نفسي. أجبتها.

ـ ليس من باب التسويق، بل من باب التواصل وتعريف الآخرين بك.

ـ ربما كنت مهملة في هذا المجال لاعتقادي أن العمل حين يخرج من يد الكاتب يصبح ملك القارئ.

ـ ولهذا السبب يجب إيصاله إلى القارئ وإلى قارئ محدّد.

ـ ماذا تقترحين؟ سألتها.

ـ أنا مدعوة للمشاركة في ندوة عن الرواية في القاهرة وما أريده منك هو أن تعطيني نسخاً عن روايتيك كي أوصلها إلى جابر عصفور القيّم على تنظيم وإدارة مثل هذه الندوات، يجب أن يتعرف إلى كتاباتك كي يبادر إلى دعوتك لهذه المنتديات. كل الكتاب يفعلون ذلك ويستميتون في سبيل حصولهم على دعوة من هذا النوع.

لم أجبها، لكن سهام تدخلت وقالت: «ليال اسمعي نصيحة والدتي، فالتسويق ليس عيباً، وأجد أن كتاباتك يجب أن تحظى بالاهتمام لأنها جديدة كلياً على الساحة العربية».

ـ إن كان هذا رأيكما فسأفعل، متى تذهبين إلى القاهرة؟ قلت وفي داخلي بعض الندم على سوء نيتي حول ما قامت به أمينة حتى الآن بالنسبة لرواياتي.

ـ في بداية الأسبوع القادم وأعود في آخره. أجابتني.

جهزت نسختين من رواياتي وسلمتهما إلى أمينة وأنا أتساءل عن سبب اهتمامها المفاجئ بكتاباتي هي التي لم تعبر عن رأيها فيها ولم

تسمعني ولو كلمة واحدة عنها. هل تريد التعويض عن سكوتها بأن تقدمني إلى منبر مهم كالمنبر الذي يديره جابر عصفور؟ لم أسألها مباشرة عن سبب اهتمامها هذا، لكنني ناقشت الأمر مع سهام التي كان رأيها ألا أسأل، بل أن أقوم بما طلبته أمها وقالت: «ربما كانت هذه طريقتها في التعبير عن إعجابها بما تكتبين».

سافرت أمينة إلى القاهرة وهي توصيني بالاهتمام بسهام في فترة غيابها، وهذا ما قمت به على أحسن وجه لأنني ما كنت بحاجة إلى توصية، فسهام قريبة جداً مني وألتقي معها في مسائل عديدة على الرغم من فارق السن بيننا.

في آخر الأسبوع، وقبل عودة أمينة، اتفقت مع سهام على تهيئة عشاء على شرف أمها وقمنا بكل التحضيرات وجلسنا ننتظر وديع الذي بادر إلى الذهاب إلى المطار لاصطحاب زوجته. وصلتْ أمينة واستقبلناها بالقبلات الحارة وبالكلمات التي تعبر عن افتقادنا لها. فسرت بهذا الاستقبال وراحت تخبرنا عن الندوة وعن الصدى الطيب لمداخلتها التي نالت استحسان الجميع. كنت أنتظر منها أن تذكر ما فعلته بكتبي لكنها أسهبت في الكلام عن ذاتها، وفي النهاية قاربت الموضوع وقالت:

ـ خلال الندوة، وفي جلسة منفردة مع جابر عصفور سلمته رواياتك وقلت له إنك كاتبة جديدة يجب أن يتعرف إلى إنتاجها.

شكرتها، طبعاً، لكن ما لبثت أن ابتسمت وقالت:

ـ لكن نبهته إلى أن كتاباتك متحررة جداً إذ قلت له: ليال إنسى متحررة جداً وينعكس ذلك في كتاباتها وأنا لست مسؤولة عنها ولا موافقة عليها.

ـ لماذا قلت ذلك؟ سألت سهام، اتركيه يكتشف الأمر وحده.

ـ يجب أن يعرف رأيي وأنا لا أساوم على قناعاتي. أجابت ابنتها بكل جدية.

ـ هذا يعني أنك وجهت قراءته قبل أن يبدأ بها. تابعت سهام.

ـ وما المانع؟ قالت أمينة من دون أن تنظر إلي.

كنت صامتة أستمع إليهما واشمأززت من تصرف أمينة، لكني آثرت عدم التدخل كي لا أظهر أنني مكترثة للأمر. لعلّي لم أعد أتحمل كلام أمينة الذي أتى كوخز الإبر ولاحظت أنها مربكة لا تدري كيف تدافع عن موقفها، فتركتهما وانصرفت.

بعد أيام التقيت بسهام التي حاولت أن تخفف من وقع كلام أمها ومن نتائجه السلبية فأجبتها بكل وضوح:

ـ أمينة لا تحب كتابتي وهذا واضح، لكني أستغرب أن تنقل رأيها السلبي سلفاً إلى جابر عصفور، فهي بذلك كأنها تقول له، وهي تعرف موقعها كناقدة، ألا يعير اهتمامه للكتابين. لكني لا أفهم سلوكها هذا، لم أطلب منها شيئاً، هي التي اقترحت أن تقدم كتبي إلى منبر معروف. حين فعلتْ لمت نفسي على حكمي السلبي على مواقفها، لكن ما قامت به من جديد طرح عندي تساؤلات كثيرة؛ هل قدمتْ كتبي لهذا المرجع كي تعرفه إليها أم قدمتها كي تشوه صورتي؟ فيا ليتني لم أسمع منها ولم ألبِّ طلبها، على الأقل لكانت صورتها عندي بقيت أنصع مما هي عليه الآن.

ـ ليال انسي الموضوع، أجابتني سهام التي كانت موافقة تماماً على

ما قلت، انسي الموضوع، فأمينة، وعلى الرغم من مواقفها هذه، تحبك وأنا أعلم ذلك جيداً.

ـ أعرف ذلك وأدرك أسبابها في النيل مني، لكن كل ما تقوم به لن يغير شيئاً في حقيقة الأمور ولن يثنيني عن متابعة عملي كما أرغب وأعدك بأنه لن يغير من محبتي لها لأنني أعرف جيداً أن ما تقوم به له أسبابه التي لن تفصح عنها والتي أعرفها جيداً، ولهذا السبب أحاول دائماً استيعابها والمحافظة على صداقتها على الرغم من كل ما أسمعه من نقد لهذه الصداقة التي لا يفهمها الكثيرون.

شكرتني سهام على موقفي هذا ورافقتها إلى بيتها. أمينة ووديع كانا أمام التلفاز يستمعان إلى الأخبار. رحبا بي واستبقياني على العشاء الذي تبرع وديع بتحضيره كما في كل مرة أتناول الطعام معهم. كانت أمينة محبة أكثر من العادة وألحت علي بأن أمضي السهرة معهم وأن أبيت عندهم، وهذا ما قمت به لأظهر لها أنني لا أبالي بسلبياتها وبأن الصداقة الحقة تتعالى على الصغائر التي ينزلق إليها أحد الصديقين بسبب بعض العوامل التي تتخبط في لاوعيه والتي يعجز عن قمعها حتى ولو أراد ذلك.

69

تعالت ليال عن معاتبتي على ما قمت به في القاهرة واستمرت علاقتها بي كالسابق مما دفعني إلى نوع من الندم عبرت عنه، بطريقة غير مباشرة، باحتضاني لها أكثر وبإظهار اهتمامي بها وإشراكها في كل نشاطاتي الاجتماعية وتقصدت زيارتها وتناول الغداء في بيتها على الرغم من بعد المسافة بين مسكنينا وما أعانيه من بعض الاضطراب خلال قيادة السيارة على طريق الأوتوستراد الذي يرعبني وقد كانت سهام عنصراً فاعلاً في ذلك لأن ليال تكن لها محبة خاصة.

عادت المياه إلى مجاريها السابقة بيننا، لكن سرعان ما استفزتني من جديد، إذ أتتني يوماً وبيدها روايتها الجديدة. قدمت لي الرواية فشعرت بامتعاض كبير وأتى تعليقي: «ما هذه السرعة في الكتابة!».

ـ حين يكون الموضوع جاهزاً في ذهني، لا أحتاج إلى وقت طويل لإنجازه. أجابتني.

ـ وهل هو مختلف عن الروايتين السابقتين كما وعدتني؟

ـ الموضوع مختلف لكن الكاتب واحد.

ـ هو في السياسة كما أعتقد. سألتها.

ـ إنه محاولة لكتابة سيرة هذا الوطن منذ استقلاله حتى الآن. أجابتني ليال.

ـ هو كتاب تاريخي إذاً. قلت مستفسرة.

ـ لا أحب الروايات التاريخية التي يكتبها البعض إما بناءً على طلب مسبق وتلبية لسياسات معينة وإما للوصول إلى أهداف محددة. أنا أحاول كتابة رؤيتي للأمور بغض النظر عن النتائج وسترين أنها رؤية خاصة لا علاقة لها بكل ما يحكى في وعن السياسة المتداولة بين أطراف النزاع في لبنان.

ـ لن أعلق إلا بعد القراءة. قلت لها وأنا آخذ الكتاب من يدها.

ـ آمل أن تفعلي هذه المرة، قالت كأنها تنتقم من سكوتي عن رواياتها السابقة.

لم أجبها وانتقلنا إلى مواضيع أخرى، قبل أن تغادر وتتركني وحدي مع مولودها الجديد الذي كنت مشدودة إلى قراءته، علّني، هذه المرة أستطيع أن أكتب عنه وأبيِّض وجهي مع ليال التي ما زالت هي هي على الرغم من كل سلبياتي تجاهها.

بدأت القراءة وسرعان ما استوقفتني الإباحية التي تقارب بها ليال الموضوع. لكن، وعلى الرغم من ذلك، مطلع الرواية أتى مبهراً ويضاهي الروايات العالمية، كما عبر عن ذلك، لاحقاً، أحد الكتاب الأصدقاء. تابعت القراءة وإذ بالمشاهد الجنسية الوقحة تتتالى وكأن الكاتبة تريد القول إن تاريخ هذا الوطن هو تاريخ عاهر وفاسد وإن الشعب الذي تمثله البطلة كان دائماً عرضة للتنكيل والنهب من قبل من هم الأسياد بفضل مالهم أو وصوليتهم أو بيعهم لكل القيم في سبيل الحصول على الموقع. عالجت ليال كل ذلك من خلال لعبة رمزية ذكية بحيث إن القارئ غير المسيّس لا يدرك أنها تكتب في السياسة وينجرف وراء أحداث الرواية التي أتت في سياق مشوق ومتقن.

خرجت من القراءة بآراء ملتبسة؛ هل أعجبتني أم لم تعجبني؟ احترت في أمري وقرّرت ألا أبدي رأياً فيها قبل أن أطلب من سهام قراءتها، وأتى انطباع سهام قريباً من انطباعي مما عزز الالتباس عندي وصعّد من حيرتي في مواجهة ليال التي كانت تنتظر رد فعلي وسماع رأيي. لكنني كنت متأكدة من أمر واحد وهو أنني لا أوافق ليال على وجهة نظرها في السياسة التي أتت، في الرواية، مناقضة لرؤيتي حول بعض الأشخاص الذين، وإن لم تسمهم، يستطيع القارئ المتنور أن يتعرف إليهم. لقد حاولت تحطيم الهالة التي تحيط بأحد قادة البلد ورسم صورة له تفضح كل ما يختبئ وراء إنجازاته التي ساهمت في مساعدة العديد من أبناء البلد. لم يعجبني موقفها هذا وقررت أن أكون صريحة معها. هذه المرة لدي ما أقوله لها وأنا من سيبادر إلى الكلام لأنها، وبسبب عنفوانها، لن تطرح علي السؤال.

ـ قرأت روايتك، قلت لها حين زارتني.

لم تجبني كأنها لم تسمع ما قلت، لكنني تابعت:

ـ قرأتها بتأنٍّ ووجدت فيها الكثير من المغالطات حول الفهم السياسي لما حصل في البلد.

ـ إنها وجهة نظر. لكن ما رأيك فيها كرواية؟ سألتني.

كرواية هي جيدة، لكني تجاهلت سؤالها وركزت على الشق الذي أريد وأبديت رأيي الذي يفهم منه أن موقف ليال في السياسة قد ساهم كثيراً في إضعاف الرواية وتابعت:

ـ أنا لا أريد الإساءة إليك، ولهذا السبب اعذريني لن أستطيع الكتابة عنها كي لا أتسبب في إيذائك لأنني إن كتبت فسأكتب رأيي بكل صراحة، وأنا متمسكة بصداقتي لك ولا أريد خسارتها بسبب مواضيع غير جوهرية.

لم تعلق ليال على ما قلته لها واكتفت بأن قالت لي: «هذه الرواية هي أفضل ما كتبته حتى الآن وقناعاتي لن تتغير، أوافق عليها قارئ مثلك أو لم يوافق، مع العلم أنها نالت استحسان الكثيرين. وسأتابع مسيرتي كما أريد والزمن هو وحده الغربال الحقيقي لكل ما يُكتب ويُنشر ولن أتوقف عند شهرة سريعة تُروّج لها بعض الشروط التي لا علاقة لها بفعل الكتابة ولا بحقيقتها».

المهم من كل ذلك أنني تهربت من الكتابة عن رواية ليال من دون أن أشعر بالذنب كما مع الروايتين السابقتين.

70

لم تنل روايتي الرواج الذي كنت أتوقعه لها، لقد عُتم عليها، ومع ذلك سمعت الكثير من الآراء الإيجابية فيها. لكن ذلك لم يحبطني وباشرت بعمل جديد حول موضوع لم يتطرق إليه أحد قبلي في الرواية العربية وقد فُرض علي من خلال ملاحظاتي للواقع الذي نعيش، وبخاصة الواقع الذي تعيشه بعض النساء السحاقيات في لبنان. جمعت كل المعطيات وبدأت العمل من دون أن أخبر أمينة بما أقوم به مع استمراري بزيارتها كالعادة. لكني لاحظت تغيراً في سلوكها معي، إذ إنها كانت تتعمد، في لقاءاتنا أن تحدثني دائماً عن قراءاتها لروايات جديدة مبدية إعجابها بها وكأنها تتقصد إفهامي بأن ما أكتبه ليس جيداً، وأنه علي أن أتعلم الكتابة ممن هي معجبة بهم. كنت أحياناً أقرأ ما تنصحني به وأناقشها فيه. لكن نقاشاتنا كانت دائماً حول محورين؛ أمينة تحاول الاستخفاف بكل ما كتبته مع تمجيد بالإصدارات الجديدة ومحاولتي تبيان ما يميز كتاباتي عن

كل ما هي مهتمة به وينتهي النقاش بثبات كل منا على موقفه.

لكن كل ذلك لم يغير من طبيعة علاقتنا التي استمرت كما كانت، على الأقل من ناحيتي، إذ كنت أفصل بين الآراء حول الكتابة والصداقة على الرغم من كل ما كنت أسمعه من الأصدقاء عن أمينة وآرائها حولي، وبخاصة أن الذين كانوا ينقلون أقوالها عني وعن كتابتي، كانوا يعذرونها ويردون ما تقوم به إلى عامل الغيرة. كنت أدافع عنها وأبرر دفاعي بأننا لا نعمل في مجال واحد كي تقوم بيننا الغيرة.

ـ هي ناقدة وأنا كاتبة، قلت مرة لعيسى، وبالتالي لا مجال للغيرة بيننا.

ـ وهل ما زلت تؤمنين بالنقد الأدبي؟ أجابني.

ـ حتى ولو لم أؤمن به فما زال قائماً وفعالاً.

ـ ولماذا لم تكتب عن رواياتك حتى الآن؟ سألني وتابع: إن كانت ناقدة أدبية حقيقية فعليها أن تتطرق لكل جديد حتى ولو أتى مناقضاً لقناعاتها العلمية بين مزدوجين.

ـ لم تجد ما يعجبها في كتاباتي، وهي تتمنع عن الكتابة حتى تحافظ على الصداقة.

ـ وهل تصدقين قولها؟ سألني.

ـ أصدقه، أيضاً حفاظاً مني على الصداقة بيننا.

ـ وما هذه الصداقة القائمة على الكذب من الجهتين؟ إنها عداقة

كما وصفت مرة علاقتي بهادي وليست صداقة. وهنا يحضرني استياء هادي، رحمه الله، من النقاد، إذ كان دائماً يقول حين ينشر كتاباً: «أين النقد ولماذا لا يكتب أحد عني، فليشتموني إن أرادوا، لكن فليكتبوا».

ـ أنا لا أكذب في علاقتي مع أمينة وأكنّ لها كل المودة، وبخاصة أحب سهام جداً. أجبته من دون أن أعلق على ما قاله عن هادي لأنني كنت سمعته من صاحبه، لمرات عديدة، قبل استشهاده.

ـ سهام غير أمينة فهي شابة صريحة وحرة وغير معقدة وأوافقك الرأي فيها، أما أمها فلا أفهم تمسكك بها. صمت قليلاً ثم سألني بشكل مفاجئ: لماذا لا تنشرين رواياتك حيث تنشر أمينة كتبها؟ وأنت تعلمين ما هو تأثير دار النشر في التوزيع وانتشار الكتاب.

ـ لقد حاولت مرة ورفضت الدار الرواية بحجة أنها تتناول الجنس.

ضحك عيسى وقال: «أحياناً تكونين شديدة الذكاء وأحياناً أجدك غبية».

ـ لماذا تقول ذلك؟ سارعت إلى السؤال.

ـ ألا تعلمين أن هذه الدار تسلم الروايات لأمينة كي تبدي رأيها فيها قبل النشر؟

ـ لا، لا أعلم ذلك، وأمينة هي التي سلمت روايتي للدار.

ـ «خليك على عماك»، أنا لم أجد أطيب من قلبك.

ـ على كل حال أمينة منسجمة مع نفسها، فإن نصحت الدار بعدم

نشرها فهي صادقة لأن الرواية لم تنل إعجابها، ولكي لا تسيء إلي لم تتكلم عنها إطلاقاً، لا سلباً ولا إيجاباً.

ـ وسهام ما كان رأيها؟ سألني.

ـ أعجبتها الرواية جداً.

ـ وهذا هو رأي أمها ولهذا السبب لم تفصح عنه. أجابني وهو يهز برأسه.

ـ إنكَ سيئ النية.

ـ وأنت غبية. سارع إلى الإجابة.

هل أنا غبية كما يصفني عيسى؟ جلست وحدي أستعيد كل تاريخ علاقتي بأمينة وأول صورة ظهرت في مخيلتي هي تلك التي أعادتني إلى رؤية أوراق مقالتي الأولى مبعثرة تحت المطر في موقف البناية التي كنت أسكن إحدى شققها. استعدت الغضب الذي اجتاحني في تلك اللحظات، لكني لم أتوقف عندها، إذ سرعان ما مر أمامي كل شريط علاقتنا الطيبة وجلساتنا الحميمة حيث أفضى كل منا بمكنونات صدره بصراحة وصدق وانتهيت بإقناع نفسي بأن كل صداقة يشوبها بعض السقطات التي يجب أن لا تؤثر على المسار العام. لكن لماذا يرى الآخرون عكس ما أرى؟ هل صحيح أن أمينة لا تحبني كما قال لي أكثر من صديق؟ حتى هدى عبرت أمامي، مرات عديدة، أنها لا تفهم سر علاقتنا أو بالأحرى لا تفهم سر تمسكي بأمينة. لكن ما لي وللآخرين، هل أنا مقتنعة، فعلاً، بصدق أمينة معي كما أنا صادقة معها؟ سؤال محير، إذ إنني، للإجابة عليه، أشعر بالارتباك؛ فأمينة تكون، أحياناً، طيبة جداً وتظهر اهتماماً

صادقاً بكل ما يتعلق بي، وأحيانا أجدها عدوانية وتريد تهشيمي، فأيهما هي بالفعل؟ وازنت بين الوجهين ووجدت أن الوجه الإيجابي هو الطاغي، فأقفلت الموضوع وقرّرت متابعة علاقتي مع أمينة كما هي وبكل التباساتها. وهذا القرار لم يكن غريباً علي لأنني أعرف نفسي جيداً؛ فأنا من النوع الذي يتحمل الكثير إلى أن ينفجر، حين يطفح الكيل، ويبدو أنني ما زلت قادرة على التحمل؛ كل ما فعلته أمينة وكل ما أسمعه عنها من الآخرين لم يوصلني بعد إلى اتخاذ القرار الحاسم حتى ولو استغرب الأصحاب والمعارف قدرتي على التحمل، فهم لا يفهمون أن الصداقة قد تشوبها بعض الهنات التي لا تؤثر على المسار العام. أمينة صديقتي وستظل صديقتي سواء استغرب الآخرون ذلك أو لم يستغربوا.

71

اتصل بي السيد حبيب وهو رئيس أحد المراكز الثقافية في بيروت وهو صديق لي وللحزب، اتصل بي ليطلب مني أن أزوره في المركز لأمر مهم. زرته في الموعد المحدد، وبعد أن رحب بي بألفاظه اللطيفة، طلب الشاي وأخذ يحدثني بأمور عادية في انتظار أن يأتي الآخرون. حين اكتمل النصاب باشر السيد حبيب بطرح الموضوع الذي اجتمعنا من أجله:

ـ تعلمون أن أحد مشايخ دولة عربية قد حدد جائزة سنوية لكل ميدان من ميادين الأدب والعلوم الإنسانية. وبما أن حظ لبنان، هذه السنة، كبير في نيل الجائزة، فقد قررنا، نحن الرفاق أن نرشح أعمال هادي لهذه الجائزة، وبخاصة أن اللجنة المقررة تحوي بين أعضائها (فلان وفلان) من أصدقائنا وقد وعدانا بأن نحصل على الجائزة.

ـ فكرة ممتازة، قلت، هكذا يكون هادي قد كوفئ على أعماله ولو

بعد موته هو الذي لم يكتب عنه أحد في حياته.

ـ وبما أنك، يا دكتورة أمينة مهتمة بكتابات هادي، نطلب منك أن تجهزي الملف كي نرسله إلى هذه الدولة العربية، أجابني حبيب ووافق الجميع على اقتراحه.

جمعت النسخ المطلوبة وأتيت بها إلى المركز الثقافي الذي تولى أمر ترشيح هادي لنيل إحدى الجوائز. لكن، بعد فترة من الزمن عاد صديقنا الذي هو عضو في اللجنة المانحة ليقول لنا إن الجائزة لا تمنح لمتوفّى. أسقط في يدنا وأقفلنا الموضوع. لكن الأستاذ حبيب اقترح أن نقدم أعمال شخص آخر لهذه الجائزة كي لا نفوت إمكان الحصول عليها هذه السنة. وبعد التداول تم الاتفاق على ترشيح كتبي لهذه الجائزة، وقد عبر الأستاذ حبيب عن رأيه إذ قال: «كتابة أمينة لا تختلف كثيراً عن كتابة هادي، فهما من توجه واحد حتى ولو اختلفت الميادين، وأنا أزكي هذا الاختيار».

ـ وأنا سأتعب جهدي مع اللجنة كي نحصل على إحدى الجوائز، قال الرفيق الذي هو من أعضاء اللجنة.

جمعت كتبي بصمت، بسرية تامة وأرسلتها إلى اللجنة. لم أخبر أحداً سوى سهام، بما قمت به وطلبت منها أن تبقي الأمر طي الكتمان كي لا يُهزأ مني إذا لم أحصل على الجائزة. كتمت الموضوع، وبخاصة على ليال التي كانت قد سمعت مني سابقاً رأيي في توزيع هذه الجوائز على المحسوبيات والمعارف من دون الأخذ بعين الاعتبار جدية العمل وأهميته. فإن حصلت على الجائزة فستعرف وستفاجأ، لكن الأمر يكون قد حسم وانتهى، وإن لم أحصل على الجائزة فكأن أمراً لم يكن ولا أحد يدري أنني تقدمت لهذه الجائزة.

استمرت ليال على ما هي عليه واستمرت علاقتي بها كما في السابق بسلبياتها المضمرة وإيجابياتها الظاهرة التي كانت تكتفي بها ليال دون أن تتوقف عند السلبيات التي طالما لفتت سهام نظري إليها وهي تقول:

ـ لو كنت مكان ليال لما تابعت علاقتي معك وأنت تحاولين، بشتى الطرق، النيل من كل ما تقوم به وبخاصة في مجال الإبداع والكتابة.

كنت أدرك أن ما أقوم به هو لإحباط ليال ودفعها إلى التخلي عما تقوم به، لكنني كنت أدافع عن نفسي أمام سهام، هذه العين النافذة، وأدعي أنني قاسية أحياناً مع ليال لأحثها على تحسين وضعها، وفي كل مرة كانت سهام ترد على قولي هذا بضحكة مفتعلة واضحة المعاني. لكن المهم هو أن ليال لم تعلم بترشحي لنيل تلك الجائزة التي إن فزت بها سيتحسن وضعي المادي والمعنوي معاً لأن كتبي، وهي كلها في النقد، لم يتطرق لها أحد ولم تلقَ الانتشار المطلوب إلا بين بعض طلاب الأدب العربي في الجامعات. أعول كثيراً على هذه الجائزة لأنها ستكون بمثابة تتويج لكل التعب الذي عانيته خلال حياتي كي أصل إلى مكانة ما. هل سيستطيع رفيقنا محمد وصديقنا صفوان إقناع باقي أعضاء اللجنة باختيار أعمالي للجائزة؟ لقد وعدا وأنا سأنتظر، ليس لدي خيار آخر، سأنتظر وأنا محافظة على السرية. لكني ازددت أملاً حين اتصل بي محمد ليقول: «اطمئني، ليس هناك من نقاد مرشحين للجائزة سوى القليل جداً مما يعزز إمكانية فوزك بها».

لم أطمئن تماماً لكلامه ولم أخبر، حتى سهام به. فإن كان عدد النقاد قليلاً فهذا سيخفف المنافسة وبالتالي القيمة؛ فإن فزت على

اثنين أو ثلاثة ليس كفوزي على عشرة أو عشرين. لكن الفوز يبقى فوزاً حتى وإن أتى بشروط ضعيفة.

حافظت على تماسكي وصمتي وتابعت أموري بكل تفاصيلها، والمهم أن ليال لم تعلم شيئاً على الإطلاق وأنا متأكدة من ذلك لأنها لو علمت لصارحتني بالموضوع. لكن حتى لو علمت وصارحتني سأنكر وأدعي أنني رُشّحت من دون علمي. لكن، ولحسن حظي لم يحدث ألا ما كنت أتوقعه.

72

في فترة من الفترات لاحظت أن أمينة كانت منهمكة بنشاطات، لم تخبرني عن طبيعتها؛ كانت تلتقي بأشخاص وتحضر اجتماعات وترسل أشياء بالبريد إلى الخارج و... حتى أنها أهملت عملها في الكتابة، هذا العمل الذي كانت تبدّيه على كل ما سواه. حين طرحت عليها السؤال أجابتني: «إننا ننشئ جمعية أصدقاء هادي وهدفها الأساسي هو ترجمة كتاباته إلى الفرنسية حتى تنشر في فرنسا، وتعلمين أن الأمر ليس سهلاً ويتطلب جهداً كبيراً، وإن لم أقم به أنا فسيتأخر كثيراً».

ـ وما هو دور زوجته، وهل هي موافقة على أن تقومي أنت بهذا العمل؟ سألتها.

ـ نتشارك معاً في العمل وقد تطوع عدد من الأصدقاء لمساعدتنا، ونحن الآن بصدد اختيار العمل الأول للترجمة. أجابت أمينة.

ـ وهل تظنين أن ترجمة أعمال هادي إلى الفرنسية ستضيف شيئاً إلى أهمية هادي؟ سألتها.

ـ طبعاً، يجب أن يتعرف القارئ الأجنبي إلى ما ينتجه الفكر العربي. أجابتني بكل اعتزاز.

ـ لكن كتابات هادي عرّفت القارئ العربي إلى ما ينتجه الفكر الغربي، وما ترجمة أعماله إلا رد الأمور إلى أصحابها. أتى تعليقي.

ـ لكنه طوّرها وجدّد فيها كي تأتي ملائمة للواقع العربي. أتى جوابها بلهجة متوترة.

لم أقتنع برأيها وقلت:

ـ أعتقد أن كل قيمة هادي هو أنه كتب بالعربية، ولهذا السبب أنا ضد ترجمته وبخاصة إلى الفرنسية.

ـ أنا لا أوافقك الرأي، ولأنني أعرف رأيك هذا لم نشركك في المشروع.

ـ على كل حال أتمنى لكم التوفيق. كان تعليقي الأخير.

لكنني علمت من سهام أن انهماك أمها، في تلك الفترة، لم يكن لاهتمامها بأمر هادي، بل بأمور أخرى خاصة بها. انشغل بالي وسألت سهام:

ـ هل تشكو أمينة من مرضٍ ما؟

ـ لا، إطلاقاً، أجابتني وهي تضحك، إنها مهتمة بنشر بعض كتبها

وبإنجاز ما بدأت به منذ فترة، وهي حين تكتب تكون متوترة وتطلب العزلة التامة، وإن لم تستقبلك كالسابق، فعليك تفهمها.

ـ أنا أحترم الكتابة وأتفهم أن يعزل الكاتب نفسه ولا ألومها إطلاقاً على التهرب من استقبالي كالعادة، لكن ألاحظ أن نشاطها هذا هو في غالبيته خارج البيت، فهل استأجرت مكتباً تعمل فيه كما كانت أمنيتها؟

ـ لست أدري، ولا أظن أنها فعلت. أجابتني سهام بكل براءة.

ـ أتمنى لها كل التوفيق، والمهم أن تكون مرتاحة لما تقوم به، لكن لماذا أخبرتني أنها تهتم بأمر كتب هادي؟

ـ هي قالت لك ذلك؟ قد تكون على حق وأنا لا أعلم بالأمر. قالت سهام مستغربة ما سمعت مني.

بعد تلك الفترة التي استغرقت أوقات أمينة كلياً عدنا إلى وتيرة لقاءاتنا السابقة وعادت أمينة كما كنت أعرفها من إظهار الود واستقبالي بالترحاب حتى ولو زرتها من دون موعد.

مضت الأيام وأمينة على حالها وعلاقتنا تتوثّق، وبت أزورها كل يوم تقريباً وحين أتغيب تتصل بي وتعاتبني، أصبحت شبه مقيمة عندهم، وقد ساهم ذلك في التقارب بيننا حتى شعرت أنَّ من الصعب جداً أن ننفصل مهما حدث. نسيت كل ما أسمعه من الأصدقاء حول عدم صدق أمينة معي، رميته وراء ظهري وعشت مفهوم الصداقة في كل أبعادها إلى درجة لم أعد أكثر من ملاقاة الأصدقاء الآخرين واختزلتهم كلهم بأمينة وسهام مكتفية بهما وبالمشاريع التي كنا نقوم بها معاً.

لم يمض وقت طويل على هذه الحالة، إذ حدث ما لم أكن أتوقعه إطلاقاً؛ كنت كالعادة عند أمينة، وكان الوقت قبل الظهر حين رنّ جرس الهاتف. ركضت أمينة ورفعت السماعة وسمعتها تقول:

ـ أهلاً محمد ما الجديد؟

ـ....

ـ شكراً، شكراً إنه خبر سارّ جداً ولا أدري كيف أعبّر لك عن امتناني.

أقفلتْ الخط وتوجهت مباشرة إلى سهام التي كانت بالقرب منها كأنها هي أيضاً تنتظر هذا الخبر المفرح. توجهت إلى سهام وغمرتها بين ذراعيها وهي تردد: «لقد نلت الجائزة، لقد نلت الجائزة».

لم أفهم شيئاً مما يدور حولي ومضى وقت غير قصير قبل أن تتوجه أمينة إلي لتزف لي خبر نيلها جائزة.... أول ردة فعل عندي كانت أن وقفت وضممتها بين ذراعي وأنا أقبلها وأقول لها مبروك وتابعت:

ـ لماذا لم تخبريني أنك كنت مرشحة لهذه الجائزة؟

ـ أنا نفسي ما كنت أعلم، ولهذا السبب هي مفاجأة.

ـ في مطلق الأحوال إنها مفاجأة سارة وعلينا الاحتفال بها. قلت.

ـ سأدعوكم أنت وسهام ووديع إلى الغداء، اختاروا المطعم الذي تريدون. قالت أمينة وهي شبه منتشية.

ـ أنا من سيدعوكم، أجبتها.

ـ لكن علي أن أتأكد من أمر ما قبل الاحتفال هذا.

قالت أمينة ذلك وتوجهت إلى الهاتف وطلبت خطاً دولياً وتكلمت مع أحدهم وسألته إن كانت الجائزة كاملة أم لا. وحين أعادت السماعة إلى مكانها قالت لسهام: «إنها نصف جائزة، لقد تقاسمتها مع أحد النقاد المصريين وهو ناقد تافه لا يستحق التكريم».

ـ وكم قيمة الجائزة؟ سألت.

ـ مئة ألف دولار.

ـ يعني أنك نلت خمسين.

ـ نعم، مع أنني كنت أتوقع الجائزة كاملة. قالت بحسرة.

ـ لكن لا بأس بها، قالت سهام وهذا لن يغير من فرحتنا بها.

ـ وأنا لن أغير رأيي في دعوتكم إلى الغداء، قلت. ثم توجهت إلى أمينة وسألتها: كنت تتوقعين الجائزة كاملة، وهذا يعني أنك كنت تعلمين أنك مرشحة لها.

بالفعل كنت أعلم، لكن من رشحني طلب مني السرية.

تناولنا الغداء وشربنا نخب أمينة التي رفعت رأسنا، لكنني لم أكن مرتاحة تماماً، إذ شعرت أن أمينة لا تمنحني ذات الثقة التي أكنها لها. وهذا طرح عندي تساؤلاً كبيراً حول معنى الصداقة وكيف تفهمها أمينة وعبرت عن رأيي هذا أمام سهام التي دافعت عن أمها

دفاعاً ضعيفاً لم يقنعني وازداد غضبي حين علمت أن سهام أيضاً كانت تعلم وأخفت الأمر عني. لم ألمهما بل لمت نفسي لأنني لا أخفي شيئاً عن أمينة ولا حتى أدق التفاصيل، فلماذا لا تعاملني بالمثل؟ وهل الصدق في الصداقة يكون من جانب واحد؟

بعد فترة أقام المركز الثقافي الذي رشح أمينة للجائزة، حفل تكريم لها، حضرته واستمعتُ إلى كل التفاصيل التي أدلى بها رئيس المركز حول حيثيات الترشيح وما سبقه من رفض لأعمال هادي و... لم تكن أمينة ممتنة من هذا الشرح، لكنني واسيتها إذ قلت لها: «ومن أحق منك في وراثة هادي؟».

لم يعجبها تعليقي الذي لم تجب عليه وافترقنا والأسئلة تضج في رأسي: هل أتابع السير في صداقة لا تقوم على الثقة المتبادلة؟ ولماذا أحافظ على العلاقة بمن لا يثق بي؟ وحين أخبرت هدى وعيسى عما حصل، ضحكا وقالا معاً: «خرجك، لأنك ساذجة وتديرك أمينة كما تريد، وأنت راضية. لن يمر وقت طويل قبل أن نراك وقد عدت إلى ما ترفضينه الآن، ستستمرين في صداقتك لها حتى ولو تجرّت لك الخازوق تلو الآخر».

بدأ التخلخل في العلاقة وبدأت آخذ حذري وأحاول إخفاء ما أقوم به عن أمينة، وهكذا فاجأتها بروايتي الجديدة التي لم تكن تتوقعها أبداً لأنني طمأنتها سابقاً إلى أنني متأخرة في الكتابة وأسرّني تعليقها الذي أتى ليعبر عن استيائها من سرعتي في الكتابة.

73

لم ألاحظ أن ليال قد فرحت بالجائزة التي حصلتُ عليها كما تدعي، وأنا أتفهم ذلك، إذ إن الغيرة لا بد منها في مثل هذه الأمور، لكن المهم هو أنني حصلت عليها ولو منقوصة، وهذا ما سيرفع من اسمي لدى المنابر الثقافية العربية. لقد تأصّل وجودي الفكري والأدبي على الرغم من كيد المغرضين، وهذه الجائزة قد توجت أتعابي في مجال الكتابة، وعلي المثابرة. لكن تباً لهذه الجامعة التي لا تحتفل بأحد أعضائها حين ينال جائزة ما، حتى إن بعض الزملاء لم يهنئني بها. وحين أبديت رأيي هذا أمام ليال أتى تعليقها مطابقاً لما كنت أفكر به وقد قالت عبارة واحدة: «إنها الغيرة».

ـ أتفهم غيرتهم هذه، أجبتها، لكن الجامعة عليها أن تفخر بي وتكرمني.

ـ مرحبا جامعة، ألا تلاحظين أنها تتدهور إن كان على مستوى

الأساتذة أو على مستوى الطلاب؟

ـ صحيح، الأساتذة الجيدون، أمثالنا، باتوا قلة في الجامعة.

ـ ستتركينها عما قريب وترتاحين من كل متاعبها ومباذلها. أجابتني.

ـ سأتحرر وأتفرغ للكتابة والتأليف. قلت وأنا أنفض يدي كأني أطهرهما من النجَس.

ـ وهو أفضل ما يمكن القيام به.

أنهت ليال زيارتها وغادرت، فاستلمت روايتها الجديدة لأتصفحها وأرى ما هو جديدها. وما إن قرأت القليل منها حتى فهمت أنها تدور حول موضوع السحاق. كيف تجرؤ ليال على طرح هذا الموضوع؟ ومن أين لها كل هذه المعلومات عنه؟ لكن ما استوقفني، لا بل أغاظني أنها سمّت إحدى السحاقيات سهام، وسمّت من تحاول سهام إغواءها، ليال. ألم يخطر ببالها أسماء غير هذه الأسماء؟ ومع أن الشخصية التي تحمل اسم سهام في الرواية هي بعيدة عن شخصية ابنتي، لم أتمكن من كتمان غضبي ومتابعة قراءة الرواية بعين الاشمئزاز والرفض.

كنت أتابع القراءة حين اتصلت بي. ظننت أنها ستسألني رأيي في الرواية، لكنها كانت في مكان آخر إذ قالت:

ـ إن وزارة الثقافة تريد تكريم بعض الكتاب هذه السنة وقد اتصل بي أحدهم وقال لي إنهم أدرجوا اسمي بين المكرمين، لكنه طلب مني أن أنصحه باسم كاتبة أخرى لأنهم يريدون أكثر من واحدة، فأعطيتهم اسمك ورقم هاتفك.

اغتظت من كلامها جداً ولم أخفِ شعوري ذاك فأجبتها:

ـ عليهم أن يعرفوني جيداً في وزارة الثقافة، وكان الأجدى بهم أن يتصلوا بي ويطلبوا مني اسماً آخر فلماذا اتصلوا بك أنت؟

ـ هذا ما حصل وإن كان لك من لوم فهو عليهم وليس علي أنا لأنني أنقل فقط ما جرى معي.

ـ وأنت على ماذا يكرمونك؟ سألتها بكل تحدٍّ.

ـ على كتاباتي، حسب ما علمت، وبالتأكيد ليس كرمى لعيوني. أجابتني بلهجة هادئة.

ـ على كل حال إن اتصلوا سأعرف بما أرد على هؤلاء الأغبياء. أجبتها قبل أن أقفل الخط.

أقفلت الخط متخذة قراري النهائي؛ لن أقبل هذا التكريم إن لم أكن وحدي المكرمة، لن أقبل أن أجلس عل منبر واحد مع ليال التي ليس لديها حتى الآن سوى روايات أربع، روايات تافهة ولا قيمة أدبية لها. وسأعبر عن رأيي فيها حين يتصلون بي.

لم يمضِ أكثر من ساعة على اتصال ليال حتى رن جرس الهاتف وأتاني صوت أحدهم يسأل:

ـ هل أستطيع التكلم مع الدكتورة أمينة، أنا من وزارة الثقافة.

ـ أنا أمينة، تفضل. قلت له وكلي استعداد لرفض ما سيطلبه مني.

ـ تقوم وزارة الثقافة بنشاط جديد هذه السنة وتريد تكريم بعض

الكتاب وقد أعطتنا الدكتورة ليال اسمك ولهذا السبب نتصل لنعرض عليك الموضوع.

ـ وهل كانت وزارة الثقافة بحاجة لمن يعطيها اسمي؟ ألا تعرفونني جيداً ولم يمر وقت طويل على نيلي جائزة... للنقد الأدبي؟ أجبته بنبرة استعلاء واضحة.

ـ نعتذر منك، دكتورة أمينة، لكن هذا ما حصل وأخذنا اسمك من الدكتورة ليال.

ـ على الوزارة أن تكرمني وحدي لأنني أنا الوحيدة التي نالت الجائزة.

ـ وهذا ما نفعله، إذ نكرمك هنا في لبنان، لكن هذا لا يمنع أن نكرم غيرك أيضاً ممن لهم إسهامات في مجال الفكر والأدب.

ترددتُ قليلاً، إذ مر في ذهني أن التكريم هو عمل إيجابي ولو أتى بهذا الشكل. ترددت ثم قلت له:

ـ اتركني أفكر في الموضوع، لن أجيبك الآن.

ـ كما تريدين سأتصل بك بعد يومين. قال ذلك وشكرني.

أتت سهام وأخبرتها بالموضوع ففرحت به وقالت: «وأخيراً بدأوا يعرفون قيمتك في هذا البلد».

ـ أن يعرفوا قيمتي فهو تحصيل حاصل، لكن أن تكون ليال هي التي اقترحت اسمي، فهذا ما لا أستطيع تحمله.

ـ ربما كنت على حق، لكن هذا دليل على صدق نوايا ليال.

ـ لا صدق نوايا ولا بلوط، كل ما تريده هو أن تكون في مستواي الأدبي ولهذا السبب اقترحت اسمي، لكي تقول إننا متساويتان. إن استمروا في تكريم ليال معي فسأرفض التكريم وليختاروا واحدة من مستوى ليال.

صمتت سهام ولم تعلق بأية كلمة، لكن صمتها كان معبراً، إذ إنني شعرت أنها غير موافقة على رأيي. فما كان مني إلا أن دفعت برواية ليال إليها وقلت: «هيا اقرئي الأدب الراقي».

تركتني ودخلت غرفتها، تركتني لارتباكي الذي لن أسمح له أن يستبد بي، حسمت أمري وقررت رفض التكريم وهذا ما بلغته للوزارة حين اتصلوا بي مجدداً.

74

اتصلوا بي مجدداً من وزارة الثقافة وطلبوا مني أن أختار شخصاً يقدمني خلال حفل التكريم، وأول من لاح ببالي كان صديقي عيسى صاحب الكلمة الحلوة. اتصلت به والتقينا في مقهى الكافيه دو باري في الحمرا. أخبرته بالأمر، بكل تفاصيله مع أمينة، فرحب باختياري له، لكنه علق على موقف أمينة قائلاً:

ـ أنا متأكد أنها سترفض ولن تشارك.

ـ وهل يعقل أن ترفض تكريماً لها من قبل وزارة الثقافة اللبنانية؟ سألته مندهشة.

ـ هي لا ترفض التكريم بحد ذاته، بل ترفض أن تكون على منصة واحدة معك.

ـ صحيح أنك خبيث وسيئ النية تجاه أمينة، مع أنها تظهر وداً

كبيراً لك واحتراماً أكبر لكل ما تكتب.

ـ أنا لست خبيثاً، بل أنت ساذجة. على كل حال أنا واثق أنها سترفض وسترين. قال واثقاً من نفسه.

مرت هدى أمام المقهى فناديناها ودعوناها لمجالستنا وحين علمت بالأمر أتى رأيها مطابقاً لرأي عيسى، وعلقت بالقول:

ـ ألم تفهمي حتى الآن أن أمينة لا تحبك كما تعتقدين وأنها تريد منك أن تكوني كما يقول المثل الفرنسي: sois belle et tais toi، كوني جميلة واصمتي لكي تتحكم بك كما تشاء؟

لم أقتنع كلياً بما قالاه لأنهما يجهلان حقيقة أمينة ويحملونها أوصافاً ليست فيها. لكن كلامهما المتكرر عنها بدأ يطرح عندي الأسئلة ومراجعتي لكل ما قامت به أمينة من سلبيات تجاهي جعلني في حيرة من أمري؛ فأنا أحب أمينة وأظهر ذلك أمام الآخرين فلماذا تعطي، هي، انطباعاً للآخرين أنها تكرهني؟ لن أتوقف عند رأيهم وسأتابع حدسي ومشاعري.

وزعت وزارة الثقافة البطاقات باسم المكرمين وقبالة كل مكرّم، اسم من سيقدمه.. استلمت البطاقات ولم أجد اسم أمينة. هل عدلوا عن تكريمها ولماذا؟ اتصلت بأحد المسؤولين عن الموضوع في وزارة الثقافة وسألته عن سبب غياب اسم أمينة عن اللائحة وأتاني جوابه أنها قد رفضت. اتصلت مباشرة بأمينة وسألتها عن سبب تمنعها عن قبول التكريم وردت بأعذار لم تقنعني إطلاقاً. «عيسى وهدى كانا على حق». قلت لنفسي، وتابعت الحديث مع أمينة قائلة: على كل حال سأراك يوم التكريم وسأمر بك لأسلمك بطاقة الدعوة. لم تعلق بأية كلمة، وفي اليوم التالي سلمتها البطاقة وخصّصت سهام ببطاقة

على حدة.

أتى يوم التكريم وبدأ المدعوون بالمجيء وكنت أنتظر أن تظهر أمينة وسهام ووديع بينهم، لكن عبثاً، إذ لم يأت أحد منهم. بدأت الحفلة وأتى تقديم عيسى رائعاً تظهر من خلاله معاني الصداقة الحقيقية، لكنني فوجئت أن التكريم كان مزدوجاً إذ استلمنا درعين أحدهما من دور النشر والثاني من وزارة الثقافة، والذي فاجأني أكثر هو أن أحد المكرمين كان صاحب دار النشر الذي رفض نشر روايتي الثانية. فرحت بدرع دور النشر كأنني أنتقم من ذلك الناشر الذي لو قرأنا ما نشر بعد رفضه لروايتي لتبين لنا أن السبب الذي تحجج به يومها لم يكن سوى كذب لأنه ينشر كتباً مليئة بالجنس المبتذل الذي يدفع إلى الغثيان. وهنا يحضرني تعليق حنا مينه حول الموضوع إذ قال مرة: «تكتب ليال في الجنس فنقرأ فكراً ويكتب غيرها من السيدات فكراً فنقرأ جنساً».

انتهى التكريم وشكرت عيسى على كلامه الجميل واجتمعت شلة الأصحاب في المقهى للتعليق على كل ما حدث ولم تخف هدى شماتتها بي وهي تقول: «هل تأكدت مما قلناه لك أنا وعيسى؟». لم أعلق على قولها، لكنني كنت مجروحة، وجرحي مزدوج؛ فإن رفضت أمينة التكريم بسببي، بدأت أفهم ذلك، لكن أن تتغيب عن الحضور فهذا دليل على صغرها وعلى حقدها. أما سهام فلماذا لم تحضر؟

ـ لأن أمها منعتها، افهمي حقيقة الأمور واخرجي من غيبوبتك، قال عيسى، وتابع: «أنا متأكد أن سهام كانت ترغب في الحضور، لكنها سايرت وضع أمها وتمنعت».

ـ ووديع؟ سألت.

ـ مسكين وديع، أتى تعليق هدى.

لكنني، في اليوم الثاني، تقصدت زيارة أمينة وأخبرتها بالتفصيل عن كل ما حدث وقرأت عليها كلمة عيسى التي علقت عليها بالفرنسية إذ قالت: «c'est une d'claration d'amour إنه إعلان حب أكثر مما هي كلمة للمناسبة. على كل حال عيسى يودّك جداً».

ـ لو علمت مسبقاً أنك رفضت التكريم لكنت اخترتك أنت مكان عيسى لأنك تعرفينني أكثر منه. أجبتها مفتعلة التعالي والمكابرة.

شعرتْ أنني أقول ذلك من باب الخبث واللؤم، لكنها تجاهلت الموضوع ولم تعلق عليه.

ـ ولماذا لم تحضر سهام؟ أتفهم غيابك أنت، لكن سهام كنت أنتظرها لأن حضورها كان سيفرحني جداً.

ـ لا أدري ربما كان لديها بعض المشاغل. أجابتني من دون انفعال.

ـ ووديع؟ سألت مسرعة.

ـ تعرفين أنه لا يهتم لهذه الأمور؛ فهو يفضل لعب النرد على كل ما يتعلق بالحفلات التكريمية وغيرها.

بعد أكثر من سنتين سألتني أمينة: «إن كانت وزارة الثقافة قد اقترحت تكريمي فهذا يعني أن لدي درعاً عندها، فهل يمكنني الحصول عليها؟».

ضحكت من سؤالها، في حينه، وما زلت أضحك كلما تذكرته. وحين أخبرت عيسى وهدى انفجرا من الضحك وعلقت هدى بالقول: «صحيح أن أمينة ذكية، لكن أحياناً تكون غبية جداً». وأجابها عيسى:

ـ الخبث، يلتقي أحياناً كثيرة مع الغباء.

75

لاحظتُ أن ليال استاءت من رفضي للتكريم، لكنها لم تفاتحني في الموضوع واكتفت بأن أخبرتني عن الحفلة وعن الحضور وعلقت على دور النشر إذ قالت: «أعجب للأمر، كيف أن أكثر من دار نشر رفضت كتبي ثم يأتي اتحاد الدور هذه ليكرمني».

ـ تعرفين أن كل هذه التكريمات تكون غالباً قائمة على العلاقات الخاصة. أجبتها كي أخفف من أهمية تكريمها.

ـ والجوائز أيضاً على ما أعتقد، وبخاصة الجوائز العربية. أجابتني ليال مسرعة.

ـ الجوائز تخضع لأحكام لجان متخصصة وهي غير التكريم على الإطلاق. أتى جوابي.

ـ وأحياناً يكون من بين أعضاء لجنة التحكيم من هو قريب منا

فيدافع عنا وننال الجائزة، كما أن هذه الجوائز هي نوع من الكوتا الموزعة على الدول و... قبل أن تتابع وتسترسل أجبتها:

ـ صحيح أنها كوتا لكن يبقى أن اللجنة تختار الأفضل دائماً.

ـ وهل من قاسمك الجائزة يستحقها فعلاً؟ سألتني.

ـ لا أدري، لكن مؤلفاته في موضوع النقد يجب أن تكون جيدة وإلا لما اختيرت.

ـ دعينا من الموضوع الذي يتطلب نقاشاً طويلاً قد لا ينتهي وأخبريني ما هو رأيك في روايتي الأخيرة؟ قالت ليال مغيرة اللهجة.

فاجأتني بالسؤال واحترت في أمري لأن الرواية جيدة لكن موضوعها لم يعجبني. لست أدري لماذا أغاظني التطرق إلى موضوع السحاق وسألتها:

ـ ماذا تبغين من إثارة موضوع السحاقيات في لبنان؟

ـ لا أبغي شيئاً على الإطلاق، فقط ألفت النظر إلى موضوع هو طي الكتمان وهو منتشر أكثر مما كنت أتوقع.

ـ وكيف استقبلت الرواية من قبل القراء؟ سألتها متجاهلة كل ما سمعته من إيجابيات حول هذه الرواية.

ـ إنها الرواية التي حظيت بأكبر مبيع بين رواياتي، وهي تُطلب بشكل خاص في دول الخليج وبالتحديد من السعوديات اللواتي يشترينها من مكتبة في باريس كما أعلم صاحب المكتبة أخي مرة حين زاره لشراء بعض الكتب.

ـ وهل هي ممنوعة في السعودية؟ سألتها.

ـ كل كتب الدار التي تنشر كتبي هي ممنوعة من دخول السعودية على ما أعتقد.

ـ وما الفائدة من الكلام عن موضوع كالموضوع الذي تطرقت إليه، وهل تغير شيء في الواقع؟

ـ أنا لا أبغي تغيير الواقع، كل ما أريده هو أن أعبر عن الواقع كما هو من دون حرج ولا تلطٍّ خلف أخلاقيات متخلفة. وما هو رأي سهام في الرواية؟

ـ لا أدري، ولست أعلم إن قرأتها أم لا. أتى جوابي قاطعاً.

قبل أن نتابع النقاش وصلت سهام وشاركتنا في الموضوع قائلة:

ـ لقد قرأت الرواية وأنا، بالفعل أشكر ليال لأنها هي من عالج هذا الموضوع وليس غيرها.

ـ ماذا تقصدين؟ سألتها.

ـ ليال عرضت الواقع كما هو من دون أي حكم أخلاقي، لقد عالجت الموضوع بإيجابية بحيث إن كل السحاقيات سيكنّ ممتنات لها.

ـ وهل هذا شرف مهم لليال؟ سألتُ باستهزاء.

ـ بالتأكيد لأنني لم أقرأ، حتى الآن رواية عربية حول هذا الموضوع. أجابت سهام.

ـ لكن الرواية الأجنبية عالجت نواحيه كلها وهناك روايات عديدة حوله. كان جوابي.

ـ صحيح، أردفت سهام، وهنا تكمن أهمية رواية ليال لأنها الأولى من نوعها باللغة العربية.

ـ الأمر ليس بهذه البساطة، فهناك بعض الروايات العربية التي أتت على ذكر الموضوع. أجبتها للتوضيح وإظهار سعة اطلاعي على كل ما يكتب.

ـ لكن هذه الروايات لم تُفرد له رواية كاملة. صحيح أن بعض الروائيات ذكرن شيئاً من الموضوع، لكنه أتى عابراً ومن دون أثر، بينما رواية ليال سيكون لها وقعها كما أعتقد.

نبوءة سهام هذه تحققت، إذ إن رواية ليال هذه قد ترجمت إلى الإنكليزية وصدرت بإصدارين أحدهما عادي والثاني مخصص لطلاب الجامعات ويحتوي على أسئلة حول الرواية. لكن ذلك تم بعد أن انقطعت العلاقة بيني وبين ليال، وقد أتت الترجمة بالضبط لأن الرواية هي الأولى، في العالم العربي، التي تعالج الميول المثلية عند النساء العربيات.

لكن قبل الانقطاع بيننا تمكنت ليال من كتابة رواية أخرى، عنوانها يثير الدهشة وقد قامت بذلك بعد أن أخبرتني أنها تحاول البحث في قول إنسوي خاص يميز هذا القول عن القول الذكوري السائد. حينها أدركت أن ليال صاحبة مشروع ثقافي وليست، فقط، كاتبة رواية، وهذا ما أثار غضبي. شعرت أنها تفلت نهائياً من تحت سطوتي. لكن الأمر لن يكون سهلاً عليها كما تعتقد.

76

سئمت النقاش المتوتر مع أمينة وسئمت محاولاتها الدائمة لإظهاري وكأنني لست على المستوى المطلوب، سئمت أستذتها علي ولست أدري متى سيطفح الكيل وأرمي بكل ما يربطني بها وراء ظهري وأتابع طريقي كما يحلو لي من دون رقيب أو معلق، وعقدة الذنب التي كنت أشعر بها لأنني سرقت منها حبيبها قد تبددت بسبب كل سلوكها المبطن بالتأنيب والتجريح الصامت. بدأت أشعر أنني سأتحكم بالصداقة كما أريد، فإما أن تكون واضحة وصافية من الجهتين وإلا ما عدت أريدها كما هي الآن. لكن هذا لا يعني أن أقاطع أمينة نهائياً، بل أن أتعامل معها على مزاجي ووفقاً لظروفي مع المحافظة على خصوصية ما يتعلق بي. سأستمر في زيارتها، لكن لن تحظى مني، بعد الآن بهذا الانفتاح الكلي الذي لم يكن يخفي شيئاً. باختصار ما عدت قادرة على تحمل كل ما تحملته حتى الآن.

اجتمعت بهدى وأخبرتها عن حالتي الجديدة، وأتى تعليقها:

ـ أنا كنت أرى ذلك منذ البداية وأنت كنت تصرين على العكس، وها إنك تكتشفين أنني كنت على حق. فماذا تقدم لك هذه الصداقة سوى «الخوازيق» حتى الآن؟ تحرري منها قبل أن تقضي عليك نهائياً.

كلام هدى هذا ضاعف من رغبتي في الابتعاد عن أمينة، لكن شعوراً دفيناً كان يضعف من هذه الرغبة، إذ كنت لا أزال أعاني حساً إيجابياً تجاهها وبخاصة تجاه سهام التي كنت أعتبرها كابنتي، وأيضاً تجاه وديع الذي لم يظهر منه إلا كل حسنة. ترددت في الإجابة، فتابعت هدى:

ـ أما زلت تشعرين بالذنب إزاءها؟

ـ لم أشعر به أصلاً، ولِمَ هذا الشعور الذي تتكلمين عنه؟

ـ لقد سبق وشرحت لك أنك في لا وعيك تلومين نفسك لأنك حرمت أمينة من حبيبها وتعتقدين أنك حطمت حياتها.

ـ ربما كان ذلك في البداية، أما الآن فأنا خارج الموضوع كلياً وما يجمعني بأمينة وأهل بيتها هو أمر مختلف تماماً.

ـ إذاً ابقي على حالتك هذه من التوتر والتساؤل. إن مجرد طرح السؤال حول صحة علاقة ما يعني أن هذه العلاقة تشكو من عيب ما.

ـ وهي تشكو فعلاً. أجبتها وأنا شاردة.

ـ إذاً اتخذي قرارك ولا تسأليني رأيي بعد الآن. قالت هدى بشكل حاسم.

بعد أن انصرفت هدى اتصلت بعيسى وطلبت منه أن نلتقي. لبى الدعوة كعادته وهو يقول: «لدي مشروع سأعرضه عليك».

ـ ما هو مشروعك؟ سألته في بداية اللقاء بيننا وقد كان عند (بو يوسف) في شارع الحمرا حيث نتعاطى الشراب.

من دون أن يجيبني طلب من (بو يوسف) كأسين لي وله وحين بدأنا الشرب قال:

ـ ما هو جديدك ولماذا طلبت أن نلتقي؟

عرضت عليه وضعي مع أمينة كما عرضته لهدى وأتى تعليقه كتعليقها تماماً واتهمني بأنني مازوشية وتابع: «مئة مرة قلت لك إنها لا تحبك بل تستغلك وأنت كالبلهاء لا تحركين ساكناً. لكن انسي الموضوع وسأخبرك عن مشروعي الذي سيخرجك من هذه الدائرة الضيقة التي تحصرين نفسك فيها، مع أمينة وغيرها من المعقدات».

ـ هات ما عندك، فأنا كلي سمع. قلت له مبدية استعداداً لسماع كل ما سيقوله.

ـ أفكر في إنشاء جمعية فلسفية يكون همها نقل التراث الفلسفي العالمي إلى اللغة العربية كي نخلق حقلاً فلسفياً عربياً يستطيع الباحث في الفلسفة أن ينطلق منه.

ـ فكرة رائعة، وممن ستتألف هذه الجمعية؟ سألته.

ـ لقد اتصلت ببعض الأصدقاء من الفلاسفة وسنعقد اجتماعاً عما قريب للتداول في الموضوع.

انتهى اللقاء بيننا بعد أن حدّدنا موعد الاجتماع الذي كان ناجحاً جداً، إذ تحمس الزملاء للفكرة وقد اقترحنا أن يشاركنا العمل من يريد من طلاب الدراسات العليا في الفلسفة. وبعد عدة اجتماعات متتالية أنشئت الجمعية وانتخب عيسى رئيساً لها كما انتخبتُ، أنا، نائبة الرئيس. وفي أحد الاجتماعات قال أحد الطلاب وهو تونسي الجنسية ويعمل في السفارة التونسية في بيروت: «سأدبر لكم رحلة إلى تونس حيث تلتقون الفلاسفة هناك، وهم كثر كما تعلمون».

رحبنا بالفكرة واخترنا من منا سيزور تونس لهذه المهمة وقد تم اختيار عيسى وأنا وبعض الأعضاء. بعد الاتفاق هذا سلمنا لائحة الأسماء للطالب التونسي كي يؤمن لنا تأشيرات الدخول إلى بلده.

بعد فترة من الزمن دعينا إلى اجتماع لتقييم ما قمنا به من اتصالات وغيره. جلسنا حول الطاولة المستديرة في المقر الذي استأجرنا في شارع الحمرا وكان معنا الطالب التونسي. وما إن بدأ الاجتماع حتى قال عيسى: «لقد تبخرت رحلة تونس».

ـ لماذا؟ سألت بسرعة، ما السبب؟

ـ السبب هو أنت يا سيدتي الجميلة والفضل يعود لصديقتك العزيزة.

ـ أنا؟ وهل التونسيون هم ضد إشراك الإنسى في النشاط الثقافي؟ سألته بكل جدية.

ـ لا، أجابني عيسى ضاحكاً، لا بل هم ضد السحاقيات.

هنا تدخل الطالب التونسي وقال:

ـ أخبرني المسؤول عن التأشيرات في السفارة أن ناقدة أدبية كبيرة، زارتهم لتحصل على تأشيرة بناءً على دعوة لها إلى تونس، ومسايرة لها قال لها المسؤول إنه بصدد تحضير تأشيرات لبعض أعضاء اللقاء الفلسفي الذي أنشئ حديثاً في لبنان، وحين سألته عن الأسماء توقفتْ عند اسم الدكتورة ليال وقالت: « ليال إنسى ذات ميول مثلية، ولا أدري كيف تمنحونها تأشيرة دخول إلى تونس».

ـ هل اقتنعتِ الآن بصداقة أمينة لك؟ سألني عيسى.

ـ ومن قال لك إنها هي؟ سألتُ ثم توجهتُ إلى الطالب التونسي وقلت: هل قال لك اسم الناقدة؟

ـ المسؤول تمنع عن ذكر اسمها، أجابني الطالب.

ـ لكن الأمر واضح، قال عيسى.

لم أعلق على الموضوع لكنني اتخذت قراري بالابتعاد عن أمينة من دون أن أعاتبها لأن العتاب لن يفضي إلى شيء فهي ستنكر كل ما سأقوله لها، وليس لدي دليل واضح على أنها هي التي افترت علينا.

لكن الغريب في الأمر أنني لم أشعر بعدُ أن الكيل قد طفح، واستمررت في زيارة أمينة ولو بتقطع وليس كالسابق وهي تعاتبني وتتصل بي كأنها تعوّض عن ذنب اقترفته وتظن أنني لا أعلم به.

77

انصرفت ليال للاهتمام بما يسمونه اللقاء الفلسفي وأصبحت زياراتها لي متقطعة ومتباعدة وكلما التقينا أخبرتني عن نشاطها الجديد الذي، يبدو أنها تعوِّل عليه الكثير، هي وعيسى الذي كان همه الفعلي أن يوجِد حقلاً فلسفياً أو أرضية تنطلق منها الكتابة الفلسفية العربية وقد عبر عن ذلك مرة حين زارني برفقة ليال إذ قال:

ـ أنا أحسد ليال لأنها وجدت طريقها ولغتها؛ اختارت كتابة الرواية وهي ناجحة فيها، بينما أنا ما زلت أبحث عن لغة فلسفية مميزة ولم أجدها بسبب غياب الأرضية التي تسمح بإنبات شتلة جديدة.

ـ ليال هي واحدة بين كثيرين من كتاب الرواية الناجحين جداً وعليها أن تناضل بشكل شرس كي تجد لها مكاناً خاصاً. أما أنت فكتاباتك مميزة حتى ولو كانت هذه الأرضية التي تتكلم عنها مفقودة. أجبته.

ـ لكنها ستنوجد، قالت ليال، وهذا هو هدفنا في اللقاء الفلسفي، وستكون كتابات عيسى أكثر ميزةً.

ـ كنا سنقوم بلقاء فلسفي مع بعض الأصدقاء التونسيين، لكن الأمر تعثر بفضل أحد المحبين الذي أفسد علينا هذه الإمكانية التي لو تحققت لفتحت لنا مجالات كبيرة. قال عيسى.

ـ أنا مدعوة إلى تونس، لقد حصلت مؤخراً على التأشيرة، وإن أردتم إرسال أي شيء إلى زملائكم هناك، فأنا جاهزة. قلت له بكل اندفاع.

هنا نظر عيسى إلى ليال وهز برأسه، فابتسمت له وقالت:

ـ شكراً لكِ، سنتصل بهم عما قريب وسندعوهم إلى لبنان.

ـ المهم أننا بصدد إصدار العدد الأول من المجلة وسيكون عدداً مميزاً بنصوصه وترجماته، قال عيسى.

ـ طبعاً سيكون لك نص مهم، قلت له.

ـ وليال، أيضاً ستشارك، أجابني.

ـ وهل ليال ستسبّع الكارات؟ تكتب الرواية وتكتب في الفلسفة و...

ـ لا تنسي أنها فيلسوفة وهذا ما يميز كتابتها الروائية. أجابني عيسى.

ـ بل هذا ما يقلل من قيمتها الأدبية، فالقارئ يشعر أن الكاتبة